الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٥)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥م ـ ١٤١٦هـ

الجزء الثامن عشر

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة

الجزء الثاني

- ٧٩٤٥ -

فصل

في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

قال ابن شدّاد : كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله، وفوّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرت القواعد، واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل الأموال، وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا، فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّا، إلى أن توفاه اللهتعالى إلى رحمته، ولقد سمعت منه رحمه الله يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي، وحين استتب له الأمر : مازال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما. وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، لكنه مقوّ مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوّف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويغدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله لا يخيب قاصداً ولايعدم وافداً، ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر، وولاية الوزارة. منهم: الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجدّه كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره الحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه، ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج، ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها، إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، فلايصل إليك ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له، ثم عدل إلى تطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من

الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعد وزاد في اقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً، وعدل إلى عين الدولة الياروقي وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا، فلم تنفعه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً)(١٠٧) وثبتت قدم صلاح الدين، ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرّفون إلاّ عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيما أن يكتب اسمه ولا يفرده في كتاب بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته، فلم يجبه إلى ذلك وقال:أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك، وأنت قاعد، فلا تسر فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر، وقائم فيها مقامي، وتخدمه بنفسك، كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدده، قال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم ، والخلل لايلتئم فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا:هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأنض رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته وأنارت على منار العلى أناة آياته، ورأى أولياءه تحت الويته وراياته، وأحبوه وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفعا، وما أفاده إلا تأصلا في السماح وتفرعاً، وضم من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد وصاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال، والعذب الزلال، ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه. وجرى القلم فيه بما خط له القلم في الأزل من وصف جهاده وسلمه ففي ذلك المنشور:« والجهاد أنت رضيع دره وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك ، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك ، وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك، فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحراً من الظبا، وأحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأسل الوهاد بدم العدى، وأرفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»، وفي طرته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه:« هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله سبحانه عليك ، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، و لمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوه، ولمن تبقى من تبعته بنا أعظم سلوة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا في

الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)» (١٠٨) يعني بمن مضى أسد الدين وبمن بقي صلاح الدين

ثم قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت، وتبدّدت عقودها، وما انتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام،بما تسنى له من المرام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخر عنه بالخلع والعطاء، وتردّدت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش، وبرح القلوب العطاش، فإن أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا حصلوا بين أمة لايعرفونها، بل ينكرونها ولايألفونها، ورأوا وجوها هناك بهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وعن الودّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوّله :

أيها الغائبون عني وإن كنـ
ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لايفارق الأظعانا
ملكوا مصر مثل قلبي وفي هـ
ـذا وهاتيك أصبحوا سكانا
فاعدلوا فيهما فأنكم اليو
م ملكتم عليهما سلطانا
لاتروعوا بالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقانا

حبـذا معهـد قضينـا بـه العيـ
ـش فكنـا بـربعـه جيرانـا
إذ وجـدنـا مـن الحوادث أمنـا
وأخـذنـا مـن الخطـوب أمـانـا
ورتعنـا مـن المنـى في ريـاض
وسكنـا مـن المغـاني جنـانـا

وبعد: فإن وفود الهناء وأمداد الدعـاء متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الـولاء إلى عـالي جنابـه المأنوس، ومنيـع كنفـه المحروس، فليهنـه الظفـران بالملـك وبالعـدوّ، وفرع هضبـات المجد والعلـو وكيف لايكـون النصر مسـاوقاً لـدين هـو صلاحـه، والتأييـد مرافقـاً لعزم هـو نجاحـه وفلاحه.

فـالشـام يغبـط مصراً مـذ حللـت بها
كما الفـرات عليكـم يحسـد النيـلا
نلتـم مـن الملـك عفـواً مـا الملـوك بـه
عنـوا قـديما ورامـ... ومفهانيـ...

قـال العماد: ورثيت أسـد الـديـن بقصيدة خـدمـت بها نـور الديـن، وعزيت بها أخاه نجم الدين منها:

تضعضـع في هـذا المصـاب المبـاغـت
مـن الـديـن لـولا نـوره كـل ثـابـت
فـأيـام نـور الـديـن دامـت منيرة
لنـا خلفـا مـن كـل مـودوفـائت
فما بـالنـا نبـدي التصـامـم غفلـة
وداعـي المنـايـا نـاطـق غير صـامـت
نـؤمـل في دار الفنـاء بقـاءنـا
ونـرجـو مـن الـدنيـا صـداقـة مـاقـت

ما الناس إلا كالغصون يد الردى
تقرّب منها كل عود لنا حت
لقد أبلغت رسل المنايا وأسمعت
ولكنها لم تحظ منا بناصت

ومنها
فلهفي على تلك الشمائل إنها
لقد كرمت في الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده ناصر الدين محمداً يقول:

ما بعد يومك للمعنى المدنف
غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجرأ الحدثان كيف سطا على الـ
ـأسد المخوف سطا ولم يتخوف
ســن ذا رأى الأسد المصور فـر سة
أم أبصر الصبح المنير وقد خفي
من ثابت دون الكماة سواه إن
زلت بهم أقدامهم في الموقف
ما كان أسنى البدر لو لم يستتر
ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف
أيام عمرك لم تزل مقسومة
لله بين تعبد وتعرف
متهجد العبادة أو تاليا
من آية أو ناظراً في مصحف
فجع الندى والبأس منك بحاتم
وبحيدر والحلم منك بأحنف
بالملك فزت وحزته عن قدرة
ومضيت عنه بسيرة المتعفف

ووصفت يا أسد الدين محمد
مدحا بها ملك به لم يوصف
وقفوت أثار الشريعة كلها
وقد اهتدى من للشريعة يقتفي
أأنفت من دنياك حين عرفتها
فلويت وجه العارف المتنكف

ومنها :
يا ناصر الدين استعذ بتصبر
مدن إلى مرضاة رب مزلف
وتعز نجم الدين عنه مهنئاً
أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لا نستطيع سوى الدعاء فكلنا
إلا بها في الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح منها قوله:
لك الحسب الباقي على عقب الدهر
بل الشرف الراقي إلى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت
بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتمّ بأعباء الوزارة نهضة
أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتم عن الإقليم غمّه كما
كشفتم بأنوار الغنى ظلمه الفقر
حميتم من الأفرنج سرب خلافة
جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم
ودائرة الأنصار أضيق من شبر

جلبتم إليه النصر أوسا وخزرجا
وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب في جيرون منها أواخر
وأوّلها بالنيل من شاطىء مصر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة
أضاءت وكان الدين ليلاً بلا فجر
وأبت إليكم يا بن أيوب دولة
تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية
فككتم بها الاسلام من ربقه الأسر
أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلتم لأيدى الخيل: مرّي على مرّي
لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى
ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه
كما لز مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها
بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى
ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم
وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفاً له فاستفزه
بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
فكيف أب أصبحت نار زناده
وإلا كنور البدر من سنة البدر

تــــوقـــره وســـــط النـــــدى كـــرامـــــة
وتحمـــل عنــه مــــا يــؤود مـــن الـــوقـــر
وتخلفــــه حـــــربـــــا وسلما خـــلافـــة
تـــــؤلـــف أضـــــداداً مـــن الماء والجمـــر
وكـــم قمـــت في بـــأس وجـــود ورتبـــة
بهاسره في الخطـــب والـــدســـت والثغـــر
ولـــــو أنطـــق الله الجهادات لم تقـــم
لنعمتكـــم بـــا لمستحـــق مـــن الشكـــر
يـــد لا يقـــوم المسلمـــون بشكـــرهـــا
لكـــم آل أيـــوب إلى آخـــر الـــدهـــر
بكـــم أمـــن الـــرحمن أعظـــم يثـــرب
وأمــــن أركـــــان الثنيـــــة والحجـــــر
ولـــــــــو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى
بساط الهدى مـــن ســـاحـــة البر والبحـــر
ولكـــــن شــــددتـــم أزره بـــــوزارة
غـــدا الفظهـــا يشتـــق مـــن شـــدّة الأزر
فهنيتـــــم فتحـــــاً تقـــــدّم جلـــــه
وبشر أن الكـــــل يتلـــو على الإثـــــر
ومــــا بقيـــــت في الشرك إلاّ بقيـــــة
تتمتهـــا في ذمـــة البيـــــض والسمـــــر
وعنـــــد تمام الملـــــك أتـــــى مهنئـــاً
وملتمساً أجر الكهانة والزجر
ولـــو لا اعتقـــادي أن مـــدحـــك قـــربـــة
أرجـــي بها نيـــل المثـــوبـــة والأجـــر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطري
ولي سنـــوات منـــذ تبـــت عـــن الشعـــر
فـــــاوص بي الأيـــــام خيراً فـــــإنها
مصرفـــة بـــالنهـــى منـــك وبـــالأمـــر

وجـــائزتي تسهيــل أذني عليكـــم
وملقـــاكـــم لي بـــالطـــلاقـــة والبشر

وقال أيضا من قصيدة :

يـــاشبيـــه الصـــديـــق عـــدلا وحسنـــا
وسميـــا حكـــاه معنـــى ومغنـــى
هـــذه مصر يـــوســـف حـــل فيهـــا
يـــوســـف مـــالكـــا ومـــا حـــل سجنـــا
أنـــت حـــرمـــت ان يثلـــث فيهـــا
بســـوى الله وحـــــده أو يثنـــى
إنما الملك والوزارة جسم
أنـــت روح فيـــه وفي اللفـــظ معنـــى

وقال أيضا من قصيدة:

ملـــك صـــلاح الـــديـــن لا قـــوّضـــت
أطنـــابـــه ملـــك البقـــا والصـــلاح
سيرة عـــــدل حسنـــت عنـــدنـــا
مـــاكـــان مـــن وجـــه الليـــالي القبـــاح
ســـافـــر في الـــدنيـــا وأقطـــارهـــا
ذكـــر غـــــداعنـــــه جميـــــلا وراح
قـــل لابـــن أيـــوب وكـــم نـــاصـــح
أنفـــع ممـــن هـــو شـــاكـــي الســـلاح
حـــارب على مثـــل نجـــوم السماء
فملـــك مصر مـــاعليـــه إصطـــلاح
قـــولا لمن في عـــــزمـــــه فترة
أرجـــــع إلى الجدّ وخـــــل المزاح
فـــالقـــدس قـــدأذن اغـــلاقـــه
على يـــدي يـــوســـف بـــالانفتـــاح

وقال أيضا من قصيدة:

ونبت بمصر عن سميك يوسف
كما ناب عن سكب الحياء واكف سكب
حذوت على سجلي نداء وهديه
وإن كنت لاسجن حواك ولاجب
ووافقته في الصفح عن كل مذنب
فما منك تشريب وإن عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجلياني من قصيدة طويلة:

أبو المظفر مأوى كل مضطهد
بحكمه وندداه يضرب المثل
مهما يمل جائر أو عائث عمه
فعند عدل صلاح الدين يعتدل
أحيى به الله مصراً فهي ناشرة
وافتكها من عدوّ ما به قبل
كم للفرنج بها وردو منتجعا
ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم
وأدبروا بقلوب شهمها وجل
ملك تقلد سلك الملك منتظما
وقال للمال هذا منك لي بدل
ففرق المال جمعا للقلوب به
وحسبه فيهم ادراك ما سألوا
إن الملوك الذين امتدّ أمرهم
لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة فالأجناد لو علموا
بخل المليك وجاءت شدّة خذلوا

فصل

وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور، وماجرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملا على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي الحلبي في السيرة الصلاحية، فأحببت ذكره مختصراً:

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له: لاتزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك، ويقال إنه أنشد أبياتا منها:

فإذا تبدد شمل عقدكما
لاتأمنا من شاور السعدي

وكان شاور متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل، ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمة العاضد فحدثها واجتمع إلى رزيك أولاد عمته، ومن جملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه، بعزل شاور، فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب، وبلغ شاورا فجاهر بالعصيان، وجمع العربان، وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك نصف الليل فضل الطريق وتاه فوقع عند أطفيح، وثم بيوت عرب فقبضوا عليه، وحمل إلى شاور، وقد دخل القاهرة وتسلمها، وأخرجت إليه خلع الوزارة، وتم أمره، ولما حصل رزيك عند شاوراً أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه، هذا جزاء من لايرعى الجميل، وكان للصالح إليه إحسان، وتفرق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال، وصار إلى حماه، فأقام بها واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار، فوفوا له

وردّوها عليـه، ثم أراد تقـي الدين أخـذها منـه، فقال : مـن العجب أن الفرنجي يفي لي بردّها، وتأخذها أنت مني، فكف عنه.

قـال: وتمكـن شـاور، وكـان له ثـلاثـة أولاد: طـي والكـامـل وسليمان فتبسطـوا على النـاس وتعاظمـوا فمجتهـم الأنفـس، وكان ملهـم وأخـوه ضرغام مـن صنائع الصـالح بن رزيـك، فلما شاهـدوا ميل النـاس عن شاور بسبـب أولاده أخذا في مراسلة رزيـك بن الصالح وهـو في السجن والعمل لـه في إعادتـه إلى الوزارة، واتصل ذلـك بطي بـن شاور، فـدخل على أبيه، وقال له: أنـت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمـرك، وقد شرعا في أمر رزيك، واستحلفا له جماعة مـن الأمراء ولا يمكن تلافي حالك إلاّ بقتل رزيـك، فقال لـه شاور:إن الصـالح أولاني جميـلاً وبسببه حللـت هذا المحـل، فتركه ولـده طي ودخل على رزيـك فقتله في سجنـه، وسمع شـاور ذلك فقـامت قيـامته، ونمـى الخبر إلى ضرغام وأخيـه ملهم فثـارا وأثارا من استحلفاه مـن الأمراء وزحفا بالعساكر إلى شـاور، فانهزم وخرج مـن باب القـاهرة وهـرب إلى الشـام، وأدرك ضرغام ولـديه طيـا وسليمان فقتلهما، وأسر الكـامل فـأخـذه ملهم واعتقلـه عنـده، وأراد ضرغام قتلـه فمنعه منه ملهم، وحفظ له جميلاً، كـان قد فعله معه، واستقر أمر ضرغام في الوزارة، وخلـع عليه ولقب بـالملك المنصـور، ولما استقر به الأمـر بلغه أن جماعة مـن الأمراء حسدوه واستصغروه وكـاتبوا شاوراً، وكـان صار إلى الشـام، فـأخـذ في إعمال الحيلة عليهـم وأحضرهـم إلى دار الـوزارة ليـلا فقتلهم جميعا ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنـازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال إنه جعلهم في توابيت وكتب على كـل تابوت اسم صاحبه، فكـان ذلـك أكبر الأسباب في هـلاكـه، وخـروج دولة المصريين عـن يـد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء، وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصـل إلى دمشق بعد تحققه قتل ولديه، ولما وصـل إلى بصرى اتصل خبره بنـور الـديـن فندب جماعـة إلى تلقيـه،

وأنزله في جوسق الميدان الأخضر وأحسن ضيافته وإكرامه، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعذارنا في التقصير في حقه، وسلوه فيما قدم وما حاجته، فإن كان ورد علينا مختارا للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه، ويقوم بأربابه وأوده، وتكون عونا له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة إليه بالرسالة، فشكر احسان نور الدين، وسكت عما وراء ذلك، فسأله القوم الجواب، فقال : إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً، فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه، فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت أيضا وأطال ثم قال: إن رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علوّ الرأي، فعرفوا نور الدين بمقالته فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته في أحسن زي وأكمل شارة، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر، وأما ضرغام فإنه حين استقرّبه الأمر أنشأ كتابا إلى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس، يظهر فيه الطاعة، ويعرّض بخذلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وحصل على جميع ما كان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون

نقيبته لأنـه لم يرسله في أمـر إلا نجح، ولم يولجه في مضيـق إلا انفتح، ولما حضر أسد الديـن إلى دمشق، خلا به نـور الدين وتحدّث معه بـأشياء في أمر مصر، وأمره بالاستعداد، وكان نور الـدين قد أزاح علة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه، وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر ورغبـه في ملكها وأنه إذا ملكها كـان من قبله فيهـا، ولما بلغ شاورا استتباب أمر العسكـر سأل عن المقدّم عليه، فقيل لـه أسد الدين شيركوه، فلـم يطب له ذلـك، لأنه ظن أن التقـدّمة تكون لـه، فلما زوحم بهذا القود سقـط في يده وفـت في عضده، ولم يجد بـداً من المسير فخـرج واجتمع بـأسد الديـن، وسارا جميعا حتـى وصلوا أطراف البـلاد المصرية، ونـزلوا على تـل في الحوف قـريب مـن بلبيس يعـرف بتـل بسطة وضربـوا خيـامهـم هنــاك، ولما اتصـل بضرغـام خبر ورود شـاور وأســد الـديـن بالعســاكر الشـامية جمع أمراء مصر واستشـارهم، فـأشار شمـس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جـريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهـو على يومين مـن القاهرة، فـإنهم لايثبتون لكـونهم خرجـوا من البرية ضعفاء، ولمكان قلة الماء عليهم، لأن المسسافر إلى مصر يحمل الماء مـن إيلة مسيرة ثـلاثـة أيام، فلـم يروا ذلـك، واختـاروا أن يلقوهـم على بلبيـس ، فأمـر ضرغام الأمـراء بـالخروج فخرجـوا في أحسن زي وأكمـل عـدّة، والمقدّم عليهـم نـاصر الديـن ملهم أخـو ضرغـام، وجاؤوا حتـى أحاطوا بـالتل الذي كان أسـد الدين نازلاً عليـه، ولما عاين أسد الـدين كثرة العســاكر، وأنهم قد ملكـوا عليهم الجهات، وسـدّوا منافذ الطـرقات قال لشاور: ما هـذا لقد أرهقتنا وغررتنا، وقلت إنـه ليس بمصر عساكر ، فجئنا في هـذه الشرذمة، فقـال له شاور: لا يهولنـك ما تشـاهد مـن كثرة الجمـوع فأكثـرهـا الحاكة والفـلاحـون الـذين يجمعهـم الطبـل، وتفرقهـم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الـوطيس، وكلبت الحرب، وأما الأمـراء فإن كتبهم عنـدي وعهودهم معي، وسترى ذلـك إذا لقيناهـم، ثم قـال: أريد أن تأمر العساكـر بالاستعداد والركوب، ففعل ونهاهـم شاور عن القتال،

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار والتهب الحديد.على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين، وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ، ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا، وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياما، وراسل شاور العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة ، فأذن له، وكان ضرغام صار إلى تحت القصر، وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزما ، وخرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتصيح عليه فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله فقال له ضرغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مناك، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه، فأرداه ونزل إليه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما ، فصعب على أسد الدين وأوجعه ضرباً وأراد قتله، فشفع فيه شاور، ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلا فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار، وقال: ترحل الآن في أمن الله وفي دعته، فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الثاني لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، فقال شاور: أنا ما قررت شيئاً مما تقول أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى

الشام، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا انفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين : أنا لايمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعد أسد الدين أيضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الفرنج مرّي يستنجده ويقول له إن شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاسبتاريته، فخرج مريّ من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة ، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبيس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر، وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور، فكاتب الأطراف بقدوم العساكر، فقدم عليه عساكر الشرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب فنزل بهم مجد الدين بن الداية، وكان نائب نور الدين بحلب إلى جهة حارم، ونزل على أرتاح، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل، وقتل وأسر عالما عظيما، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه على حصن الأكراد، فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في مرجه، فخرج إليه الفرنج الأخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتماسك الناس، وساروا على وجوههم وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره

على أرتاح، وكـان أخوه نصرة الـدين مع الفـرنج ، فلما عـاين أعـلام نور الديـن لم يتماسك أن حمل بجميع أصحـابه قاصـداً أخاه نور الـدين، فلما قرب منـه نزل وقبل الأرض بين يـديه، فلـم يلتفت إليه، فتـم على وجهه، واصطف الناس للحـرب ، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ، ثـم عادت فوجـدت راجلها جميعـه قد قتـل، والخيل قـد اطبقت عليهـم فنزلـوا عن الخيول وألقـوا اسلحتهم وأذعنوا بـالأمان، فأخـذوا جميعا قبضاً بـالأيدي، وسار إلى حارم ففتحها، وأراد النزول على أنطاكيـة فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين، فـانحرف قاصداً لدمشق، ونـزل على بانياس فافتتحها، وأغار على بلد طبرية وجمع أعـلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة، وسلمها إلى نجـاب وقال له: أريد أن تعمل الحيلـة في الدخول إلى بلبيس وتخبر أسد الدين بما فتـح الله على المسلمين ، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بلبيس، فإن ذلك مما يفت في أعضاد الكفار، ويـدخل الوهـن عليهم، ففعـل ذلك ، فلما رأى الفرنـج الأعلام والشعـاف قلقوا لـذلـك وخـافوا على بـلادهـم، وسـألوا شـاور الإذن في الانفصال، فانزعـج شاور لذلك وخاف من عاقبـة الأمر، وسألهم التمهل أياما، وجمع أمراءه للمشـورة، فاشاروا عليه بمصالحة أسد الـدين، وتكفل له اتمام الصلح الأمير شمـس الخلافة، فأنفذه إليه فتم الصلـح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

وحكي أن شـاور أرسل إلى أسد الديـن وهو محصوربيلبيس يقـول له: إعلـم أنني أبقيـت عليك ولم أمكـن الفرنـج منـك لأنهم كانـوا قادريـن عليك، وإنما فعلـت ذلك لأمـرين: أحـدهما أني ما اختـار أن أكسر جاه المسلمين وأقوي الفـرنج عليهـم، والثاني أني خفـت أن الفرنـج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا: هذه لنا لأنا فتحنـاها بسيوفنا، وما من يوم كان يمضي إلا وأنـا أنفـذ إلى كبـار الفـرنـج الجملـة مـن المال ، وأسـألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف.

قال:وأقـام أسد الدين بظـاهر بلبيس ثـلاثة أيام، ورحلت الفـرنج إلى جهة الساحل، وسـار أسد الدين قاصداً الشـام وجعل مسيره على البرية، واتفـق أن البرنس أرنـاط صـاحب الكـرك والشوبـك تـأوّل ليمينه التـي حلفهـا لأسد الـديـن، وقال: أنـا حلفت أني مـا ألحق أسـد الديـن، ولا عسكـره في البر، وأنا أريـد أن الحقـه في البحـر، وصار في يـوم واحـد إلى عسقلان وخـرج منها إلى الكـرك والشوبـك، وجمع عسكره المقيـم هناك، وقعد مرتقبـا خروج أسد الديـن من البرية ليوقـع به ، وعلم أسد الـدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين، فسلك طريقـاً من خلف المكان الذي كان فيـه أرناط، شق إلى الغور وخـرج من البلقاء، وسلمه الله تعـالى منه، ودخل دمشق فاجتمـع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمـه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشـوّقه إلى ملكها، فرغـب فيها نور الديـن وأمره بتجنيد الأجناد، واستخدام الرجال.

وأما شـاور فإنه بعـد رحيل أسد الـدين والفـرنج إلى بلادهـم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له همة إلا تتبع من علـم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة، وكـان استفسد جماعة من عسكـر أسد الدين منهـم خشترين الكردي وأقطعه شطنوف، وقتل شاور جماعة من أهل مصر، وشرّد آخرين.

ثم توجـه أسد الدين في ربيـع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً للـديار المصرية، وكتـم أخباره فما راع شاوراً إلا ورود كتـاب مري ملك الفـرنج يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصـل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر، فطلب شاور منـه إعادة النجدة، والمقرّر من المال يصل إليـه على ما كان يصل إليـه في العام الماضي، فسار مـري في عساكر الفـرنج إلى مصر على جانب البحر، وكـان أسد الدين سائراً في البر فسبقه الفـرنج، ونزلوا على ظاهر بلبيس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك وقعدوا جميعا في انتظار أسد الديـن، وعلم أسد الدين باجتماع الفـرنج بشاور على بلبيس،

فنكب عن طريقهم، وأم الجبل، وخرج على أطفيح وهي في الجنوب من مصر، وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره فسار في عساكره والفرنج في صحبته يقفون أثره، واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها وعدّى إلى البر الغربي ، ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعي عسكريته فأوقع بهم، وأحضر شاور أيضا مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريين والطلحيين والقرشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور بقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبدا ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أؤمل منك إلا نصر الاسلام فقط، وهو أن هذا العدوّ قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسر، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد نائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً ، فلما صار الرسول إلى شاور وأدّى الرسالة أمر به فقتل، وقال: ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج، ثم أعلم الفرنج بما أرسل إليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه، وجدّد لهم أيمانا وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنه الله لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج، ونزل شاور في اللوق والمقسم وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم ،

فقامـوا معه، وأمروا عليهـم نجم الدين بـن مصال، وهو ابـن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ إلى الاسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنه.

حـدّثني الشريـف الإدريسي نـزيل حلـب قال: كنـت بـالاسكندريـة يومئـذ، فكتب معي ابن مصـال كتابا إلى أسـد الدين وقال لي : قـل له : إني أخبرك أن السلاح واصـل إليك، وكان أنفـذ لأسد الـدين خزانـة من السلاح، قـال: فسبقتها بيـومين وحضرت بين يدي أسـد الديـن وأعطيته الكتـب وشافهتـه بـرسـالة ابـن مصـال في معنـى السلاح والآلات، ثـم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف.

قال: وبقينا على الجيزة يـومين فوصل إلينا رسول ابن مـدافع يخبر أسد الـديـن بقرب شـاور منـه، ويـأمره بـالنجـاة ، فترك أسـد الديـن الخيـام والمطابـخ وما يثقـل حمله وسار سيرا حثيثـا حتى قـارب دلجة، فأمـر أسد الدين بنهبهـا فنهبت، ونزل الناس لتعشية الدواب ، فلـم تستتم عليقها، حتـى أمر أسـد الـدين بـالرحيـل، وأوقـدت المشاعـل ليـلاً وسرنا فـإذا الجاووش ينـادي في الناس بـالـرجوع، وعـاد أسـد الـدين إلى دلجة فنـزل عليها، ونزل شاور على الأشمونين، وأمر أسـد الدين الناس أن يقفوا على تعبية، فأصبحـوا على ذلك والتقوا فقتل مـن أصحاب أسد الديـن جماعة كثيرة وانهزموا، وكـان أسد الـدين قد فـرّق أصحابه فـريقين: فريقـاً معه، وفريقـاً جعله مـع صلاح الديـن، وأنفذه ليأتي مـن خلف عسكـر شاور فدخـل الضعف مـن هذا الطريـق، ثم إن أصحاب أسـد الديـن تجمعوا وتماسكوا وعلموا أنه لا منجـى لهم إلا الصبر فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلـم تزل الحرب قائمة إلى الليل، فولت عساكر الأفرنـج والمصريين الأدبار، وكاد مري ملك الافرنـج يؤسر، وصار شاور ومن سلـم معه إلى منية ابن خصيـب، وسارأسد الديـن على الفيوم إلى الاسكندريـة، فدخلها ونـزل القصر، وجعل فيه محبـس الفرنج الـذين أسرهـم، وكان فيهـا ابـن الزبير متـوليـا ديوانها فحمـل إلى أسـد الديـن

الأموال وقـوّاه بالسـلاح، وخاف أسـد الديـن أن يقصده شـاور والفرنـج فيحصروه ، فربما تأذى بالحصـار فأمر صلاح الدين بالمقـام بالاسكندرية، وتـرك عنـده جماعة مـن العسكـر ومـن بـه مرض أو جـراح أو ضعـف، واستحلف له وجـوه الاسكندرية وأوصاهـم به، ورحل في أقويـاء عسكره قاصداً إلى الصعيد، ونزل الفرنج وشـاور على الاسكندرية وحاصروها مدّة ثلاثـة أشهر بـأشدّ القتـال، وبذل أهلهـا في نصرة الملك النـاصر أموالهم وأنفسهـم، وقتل منهـم جماعـة عظيمة ولما صـار أسد الـديـن بالصعيـد حصـل من تلـك البلاد أمـوالا عظيمة، ولم يـزل هناك حتـى صام شهـر رمضان، واتصل بـه اشتداد الأمر على الاسكندرية ، فرحـل من قوص إلى جهتهـا واتبعه جماعـة كثيرة من العـربان وأهـل تلك البـلاد، وبلغ ذلـك شاورا فـرحل هو والفـرنج واضطر إلى الصلـح، وضجرت الفرنـج أيضا، فتوسط ملـك الفرنج في ذلك فتقرر أمر الصلـح على أن شاورا يحمل إلى أسد الدين جميـع ما غرمه في هذه السفرة، ثم يعطي الفـرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهـم إلى بلاده، وطلب صلاح الدين مـن ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدّة مراكب.

قـال الادريسي: كنت في جملـة مـن خـرج في المراكب، فلما وصلنـا إلى مينا عكـا أخذنـا واعتقلنا في معصرة القصـب إلى أن وصل الملـك مرّي، فأطلقنا فخرجنا إلى دمشق، وخرج صـلاح الدين من الاسكندرية بعد أن استحلـف شاوراً لأهلهـا بأن لا يتعـرض لهم بسوء، واجتمـع بعمه أسـد الديـن، ثم أنفذ شـاور وقبض على ابن مصـال وجماعة ممن أعـان صلاح الدين وضيق عليهم وتتبع أهل الاسكنـدرية، واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمـع بملك الفرنـج وقال لـه: إن شاوراً نقض الأيمان، قـال: وكيف ذلك؟ قـال: لأنه قبض على من لجأ إلينـا فقال: ليس له ذلـك وأنفذ إلى شاور وقال له : إن الإيمان جرت على أن لا تتعـرض لأحد من أهل مصر ولا الاسكندريـة، وألزمه يمينـاً أخرى في أن لا يتعرض لأحـد ممن لجأ إلى

أسد الـدين أو صلاح الـدين، ولما شاهـد من التجأ إلى الأسـد والصلاح فسـاد تلك الأحـوال خـافوا مـن شـاور، فأخـذوا في الـرحيل إلى الشـام، واتصل ذلـك بشاور فخـرج بنفسه وجمع جميـع من عـزم على الرحلـة إلى الشام وحلـف لهم على الإحسان إليهم وحمايـة أنفسهم وأمـوالهم، فمنهم مـن سكن إلى ايمانـه، ومنهم مـن لم يسكن ورحـل، وألهم الله تعالى أسـد الديـن أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خـاطر فقصدتها، فراسـل الملك مرّي وقـال له: قـد سأل أهل مصر يمين الملـك أن لا يدخـل إليهم ولا يتعرض لهم، فامتنع الملك، ثم أجاب خـوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنـه ربما قصد ديـار مصر، فـربما اجتمعا عليـه فلـم يجد بداً مـن اليمين، فحلف وحلف أصحابه.

وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الـداء الدوي منها لأنه شاهدها، وشاهـد مغلاتها، فـوجدهـا أمراً عظيماً، فأخـذ نور الـدين في تهويـن أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها.

وحدثنـي أبي رحمه الله قال: حـدثني غير واحـد أن شاوراً كـاتب نـور الـدين في ذلـك وضمـن له أن يحمـل في كل سنـة عـن ديار مصر مـالاً مصانعـة، ولما بلغ شـاور أن نور الديـن صرف همة أسد الـدين عـن ذكر مصر والتعرض لها أنفـذ رسولاً بهديـة سنية وأصحبه كتـابا حسنـا أوله:« ورد كتـاب استدعـى شكري وحمدي واستخلـص من الصفـاء ما عنـدي واستفرغ في الثناء على مـرسله جهدي، فكأنما استملت معانيـه مما عندي، واشتملت على حقـائق قصدي، وسررت لـلإسلام وأهلـه، والديـن الذي وعد الله أن يظهر على الديـن كله، بأن يكون مثله ملكاً من ملـوكه يرجع إليـه في عقده وحلـه، وتشير الأصابـع ، وتعقد الخنـاصر على علو محلـه، والله يزيده بمكـانه تثبيتاً وقوة، ويحقق على يديـه مخايل النصر المرجوة، فما أسعد رأسـاً دل على نصرة الكلمة، ودعـا إلى سبيل الفئـة المسلمة، ووفـر

على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة، وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني وباق منه على ما نقل عني لا أتغير عن المصلحة فيه، ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه، ولا استكثر كثيراً أصل إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا ونصرة كانتْ في هجير الخطوب برداً وظلاً، وأنعم لا تزال آياتها بألسن الحمد تتلى وتملى، ولعمري لقد علا بناؤها فخراً، وارتفع على الأملاك قدراً وذكرا، وجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها الكدر، ويحوطها فلا تطرق إلى جوانبها الغير، ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابه كصفحه يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال».

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مري ملك الفرنج في مصر، وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاسبتارية وتشاوروا فجرت بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته، وفرق قراها على أجناده، وكان لعنه الله لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرف له خبر ارتفاعها ، ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه يقال له بدران وسيره إلى لقاء مرّي يسأله عن السبب في قصده، فاجتمع به وسأله فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يورّي عنهم ولا يكشف لشاور حالهم، ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة ويعلم شاور أنه إنما قصد مصر للخدمة ، ففعل ذلك بدران، ولما

سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشني ولم ينصحني، وأنا فواثق بك فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مرّي، وكان بينهما مؤالفة، فلما دخل على الملك قال له : مرحبا بشمس الخلافة، فقال: مرحبا بالملك الغدّار، وإلا مالذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أن الفقيه عيسى زوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا: هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد، فقال له الملك : الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على أرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرّجنا لنتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة فأي شيء قد طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور أبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم، كتب إلى شاور يقول له : إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء، في كل عام، فأجابه شاور إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، أو إذا قدم علي عدوّ، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك، ولا لك عندي مقرر، فأجابه مري أن لابد من حضوري وأخذي المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد، فأخذ في تجنيد الأجناد ، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وميرة وعدّة، ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لايلوي على قول حتى خيم على بلبيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس، وابن الخياط يحيى، وابن قرجلة، وأرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلبيس وقال له: أين ننزل؟ قال: على

أسنة الرماح، وقـال له: أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها، فـأرسل إليه مرّي نعم هي جبنـة، والقاهرة زبدة، ثـم قاتل بلبيس ليـلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وخـرب أكثرها، وأحرق جل أدورها ثـم أخـرج الاسـارى إلى ظاهـر البلـد وحشروا في مكـان واحـد وحمل في وسطهم برمحه، ففرقهـم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانـت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفـرقة التي كانـت عن يساره لعسكـره، وقال لفرقته قـد أطلقتكم شكـرا لله تعالى على مـا أولاني من فتـح بـلاد مصر، فإني قـد ملكتها بـلا شـك، ووقـف إلى أن عـدّى أكثـرهم النيـل إلى جهـة منيـة حمل ، وأخـذ العسكر نصيبهـم من الأسـارى فاقتسمـوهـم، وبقـي أهل بلبيـس الذيـن أسروا أكثر مـن أربعين سنة في أسر الفـرنج، وهلـك أكثرهـم في أيديهم ، وأفلت منهـم اليسير لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديـار مصر وقف مغل بلبيـس على كثرتـه على فكاك الأسرى منهـم، وسامـح أهل بلبيـس بخراجهم إلى آخر أيامه، ولما اتصل بشـاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر، وأن الفـرنج شحنوهـا بالرجـال والعدد وجعلوهـا لهم ظهراً أشفق من ذلـك وطلب الأذن على العاضد، فلما اجتمع به بكـى بين يديه وقـال : اعلم أن البـلاد قد ملكـت علينا، ولم يبـق إلا أن تكتب إلى نـور الدين ، وتشرح له مـا جرى، وتطلب نصرته ومعونته، فكتـب جميع ذلك، وأرسل شاور طي تلك الكتب كتباً وسخم أعاليها بالمداد.

قال: وحدثني شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتـب هذا الكتـاب برأى أبي شمـس الخلافة لأنـه لما رجع مـن عند مري لعنـه الله بعد أخذ بلبيس إجتمع بـالكامل بن شـاور، وقال له: عنـدي أمر لايمكنني أن أفضي بـه إليـك إلا بعد أن تحلـف لي أنـك لا تطلع أبـاك عليه، فلما حلـف له، قـال له : إن أبـاك قد وطـن نفسه على المصابرة، وآخر أمـره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نـور الدين وهذا عين الفساد، فـاصعد أنت إلى العـاضد وألزمـه أن يكتب إلى نور الـدين

فليس لهذا الأمر غيره، فقصده الكامل، وكتب الكتاب، فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالة سرّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور باحراق مصر، وانذر أهلها ، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت، وأحرقت مصر من تاسع صفر، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، ثم إن الفرنج لعنهم الله نزلوا في بركة الحبش، وانبثت خيولهم في الأطراف، وتخطفوا من ظفروا به، فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مري لعنه الله، فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر، وقال له: أترى دخانا في السماء، قال: نعم قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرّقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه، فخل الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي وكوني كلما قلت لك أنزل في مكان تقدّمت إلى غيره ما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة، فقال: هو كما تقول ولابدّ من نزولي القاهرة، ومعي فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها، ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته، فقاتلوا البلد أياما، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة إلى أن تصل عساكر الشام، فأنفذ شمس الخلافة إلى مرّي لعنه الله تعالى برسالة طويلة فتل بها في غاربه ودار من حواليه، وفي ضمنها أن هذا بلد عظيم، وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البته، ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة،

والرأي أن تحقن دمـاء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئـاً أدفعه لك فيحصل لك عفـواً، فاستقرّت المصانعـة على أربع مائة ألف دينـار، وقيل ألفي ألف دينار يعجـل له منها مائة ألف دينار، فـأجاب مري إلى ذلك، وانعقدت الهدنـة، وحلف مري ورحل إلى بـركة الحبش، وحمل شـاور إليه مائة ألـف دينار، في عـدّة دفعات سـوّف فيها الأوقـات، ثم أخـذ يمطله بالباقي انتظـاراً لقدوم العساكر، ويوهم أنه يجمـع لهم الأموال، فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهـم فلما رأوهم رحلوا إلى بلبيس، ونزل أسد الـدين بالمقسـم، ثم رحل ملـك الفرنـج ونزل على فاقـوس ، وأتبعه أسد الديـن ونزل على بلبيس، وكان لما اتصـل بشاور وصول أسد الـدين إلى صدر أنفـذ شمس الخلافـة إلى ملك الفـرنج يستطلـق له منـه بعض المال ، فصار إليه واجتمع به وقال: قد قلّ علينا المال، فقال ملك الفرنج اطلب ماشئـت قال: اشتهى أن تهب لي النصف؟ قال: قـد فعلت، فقال شمس الخلافـة: ما بلغني أن ملكـا في مثل حالـك وقدرتك علينـا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنـا، فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عـاقل ، وإن شـاوراً ملك وإنكما مـاسألتماني أن أهبكما هـذا المال العظيم إلا لأمر قد حـدث، فقال له: صدقت هذا أسد الـدين قد وصل إلى صدر نصرة لنا، وما بقي لك مقـام، وشاور يقول لك : أرى أن ترحل ونحن بـاقون على الهدنـة، فإنـه أوفق لـك ولنا، وإذا حصـل هذا الـرجل عندنا أرضيناه مـن هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متـى قدرنا، وإن نحن أخـرجنا في رضاهـم أكثر من هذا المال عـدنا عليك بما يبقـى علينا من المقـدار، فقال ملـك الفرنـج : أنا راض بـذلك، وإن بقـي علي شيء حملته إليكم، وعوّل على الـرحيل ، فقال له: بعد أن تطلق طـي بن شاور وجميع مـن في عسكرك من الأسارى ولا تـأخذ من بلبيس بعـد انصرافك شيئاً، فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلت الفرنـج عن القاهرة نـزل أسد الدين بـأرض يقال لها اللوق

وأخرج اليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وأن ندرك الفرنج ونوقع بهم؟ فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البرّ الغربي ، وليس لهم وزر، وأما الآن فلا لأنهم على البرّ المتصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البرّ في أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج

ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعا كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه، ثم إنه خرج إليه في الليل سراً متنكراً واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمور كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره، وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة، فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية، وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد وتراجع الناس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة، وأحسن إليهم وأما شاور فإنه أخذ في التودد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه ونوى تبقيته في ملكه، وصفا له قلبه، حتى أنفذ إليه سراً أحرس نفسك من عساكر الشام.

وأما عسكر الشام فإنهم لما رأوا طيب بلاد مصر، وكثرة خيرها، وسعة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سكناها ورغبوا فيها رغبة عظيمة فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها، ثم علم أنه لايتم له ذلك وشاور باق فيها، فأخذ في أعمال الحيلة عليه، وكان العاضد قد تقدّم إليه بقتله فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور،

وقـال لهم: قد علمتـم رغبتي في هـذه البلاد، ومحبتـي لها وحرصي عليهـا لاسيما وقد تحققـت أن عند الفرنج منهـا ما عندي، وعلمـت أنهم كشفوا عورتها، وعلموا مسالـك رقعتها، وتيقن أني متى خرجت منهـا عادوا إليها واحتووا عليهـا وهي معظم دار الاسـلام وحلوبـة بيت ما لهم، وقـد قوي عندي أن أثـب عليها قبـل وثوبهم وأملكها قبـل مملكتهم، وأتخلـص من شاور الـذي يلعب بنا وبهم ويغرّنـا ويغرّهم، ويضرب بيننا وبينهـم، وقد ضيع أمـوال هذه البلاد في غير وجهها، وقـوّى بها الفرنج علينا، ومـا كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم، إلى هذه البلاد التي قد قل رجالها، وهلكت أبطالها، فتجلت الآراء بين الأمـراء أنه لايتم لهم أمر إلاّ بعـد القبض على شـاور، وتفـرقـوا على ايقـاع القبـض بـه، وكـان شـاور يـركـب في الأبهة العظيمة، والجلالة الجسيمـة، والعدّة الحسنة، والآلة الجميلـة على عادتهم الأولى، وكان من جملة قواعدهم أن الـوزير إذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق، وكان شـاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصـدونه، ورأى أسد الدين قبل قبـض شاور بليلة كأن شاوراً دخل إليـه إلى داره، وناوله سيفه وعمامته، فتـأوّله أسـد الدين بـالقبض عليه، وأخـذ منصبه، ثـم إن شاور ركب يوماً في أبهتـه وجلالته فلما عاينه الأمراء هابـوه وأحجموا عنه، وكان يـوماً عظيـم الضباب وكـان خروج شـاور من بـاب القنطرة للسـلام على أسد الدين، فتقدم صلاح الدين فسلـم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مدّ يـده إلى تلابيبه، وصاح عليـه فرجله، ولما رأى ذلك عسكـر الشام قويت عزمـاتهم ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مـع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شـاوراً راجلا إلى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الـدين، وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع مـن العاضد على يد خادم يأمـره فيه بقتل شاور، فأنفـذ التوقيع إلى صلاح الـدين فقتلـه في الحال وأنفذ رأسـه إلى القصر، وبلغ الكـامل بـن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر.

وخلع العـاضد على أسد الـدين وقلده الـوزارة، وأنفذ إليه طبـق فضة

فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد أخوته، ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين، أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عدّة دفعات استحسانا لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عدّة أشعار، غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزر للعاضد واستبدّ بالأمر في ذلك الصقع أمضه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة، وأخذ في الفكرة في أمره وسهر له ليالي وأفضى بسره إلى مجد الدين بن الداية.

حدّثني جماعة عن شمس الدين علي بن الداية أخي مجد الدين وحدّثني الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي، وقد جرى ذكر فتح مصر وأن نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به، لقد كان ودّه أن لايفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه، ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه، ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له لاسيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لايقدر أحد أن يراه، واهتم لذلك حتى قضى عليه الهم، ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً وعليه فضله محسوباً لما صبر على ما جرى ولا أغضى الملك العادل على القذى، ولقد كاتب العاضد عدّة دفعات في أمر الأسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بانفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال، فمن بعض مكاتباته: « ولقد افتقر العبد إلى بعثته وأعوز عسكره يمن نقيبته، واشتدّ حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين

الضـلال بشهـابـه الثـاقـب، ويصمـي مقـل الشرك بسهمـه النـافـذ الصائب».

قلت : لعل نـور الدين رحمه الله إنما أقلقه مـن ذلك كون أسد الـدين وزر للعاضد، فخـاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهـم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب، هذا إن صح ما نقله ابن أبي طيّ والله أعلم.

قال: وكـان أسد الديـن لما ولي الوزارة لم يغير على أحد شيئـاً، وأجرى أصحاب مصر على قـواعدهـم وأمورهـم إلى أن انقضت أيـامه ، وفنيـت أعوامه، وكان قـرماً يحب أكل اللحم ويواظب عليـه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التخـم، واتصلت بـه مرضاتـه إلى أن ظهرت بحلقـه خوانيـق، كان فيها تلافه، ويقال إنه أكـل في ذلك اليوم مضيرة، ودخل الحمام فلما خرج منها أصابـه الخناق، قال: وكان شجاعاً بـارعاً قوياً جلداً في ذاتـه شديداً على الكفار، وطـأته عظيمـة، في ذات الله صولتـه عفيفاً دينـاً كثير الخير، وكـان يحب أهل الـدين والعلـم، كثير الإيثار حـدباً على أهلـه وأقاربـه، وكان فيه امساك، وخلف مـالا كثيراً، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً ، وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملـوك وهم الأسدية، وهو كان مشيـد قواعد الـدولة الشاذيـة والمملكة النـاصرية، وكان ابتـداء أمره يخدم مع صاحـب تكريت على إقطاع مبلغـه تسعمائة دينار، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية، وعقد له العزاء، بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليـه تنسب المدرسـة الأسديـة بالشرف القبلي ظـاهر دمشـق، وهـي المطلـة على الميـدان الأخضر، وهي مـوقفـة على الطـائفتين الحنفيـة والشافعية والخانقاة الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابن أبي طـيّ: وساعة وفاتـه وقع الاختلاف فيمن يـولى الوزارة بين العسكر الشـامي، ومالـت الأسدية إلى صلاح الـدين، وفي تلك السـاعة

أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر، وكان الحارمي أوّلا قد رغب في الوزارة وتحدّث فيها وحصل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين فأشار به، لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته، وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد، بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف، فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخلع الوزارة قد سبقت إلى الملك الناصر، وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي بطرز ذهب، وثوب دبيقي بطرازي ذهب، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان دبيقي بطرازي دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق تخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشدّة بيضاء، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدّة بقج، وعدّة من الخيل، وأشياء أخر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وقرىء المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية، وكان يوما عظيماً، وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعهم بالهبات والصلات، ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة

بددها، وجرى في مناهج العدل على جددها، وحيعل إلى جوده وفضله، ونادى إلى رفده وبذله، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان، واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل وروى بسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل ، وتاب من الخمر، وعدل عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المبين، وشمر عن ساق الجدّ والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وجود جوده شآبيب فضله النائب عن العهاد، وورد عليه القصاد والزوار، وأمر بنفائس الخطب وجواهر الأشعار.

حدّثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عند أقام معه في قصره اليوم والعشرة لايعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة وما ل إليه العاضد وحكمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام.

وحدّثني أبي رحمه الله قال: حدّثني جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري، وكتب في ذلك عدّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر، وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب.

قلت: هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصم الله ومن أنصف عذر، ومن عرف صبر، والذي انكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده، بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن أبي طيّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل مشاعرهم، وقوّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقا في مواضع، لهذا هو في الكتاب الذي له كبير الحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به، والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك الناصر مصر إنتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله وأعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم للملك الناصر، ويقال أنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في انفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب ، ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فإنه لايبقي عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب، حدّثني أبي عن ابن قاضي الدهليز، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوما بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحم عليه ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدّها علي، فلم يقدر، ولقد كان يعتمد في

مخاطباتي ومـراسلاتي على الأشيـاء التي لايصبر على مثلهـا لعلي اتضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

قلت: قـد وقفت على كتاب بخـط نور الـدين رحمه الله يشكر فيـه من صلاح الدين رحمه الله، وذلك ضدّ ما قالـه ابن أبي طيّ، كتب نور الدين ذلـك الكتـاب إلى الشيـخ شرف الـديـن بـن أبي عصرون رحمه الله وهـو بحلب ليـوليه قضـاء مصر صورته: « حسبـي الله وكفى، وفـق الله الشيخ الإمام شرف الديـن لطاعته، وختم له بخير، غير خاف على الشيـخ ما أنا عليه وفيه، وكـل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، ومـا يقربني إلى الله، والله وليّ التوفيـق ، والمطلع على نيتي، وأنـت تعلم نيتي كما قـال عز من قـائل: (ومن عنده علـم الكتاب)(١٠٩) أنت تعلـم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي مـن الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعـدما كانت دار كفـر ونفاق فلله المنة والحمـد ألا إن المقدّم على كل شيء أمور الـدين التي هي الأصل وبها النجـاة، وأنت تعلم أن مصر واقليمها ما هي قليلـة، وهي خالية من أمور الشرع وما تـدخر الدموع إلاّ للشـدائد، وأنا مـا كنـت أسخى ولا أشتهـي مفـارقتك، والآن فقـد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظـر إلى مصالحها، وما لنا أحـد اليوم لها إلا أنت ، ولا أقدر أولي أمورها ولا أقلدها إلاّ لـك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقـك الله أن تشمر عن ساق الاجتهـاد، وتتولى قضاءهـا، وتعمل ما تعلـم أنه يقـربك إلى الله ، وقـد برئت ذمتـي وأنت تجاوب الله ، فـإذا كنت أنـت هناك وولـدك أبو المعالي وفقـه الله فيطيب قلبـي، وتبرأ ذمتي، وقـد كتبـت هذا بخطـي حتـى لايبقـى عليّ حجـة، تصل أنـت وولـدك عندي، حتـى أسيركم إلى مصر والسـلام، بموافقـة صاحبـي واتفاق منـه صلاح الـدين، وفقـه الله ، فأنا منـه شاكـر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه ففي بقاء الصالحين والاخيار صـلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الاخيار وأعـوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً».

قال ابن أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والعاملين لعدّة سنين متقدّمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين، وأنهي إليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوّض عنه بعدّة ضياع، فأغاث أهل الحجاز بها أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه، ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين وذلك باشارة نور الدين رحمه الله وفي أيامه .

فصل

ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق منها:

بملك مصر أهني مالك الأمم
فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئماً
وهل بعدلك شيء غير ملتئم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف
ومولي العرف عن خلق بلا سأم
ورام قاتل ثغر الكفر تعجمه
لا لثم ثغر شتيت واضح شبم

لله درك نور الدين من ملك
بالعزم مفتتح بالنصر مختتم
أثار عزمك في الإسلام واضحة
وسرّه لك باد غير مكتتم
بها من العدل والاحسان تنشره
تخاف ربك خوف المذنب الأثم
أوردت مصر خيول النصر عادمة
ثني الأعنة اقداما على اللجم
فأقبلت في سحاب من ذوابلها
وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب في قلب العدوّ بها
تمكن النار بالاحراق في الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب
واه وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعور الطرق في طلب
العليا مقتحمات أصعب القحم
وعاجلات من الافرنج غلهم
والقيد في موضع الأطواق والخدم
لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت
من العدوّ بحد الصارم الخذم
أعانها الله في إطفاء جمر أذى
من شر شاور في الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها
للأمن والعز والإقبال كالحرم
والسنة اتسقت والبدعة أنمحقت
وعاودت دولة الاحسان والكرم
ملوكها الك صاروا أعبداً وغداً
بها عبيدك أملاكا كذوي حرم

أنبــت عنــك بها قــرمــا ينــوب بها
في البــأس عــن عنتر في الجود عــن هــرم
لله درّك نــور الــديــن مــن ملــك
عــدل لحفــظ أمــور الــديــن ملتــزم
كــانــت ولايــة مصر قبــل عــزتها
بكشــف دولتهــا الحما على وضــم
فــالنيــل ملتطــم جــار على خجــل
جــار البحــر نــوال منــك ملتطــم
أغــز الفــرنــج فهــذا وقــت غــزوهــم
واحطــم جموعهــم بــالــذابــل الحطــم
وطهــر القــدس مــن رجــس الصليــب وثــب
على البغــاث وثــوب الاجــدل القطــم
فملــك مصر وملــك الشــام قــد نظما
في عقــد عــز مــن الاســلام منتظــم
محمــودا الملــك الغــازي يســوسها
بــالفضــل والعــدل والافضــال والنعــم
بــالشكــر كــل لســان نــاطــق أبــداً
محمــودا الملــك محمــود بكــل فــم
فــاشــك مصر واظهــر عــز سنتهــا
كــم تعتفــي وإلى كــم تشتكــي وكــم

ولعلم الدين الشاتاني في نور الدين رحمه الله
مــا نــال شــاؤك في المعــالي سنجــر
كــلا ولا كسرى ولا اسكنــدر
يــا خير مــن ركــب الجيــاد وخــاض في
لجج المنــايــا والاسنــة تقطــر
هــل حــاز غيرك ملــك مصر وصــار مــن
اتبــاعــه مــن جــده المستنصر

والمستضيء بالله معتمد به
ويجده وبجده مستظهر
أوسد بالشام الثغور محاميا
للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكي فيروي الأرض بحر دموعه
والجو من أنفاسه يتسعر
أو ما أبوك بسيفه فتح الرها
والأسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كماتها
فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ما ضره طيّ المنية ذاته
وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزية
لوقائع مشهورة لا تنكر
وإذا عددنا للأنام مناقبا
فعليك قبل الكل يثنى الخنصر
في الرأي قيس في السماحة حاتم
في النطق قس في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها
وسواك في آماله يتعثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت من
أسد الثرى منه تخاف وتحذر

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعاً لجماعة من الأعيان وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:

يا صلاح الدين الذي أصلح الفا
سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشا
م نوالا أم سال نيل ثاني

وعلى نيلهـا الكفيـك فضـل
فهما بـالنضـار جـاريتـان
وصلـت أعطيـاؤك الغـر غـزرا
فتلقـت آمـال النـاب التهـاني
خلـع راقـت العيـون وراعـت
وعـلا وصفهـا عـن الامكـان
مـذهبـات كـأنها خلـع الرضـ
ـوان قـد أهـديـت لاهـل الجنـان
مشرقـات بطـرزهـا الـذهبيـا
ت الحسـان الـرفيعـة الأثمان
فـالعما مـات كـالغما مـات والطـر
ز بـروق كثيرة اللمعـان
والموالي بها مـن التيـه والفخـ
ـر على الـدهـر سـاحبـو الأردان
كيـف خـص العماد بـالأدون المخـ
ـلق مـن عصبـة الـديـوان
أخليـق مـن نسجـه لـك في المد
ح جـديـد بـأمهـن الخلقـان
وكـذا عـادة الليـالي تخص الـ
ـفاضل المستحـق بـالحرمـان
لم تـزل سـائرات جـودك بـالشـ
ـام لـديـه غـزيـرة التهتـان
فـإذا لم تـزده مصر كمالا
في المنـى فـاحمه مـن النقصـان

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبـدك شمـس الـدولـة المرتجا
منتظـر تشريفـك المذهبـا

فـاعتـب صـلاح الـديـن لي حـالتـي
عسـاه بـالاصـلاح أن يعتبـا
غـرّقـه مـاتـم فـإني أرى
مـن فضلـه للفضـل أن يغضبـا
وكيـف يـرضـى ذاك بعـض الـرضـى
وبجده يـأبـاه كـل الابـا
وقـل لـه جـاءتـه ملبـوسـة
تخلفـت مـن تبـع في سبـا
عمامـة رقـت ورثـت فما
نشرتها إلاّ وطـارت هبـا

قال : فوصل من صلاح الدين عمامة مذهبة وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها ، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين كتاباً يقول فيه: استعير لسانه في الاعتذار إلى العماد فإني استقل لمرامه إرم ذات العماد، فكتب العماد:

أمـا العماد فقـد تضـاعـف شكـره
نعماك شكـر الـروض نعمـى الصيـب
لعمامـة ذهبيـة كغمامـة
يبـدو بها بـرق الطـراز المغـربي
مـا كـان أحسـن حـالـه لـو أنـه
شفعـت عمامتـه بثـوب مـذهـب

قال وكتب إليه:

أهنـي الملـك النـا
صر بـالملـك وبـالنصر
ومـامهـد مـن بنيـا
ن ديـن الحق في مصر

وما أسداه من بر
بلا عد ولا حصر
وما أحياه من عدل
وما خفف من إصر
وأعلاء سنا ألسنـ
ـة في بحبوحة القصر
قد استولى على مصر
بحق يوسف العصر
وأحيا سنة الاحسا
ن في البدو وفي الحضر

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة أوّلها يقول:
ديار الهوى حيا معالمك القطر
وجادك جود الناصر الغدق الهمر
به رجعت في عنفوان شبابها
ونضرتها من بعد ما هرمت مصر
وكم خاطب ردّته لم يك كفؤها
إلى أن أتاها خاطب سيفه المهر
حماها حمى الليث العرين وصانها
كما صان عينا من مسلم القذى شفر
وكان بها بحر أجاج فأصبحت
ومن جوده العذب النمير بها بحر

وله فيه من أخرى:
فما أنت إلا الشمس لولاك لم تزل
على مصر ظلماء الضلالة سرمدا
وكان بها طغيان فرعون لم يزل
كما كان لما أن طغى وتمرّدا
فبصرتهم بعد الغواية والعمى
وأرشدتهم تحت الضلال إلى الهدى

وله فيه من أخرى

قــل للملــوك تــزحــزحــوا عــن ذروة الـــــ
ــــــعلياء للملـــك الهمام النـــاصر
يعطـــي الألـــوف ويلتقيهـــا بـــاسما
طلـــق المحيـــا في القنـــا المتشـــاجـــر

وقرأت في ديوان العرقلة : وقال في المولى الملك الناصر، وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:

صــلاح الــديــن قــد أصلحــت دنيــا
شقـــي لم يبـــت إلاّ حـــريصـــا
أتـــى منـــك الســـلام لنـــا عمـــومـــا
وجـــودك جـــاءني وحـــدي خصـــوصـــا
فكنـــت كيـــوســـف الصـــديـــق لما
تلقـــى منـــه يعقـــوب القميصـــا (١٢٠)

وكان العرقلة من جملة المتردّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق ، فلما صار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليـــك صـــلاح الـــديـــن مـــولاي أشتكـــي
زمـــانـــا على الحر الكـــريـــم يجوز
تـــرى أبصر الألـــف التـــي كنـــت واعـــدي
بها في يـــــدي قبـــــل الممات تصير
وهيهـــات والأفـــرنـــج بينـــي وبينكـــم
سيـــــاج قتيـــــل دونـــــه وأسير
ومـــن عجـــب الأيـــام أنـــك ذو غنـــى
بمصر ومثلي بـــــالشـــــأم فقير (١١١)

وقال أيضا:

قل للصلاح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم
وما تفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عسجديات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغي أبو الطاري
حمراً كأسيافكم غبراً كخيلكم
عتقاً ثقالاً كأعدائي وأطماري (١١٢)

يعني بالطاغي شاوراً وله ابن اسمه الطاّري، وأنفذ له من مصر عشرين دينار فقال:

يا مالكاً ما برحت كفه
تجود بالمال على كفي
أفلح بالعشرين من لم يزل في
رأس عشرين من الكهف
يا ألف مولاي ولكنها
محسوبة من جملة الألف (١١٣)

وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر، فأعطاه ذلك وأخذ له من أخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور محبور، وكان ذلك ختام حياته، ودنا أجل وفاته، فمات بدمشق في سنة ست أوسبع وستين وخمسمائة .

قلت: وفي ديوانه ما يدل على قدومه مصر، فإن فيه: وقال وكتبها على حمام عمرها المولى الملك الناصر بديار مصر المحروسة:

يا داخل الحمام هنيتها
دائرة كالفلك الدائر
تأمل الجنة قد زخرفت
وعمرت للملك الناصر

- ٧٩٩١ -

كـــأنها فيـــض أنـــابيبهــــا
نـــداه للـــوارد والصـــادر

-٧٩٩٢-

فصل

في قتل المؤتمن بالخرقانية ووقعه السودان بين القصرين وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص اقطاع المصريين، فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائهم فتكون عليهم الدائرة ، فكاتبوا الفرنج واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء فرأى مع إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فأنكرهما، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه ويقابلوه نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، ثم اعترف بما جناه وشيده من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة وأنه بريء من هذه الآفه، فحسن لدى السلطان إسلامه، وثبت اعتصامه، وعرف استسلامه ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي وخشي أن يسبقه على شق العصا العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب، وعنه مغض لا يأمر فيه ببسط ولا قبض إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن ما نسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لخرقه ورقع ما يتسع عليه من خرقه، وهو بقرب قليوب فخلا فيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ

رأسه ونزع من جـاء به لباسه، وذلك يوم الأربعـاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع، فورد موارده من رداه على أدون مشرع.

قال: ولما قتل غار السودان وثاروا، وكانـوا أكثر من خمسيين ألفاً وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحـوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه، فحسبوا أن كل بيضاء شحمـه وأن كل سواد فحمه، فثار أصحاب صـلاح الدين إلى الهيجـا ومقدّمهـم الأمير أبـو الهيجـا، واتصلت الحرب بين القصريـن وأحـاطـت بهم العسكـرية مـن الجانبين، ودام الشر يـومين حتـى حس الأساحم بالجبـن، وكلما لجؤوا إلى محلة أحرقوها عليهم وحـووا ما حواليهم واخرجوا إلى الجيـزة وأذلوا بالنفي عـن منازلهم العزيزة، وذلـك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلـص السودان بعدها من الشدّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيـلا، وأينما وقفوا أخـذوا وقتلـوا تقتيـلا، وكانـت لهم على باب زويلة محلـة تسمى المنصورة، وكانـت بهم المعمرة المعمورة، فأخلى بنيـانها من القواعد، فـأصبحت خاويـه، ثم حرثها بعـض الأمراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قـد وصل إلى صلاح الديـن قبيل هذه النوبـة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الـدولة تورانشاه بن أيوب ، أنفذه إليه نـور الدين من دمشـق يشد أزره بمصر لما سمـع بحـركة الفـرنـج وأهـل القصر، فوصـل القاهـرة في ثالـث ذي القعدة. قـال: وباشر بنفسـه وقعة السـودان هذه، وكان له فيها أثر عظيم، ومن عجيب ما اتفق أن العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين ، فقيل إنـه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشاميـة بالنشاب والحجارة ففعلوا، وقيل إن ذلـك كان عن غير اختيار، فـأمر شمـس الدولـة الزراقين باحـراق منظرة العـاضد فهـم أحد الزراقين بذلك وإذا بـاب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيـم الخلافة وقال: أمير المؤمنين يسلـم على شمس الـدولة ويقـول: دونكـم العبيد الكـلاب

أخرجوهم من بلادكم، وكانت العبيد مشتدّة الأنفس بأن العاضد راض بفعالهم، فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا.

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها

بالملك الناصر استنارت … في عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فروض … شكراً لما جاذ من نوافل
يوسف مصر الذي إليه … تشدّ آمالنا الرواحل
أجريت نيلين في ثراها … نيل نجيع ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى … أحكمت البيض في المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقا … عليهم كفة لحائل
وكل راء منهم كراء … وأرض مصر كلام واصل
وقد خلت منهم المغاني … وأقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا إلا بطل … فكيف لو أمطروا بوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا … فهي نواز بهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتى … غالته من شدة غوائل
عاملكم بالخنا فأضحى … ورأسه فوق رأس عامل
يا مخجل البحر بالأيادي … قد آن أن تفتح السواحل

فقــدّس القــدس مــن خبــاث
أرجـــاس كفـــر غتـــم أراذل

قال العماد: ومما مدح به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئة له بالملك، وتعزية بعمه:

أيـا يوسـف الاحسـان والحسـن خير مـن
حـوى الفضـل والافضـال والنهـى والأمـرا
ومـن للهـدى وجـه النجـاح بـرأيـه
تجلى وثغـر النصر مـن عـزمتـه افترا
حمى حـوزة الـديـن الحنيـف بحـوزه
مـن الخالـق الحسنـى ومـن خلقـه الشكـرا
أبـوه أبـى إلاّ العـلا وعمـه
بمعـروفـه عـم الـورى البـدو والحضرا
وطـال الملـوك شيركـوه بطـولـه
ومـا شـاركـوه في العـلا فحـوى الفخـرا
بنـو الأصفـر الافـرنـج لاقـوا ببيضـه
وسمـر عـواليـه منـايـاهـم حمرا
ومـا أبيـض يـوم النصر واخضر روضـه
مـن الخصـب حتـى أسـودّ بالنقـع واغبرا
رأى النصر في تقـوى الالـه وكـل مـن
تقـوى بتقـوى الله لا يعـدم النصرا
ولما رأى الـدنيـا بعين مـلالـة
أغـذ مـن الأولى مسيراً إلى الأخـرى
وقـام صـلاح الـديـن بـالملـك كـافـلا
وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبـت مصر إلى عصر يـوسـف
أعـاد إليهـا الله يـوسـف والعصرا
فـأجـرى بها مـن راحتيـه بجـوده
بحـارا فسماهـا الـورى انمـلا عشرا

هـــزمتـــم جنـــودا لمشركين بـــرعبكـــم
فلـــم يلبثـــوا خـــوفـــا ولم يمكثـــوا ذعـــرا
وفـــرقتـــم مـــن حـــول مصر جموعهـــم
بكسر وعـــاد الكسر مـــن أهلهـــا جبرا
وآمنتـــم فيهـــا الـــرعـــايـــا بعـــدلكـــم
وأطفـــأتـــم مـــن شرشـــا ورهـــا الجمـــرا
بسفـــك دم حطتـــم دمـــاء كثيرة
وحـــزتـــم بها أيـــديتـــم الحمـــد والشكـــرا
ومـــا يـــرتـــوي الاســـلام حتـــى تغـــادروا
لكـــم مـــن دمـــاء الغـــادريـــن بها غـــدرا
فصبـــوا على الأفـــرنـــج ســـوط عـــذابها
بـــأن يقسمـــوا مـــا بينهـــا القتـــل والأسرا
ولا تهملـــوا البيـــت المقـــدّس واعـــزمـــوا
على فتحـــه غـــازيـــن وافترعـــوا البكـــرا
تـــديمـــون بـــا لمعـــروف طيـــب ذكـــركـــم
ومـــا الملـــك إلا أن تـــديمـــوا الكـــم ذكـــرا
وإن الـــذي أثـــرى مـــن المال مقتر
وان تفنـــه في كســـب محمـــدة أثـــرى

قال : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه فمنها كتاب ضمنه هذا البيت:

مـــا كنـــت بـــا لمنظـــور أقنـــع منكـــم
ولقـــد رضيـــت اليـــوم بـــا لمسمـــوع

فقلت في جوابه أبياتا منها هذه:

يـــا هـــل لســـالـــف عيشتـــي بفنـــائكـــم
مـــن عـــودة محمـــودة ورجـــوع
مـــذ غبتـــم عـــن نـــاظـــري مـــا أذنـــت
للقلـــب شمـــس مسرة بطلـــوع

كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت أطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت:
وانثر در الدمع من قبل أبيضا
وقد حال مذ بنتم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتا منها:
هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا
يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي أبشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ما شئتا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابنى شاور: الكامل ، وأخاه يعني الطاري، يوم الإثنين الرابع من جمادى الآخرة، وذلك أنه لما قتل شاور عاذوا في القصر فكأنما نزلوا في القبر فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سلموا وامتنعوا وعصموا، فإنه ساءه قتل شاور وإن كان أمن بقتله ما حاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان طي تقدّم ذكر قتل ضرغام له، والآخر الطاري.

قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الروحي في تاريخه:أخذ ابنا شاور شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم ، وأخوه الملقب بفارس المسلمين ، فقتلوا ودير برؤوسهم.

قال: لما ولي صلاح الدين ساس الرعية، وأظهر لهم من العدل مالم يعلموه، فاجتمع أهل البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجا عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم، وشتت شملهم (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)(١١٥) .

قال: ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها، جليلها وحقيرها، وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابن شداد: وفي المحرم من هذه السنة مات ياروق الذي تنسب إليه الياروقية، يعني المحلة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترق جامع حلب وأسواق البر، وأخذ نو الدين في عمارته آخر السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية.

قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدّونهم ويعرفونهم ما تجدّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدّوهم بالمال والرجال والسلاح، واعتمدوا على النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديارمصر، فلما نزلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدّهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه، والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى مالم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع، فلما رأى الأفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادها ونهبها واخرابها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل: « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين» ، فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها، وكان مدّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، وأخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

قال القاضي ابن شدّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أن صلاح الدين يملك بلادهم، ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، فاجتمع الفرنج والروم جميعا وحدّثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه ، فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ، وآلات الحصار وغير ذلك، ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتدّ أمرهم، فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها، وكان مملوكا لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بعلبك وتدمر، ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط، قصد شغاف قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج الساحل، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة، وهو بعشترا، فسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدّة قصد العدوّ دمياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات، وازعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات ، وكان وزيراً متحكماً لايرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتد

زحفهم إليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله عليه يشن الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونصر الله المسلمين يؤيدهم، وحسن قصده في نصرة دين الله يسعدهم وينجدهم حتى بان لهم الخسران، وظهر على الكفر الإيمان، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويسلمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق عظيم، وسلم البلد بحمد الله ومنه.

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، يسهر ليله ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سرّه وجهاره، ولاينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المقعد المقيم، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان إلى دمياط فدخلها وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها، واتصل الحصار، وتواصل الأنصار، ودب في الفرنج الفنا، وهب عليهم البلا، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول بالذل الأكمل ، والصغار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم، وأستعصب الملم، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلا مقدّمه الأمير قطب الدين خسرو الهذباني، وكان مقداما مقدّماً وهماما معلما، وأمره أن يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجاج الأكدر، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج باسبوع، فوقع روعه من الكفر في كل روع.

قلت: وبلغني من شدّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لاستحيي من الله تعالى أن يراني

متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج، وبلغني أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله ربما لا يصدّقني ، فإذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له: بعلامة ما سجدت على تل حارم، وقلت يارب انصر دينك، ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال:فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظه الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألح علي في ذلك، فقلتها، فبكى رحمه الله وصدّق الرؤيا ، فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

أرسل نور الدين كتابا إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم ، والاقتصار على صلاح الدين والزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك، ويعلمه أنه ما أرسلهم، واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لايرهبون إلا منهم ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية وتحصلوا منها على الأمنية، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نعمه التي لاتحصى، قلت ولعمارة اليمنى من قصيدة:

من شاكر والله أعظم شاكر
ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلوب

حلــوا إلى دميــاط عنــد حصــارهــا
عــز القــوي وذلــة المغلــوب
وجلــوا عــن الاسـلام فيهــا كــربــة
لــو لم يجلــوهــا أتــت بكــروب
فــالنــاس في أعمال مصر كلهــا
عتقــاؤهــم مــن نــازح وقــريــب
إن لم تظــن النــاس قشرا فــارغــاً
وهــم اللبــاب فــأنــت غير لبيــب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة يقول:

ولا غــر وأن عــاد الفــرنــج هــزيمــة
ولــو لم تعــد لم يبــق للشرك ســاحــل
فقــد أيقنــت أعــداؤه أن حظهــم
لــديــه رمــاح اشرعــت أو ســلاســل
ولما أتــوا دميــاط كــالبحــر طــاميــا
وليــس لــه مــن كثــرة القــوم ســاحــل
يــزيــد عــن الاحصــاء والعــد جمعهــم
ألــوف ألــوف خيلهــم والــرواجــل
رأوا دونهم أســدا بــأيــديهم القنــا
وبيضــا رقــاقــا أحكمتهــا الصيــاقــل
ودار وابها في البحــر مــن كــل جــانــب
ومــن دونها اســد مــن الموت حــائل
رجــا الكلــب ملــك الــروم إذ ذاك فتحهــا
فخــاف فــأم الملــك والــروم هــابــل
فعــادوا على الأعقــاب منهــا هــزيمــة
كــأنهم ذلا نعــام جــوافــل
ومــا أملــوا أن يلحقــوا ببــلادهــم
لتعصمهــم ممــا رأوه المعــاقــل

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتا في صلاح الدين تهنئة بالنصر في دمياط، فعملت قصيدة منها:

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا
بجدّه صاعدا أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء في شرف
ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التي اجتمعت
لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرفة
وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها
فللمصالح من أيامه نمط

قال العماد: ومما سيرته إلى صلاح الدين قصيدة منها:

كأن قلبي وحب مالكها
مصر وفيها المليك يوسفها
هذا بسلب الفؤاد يظلمني
وهو بقتل الاعداء ينصفها
الملك الناصر الذي أبدا
بعز سلطانه يشرّفها
قام بأحوالها يدبرها
حسنا وأثقالها يخففها
بعدله والصلاح يعمرها
وبالندى والجميل يكنفها
من دنس الغادرين يرحضها
ومن خبات العدى ينظفها
وإن مصرا بملك يوسفها
جنة خلد يروق زخرفها

- ٨٠٠٥ -

وإنه في السماح حاتمها
وإنه في الموقار أحنفها

يوسف مصر الذي ملاحمها
جاءت بأوصافه تعرفها

كتب التواريخ لا يزينها
إلا بأيامه مصنفها

وحطت دمياط إذ أحاط بها
من برجوم البلاء يقذفها

لاقت غواة الفرنج خيبتها
فزاد من حسرة تأسفها

أوردت قلب القلوب أرشية
من القنا للدّماء تنزفها

وليتها سفكها فعاملها
عاملها والسنان مشرفها

يمضي لملك الله في قتالهم
عزيمة للجهاد ترهفها

وله فيه من أخرى:

قد استقرت أموري
فيه بحسب اقتراحي

كما استقر صلاح الـ
ـدنيا بملك الصلاح

تنير شمس أياديـ
ـه في سماء السماح

وأمره مستفاد
من القضاء المتاح

وأرسله نور الدين إلى خلاط ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن قال: فلما كنت بهاردين كتبت إلى بعض المعارف :

قـــــدنـــــزلنـــــافي جـــــوارك
وطلبنـــــــا قـــــــرب دارك
وسرينـــــافي الـــــديـــــاجـــــي
فهـــــدانـــــاضـــــوءنـــــارك
فتـــــدارك أمـــــرنـــــا اليـــــو
م بطـــــــول متـــــــدارك
وتفـــــردبـــــاغتنـــــام الـــــ
ـــــشكر مـــــن غير مشـــــارك

قال العماد : وفي هـذه السنة خـرج نور الدين إلى داريـا فـأعاد عمارة جامعها، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

-٨٠٠٧-

فصل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين تقدّم بعضها يقول فيها:

صحت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم يعن بطبيب
عجبا المعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب
ردّ الاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب
جاء ته أخوته ووالده إلى
مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم بدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد: لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وسبده ولبده، وخيم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جدده وسار في حفظ الله فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ما وجب وركب لاستقباله، وزاد اقبال البلاد باقباله، ولما عزم على الرحيل إلى مصر شرع في تفريق أملاكه وتوفير ماله في شركة على اشراكه، وما استصحب شيئاً من موجوده، وجعله نهبة لجوده.

قلت: ووقف رباطا داخل الدرب الذي بقرب العوينة بباب البريد.

ثم قـال العماد: ولما نصب نجـم الدين أيـوب لقصد مصر مضـاربه، وسحب للعلى على روض الرضى سحائبـه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكـره وخيامـه، وأرهف للجـد في الجهاد حـد اعتـزامه، ثـم أقام بعـد توديعه والـوفاء بحق تشييعه إلى أن اجتمعت إليه عسـاكره، وحضر بادي جنـده وحاضره، وعـب بحـره وماج زاخـره، ثم تـوجهنـا إلى بلاد الكـرك مستهل شعبـان، ونزلنا أياما بالبلقاء على عمان، وأقمنا على الكـرك أربعة أيام نحاصرهـا، ونصبنا عليها منجنيقين فورد الخبر أن الفرنـج قد تجمعوا ووصلـوا إلى ماعين فقال نـور الـديـن: نـرى أن نعطف أعنتنـا وبـالله نستعين، فإنـا إذا كسرناهم وقسرنـاهم، وقتلنـاهم وأسرناهـم أدركنا المراد، وملكنا البلاد، فرحلنا إليهـم فولوا مدبرين حين سمعوا برجـوعنا ، وقالوا: رحيلهـم عن الحصـن قـد حصـل وهو مقصـودنـا وعـاد نور الـديـن إلى حوران، فخيم بعشترا وصام رمضان.

وقال ابـن الاثير: كان سبب حصر نـور الديـن الكرك أن نجم الـدين أيوب والد صلاح الـدين سار عن دمشق إلى مصر، فسير نور الـدين معه عسكراً فـاجتمع معهم من التجـار ومن كان لـه مع صلاح الديـن أنس ومودّة ما لا يعدّ، فخاف نور الديـن عليهم فسار إلى الكرك ، فنزل عليه وحصره، وسار نجـم الديـن ومن معـه سالمين ، ونصـب نور الـدين على الكرك المجـانيق فـأتاه الخبر أن الفـرنج قـد جمعوا وسـاروا إليه، وأن ابـن الهنفرى وفليـب بن الرقيـق وهما فارسا الفـرنج في وقتهما في المقدّمـة إليه، فـرحل نـور الديـن، رحمه الله تعـالى نحوهما للقـائهما ومن معهما قبـل أن يلحق بهما بـاقي الفرنج وكـانا في مائتـي فارس وألف تركبلي ومعهـم من الراجل خلق كثير فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين وسط بلادهـم ، ونهب ما كان على طريقه، ونزل بعشترا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شدّاد : أنفذ صلاح الـدين في طلب والده ليكمل له السرور

القصة مشاكلة ماجرى للنبي يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقال:يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كفؤ له فلاينبغي.أن تغير موقع السعادة ، فحكمه في الخرائن بأسرها، وكان رحمه الله كريما يطلق ولا يرد، ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي،أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير اقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمله رسالة منها:« وهذا أمر يجب المبادرة إليه ليحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أهم أمنيته» وسار نجم الدين وأصحبه نور الدين هدية سنية للملك الناصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا، وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار، وسار شمس الدولة إلى قوص وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل اقطاعها شمس الدولة قد سير رسلان بن دغمش لجباية خراجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هميم، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة، وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين علي وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى وتصدّق بما بهر به العقول،

- ۸۰۱۰ -

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم قد تقدّم بعضها:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه
وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاؤوا كيعقوب والأسباط إذ وردوا
على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزغ ولا زلل
وملكوا أرض مصر في شبا ختته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

فصل

في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الاثير: وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدّها وأعظمها كان بالشام فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والاحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها وخلوّها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص، ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماه ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها

شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً، ثم أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لايقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وعمر جميع البلاد وجوامعها وأخرج من الأموال مالا يقدّر قدره.

وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين والحصن الأكراد وصافيتا والعريمة وعرقا في بحر الزلازل غرقى لاسيما حصن الأكراد فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليه فيه دحور وثبور، فشغلهم سوءهم عن سواه وكل اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها الابهادهم الكفار من أمرها، وعراهم من ضرّها، فلقد خصتهم بالأمض الأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأضحوا للردى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون(فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون)(١١٦)

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها:

هـــل لعـــا في الهوى مـــن الأسر فـــادي
ولســـاري ليـــل الصبـــابـــة هـــادي
جنبـــونـــي خطـــب البعـــاد فسهـــل
كـــل خطـــب ســـوى النـــوى والبعـــاد
كـــت في غفلـــة مـــن البين حتـــى
صـــاح يـــوم الاثيـــل بـــالبين حـــادى
قـــد حللتـــم مـــن مهجتـــي في الســـويـــدا
ومـــن مقلتـــي محل الســـواد
وبخلتـــم مـــن الـــوصـــال بـــاسعـــا
في أمـــاكنتـــم مـــن الأجـــواد
وبعثتـــم نسيمكـــم يتـــلافـــا
ني فعـــاد النسيـــم مـــن عـــوّادي
سمتمـــوني تجلـــدا واشتيـــاقـــا
ومحال تجمـــع الاضـــداد
ابقـــاء بعـــد الاحبـــة يـــا قلـــ
ـــبي مـــا هـــذه شروط الـــوداد
ذاب قلبـــي وســـال في الـــدمـــع لما
دام مـــن نـــار وجـــده في اتقـــاد
مـــا الـــدمـــوع التـــي تحدرهـــا الاشـــ
ـــواق إلا فتـــائت الأكبـــاد
حبـــذا ســـاكنـــو فـــؤادي وعهـــدي
بهم يسكنـــون سفـــح الـــوادي
أتمنـــى بـــالشـــام أهلي ببغـــدا
د وأيـــن الشـــآم مـــن بغـــداد
مـــا اعتيـــاضي مـــن حبهـــم يعلـــم الله
تعـــالى إلا بحـــب الجهـــاد
واشتغـــالي بخـــدمـــة الملـــك العـــا
دل محمـــود الكـــريـــم الجواد

أنـــــامنـــــــه على سريـــــــــر سروري
راتـــــع العيـــش في مـــــراد مــــرادي
قيــدتنــي بــالشــام منــه الايــادي
والأيــــادي للحـــــر كــــا الأقيـــاد
قــــــــد وردت البحر الخضم وخلفـ
ـــت ملـــوك الـــدنيـــا بـــه كـــالثماد
هـــو نعـــم الملاذ مـــن نـــائب الدهــــــ
ــــــــر ونعـــم المعـــاذ عنـــد المعـــاد
جـل زرء الفــرنــج فـاستبــدلــوا منـــــ
ـــــــــــــه بلبس الحديد لبس الحداد
فـرّق الــرعــب منــه في أنفــس الكفـــــ
ــــــــــــــــار بين الأرواح والأجساد
سطـــوة زلـــزلـــت بسكــــانها الأر
ض وهـــــدت قـــواعـــد الأطـــواد
أخــــذتهم بـــالحق رجعـــة بـــأس
تــركتهـــم صرعـــى صروف الغـــوادي
خفضــت مـــن قـــلاعهـــا كـــل عـــال
وأعـــادت تـــلاعهـــا كـــالـــوهـــاد
أنفـــذ الله حكمــــه فهــــو مــــاض
مظهـــــر سر غيبــــه فهـــــو بــــادي
آيـــة أثـــــرت ذوي الشرك با لملـــــــ
ـــــك وأهـــل التـــوحيـــد بـــالارشـــاد
والاعـــادي جـــرى عليهـــم مـــن التـــد
مير مـــا قـــد جـــرى على قـــوم عـــاد
أشركــــت في الهلاك بين الفريقيـــــــ
ـــــــــن دعــــاة الاشراك والالحاد
ولقـــد حـــاربـــوا القضـــاء فـــأمضـــى
حكمـــــه فيهـــــم بغير جـــــلاد

والالـــه الـــرؤوف في الشـــام عنـــا
دافـــع لطفـــه بـــلاء البـــلاد

قال العماد ومنها معنى متبكر أبتدعته في الزلزلة وهو:
وبحق أصبيت الأرض لما
اشتكـــت مـــن مقـــام أهـــل الفســـاد
علمـــت أنها جننـــت فعـــراهـــا
حـــذراً مـــن سطـــاك شبـــه ارتعـــاد

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النورية، كنت مقرظا للفضائل الشهرزوريه، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ابن قـــاضي قضاة الشام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، وكان كمال الدين قد علق به تنفيذ الأحكام وإليه أمور الديوان ، وهو ذو المكانة والامكان في بسط العدل والاحسان ومحيي الدين ولده ينوب عنه في القضاء بحلب وبلدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، وبحماه وحمص من بني الشهرزوري قاضيان وهما حاكمان متحكمان، وكان هذا محيي الدين من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب وشعر، وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النظامية منذ سنة خمس وثلاثين، والمدرس شيخنا معين الدين سعيد ابن الرزاز وكان مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه بعلمه معلما مذهب الطراز، وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وخلبت أفكاره، فكتبت إليه قصيدة مطلعها:
لـــو كـــان مـــن شكـــوى الصبـــابـــة مشكيـــا
لعـــدا على عـــدوى الصبـــابـــة معـــديـــا
مـــات الـــرجـــاء فـــإن أردت حيـــاتـــه
ونشـــوره فـــارج الإمـــام المحييـــا

أقضى القضاة محمد بن محمد
من لست منه للفضائل محصيا
قاض به قضت المظالم نحبها
وغدا على آثارهن معفيا
يا كاشفاً للحق في أيامه
غرراً يدوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها
لو لم تجدك لطود حملك مرسيا
رجفت لسطوتك التي أرسلتها
نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا
وتظلمت من شرهم فتململت
عجل إجازتها عليها مبقيا
أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت
أثقالها ورأتك منها ملجيا
حلب لها حلب المدامع مسيل
إن لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها
من بعد غيم الغم جوا مصحيا
أضحى لبهجتها معيداً بعدما
ذهبت وللمعروف فيها مبديا
لأمورها متدبراً لشتاتها
متألفاً لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظهرا
والحق عاد بظله مستذريا
والدهر لاذ بعفوه مستغفرا
مما جناه مطرقاً مستحييا

- ٨٠١٦ -

فصل

في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل

قال ابـن الأثير: كان شهاب الـدين محمد بـن الياس بن ايلغـازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكـره وهم مائتا فارس إلى الخدمة النورية، وهـو بعشترا، فلما وصل إلى اللبوة، وهي مـن أعمال بعلبك ركب متصيداً فصـادف ثلاثمائة فـارس من الفـرنج قـد ساروا للغـارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فـوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا وصبر الفريقـان لاسيما المسلمون لأن ألف فـارس منهم لاتصبر لحملـة ثلاثمائة فـارس مـن الفـرنـج، وكثـر القتلى بينهـم وانهزم الفـرنـج وعمهـم القتـل والأسرفــلم يفلت منهـم إلاّ من لايعتـد به (ولو تـواعد تـم لاختلفتم في الميعاد ولكـن ليقضى الله أمـراً كان مفعولاً)(١١٧) وسـار شهاب الـدين بـالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الـديـن فركـب هـو وعسكره إلى لقـائه، واستعـرض الأسرى ورؤوس القتلى فــرأى فيهـا رأس مقـدم الاسبتــاريـة صاحب حصـن الأكراد وكانت الفرنـج تعظمه لشجاعته ولدينـه عندهم ولأنـه شجـى في حلـوق المسلمين، وكـذلـك أيضـا رأى رأس غيره مـن مشهوري الفرنج فإزداد سرورا ولله الحمد.

قـال: وفيها في شـوال تـوفي الملـك قطب الـديـن مـودود بن زنكـي، صاحـب الموصل، وكان لما اشتـد مرضه أوصى بـالملك بعده لـولده عماد الـدين زنكـي بن مـودود، وهو أكبر أولاده وأعـزهم عليـه وأحبهم إليـه، وكان النائب عن قطـب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخـر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الـدين زنكي لأنه كان قد أكثـر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخـدمه وتزوج ابنته، وكان عزيزه وحبيبه، وكان نور الدين يبغض عبد المسيـح لظلم كان فيه ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليتـه لأموره، فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد

الديـن في أموره عـن أمر عمـه فيعزلـه ويبعده فـاتفق هـو والخاتون ابنـة حسام الدين تمرتـاش زوجة قطب الدين، فردّوه عـن هذا الرأي، فلما كان الغد أحضر الأمـراء واستحلفهم لـولده سيـف الديـن غازي، وتـوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة، وكـان تام القامة كبير الوجه أسمـر اللون واسع الجبهـة جهوري الصـوت، وكانـت ولايتـه إحدى وعشريـن سنة وخمسـة أشهـر ونصف، ولما تـوفي استقر سيـف الـدين غـازي في الملك ، ورحـل عماد الديـن إلى عمه نور الـدين شاكيـا ومستنصرا وكان عبد المسيـح هو يتولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكتـه ، وليس لسيف الدين من الأمر إلاّ اسمه لأنه في عنفوان شبابه وعزة حداثته.

قال: وهـذه حادثة تحث على العدل، كـان من جملة أعمال جزيـرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابـل الجزيرة من الجانب الشرقي يفصل بينهما دجلة لها بسـاتين كثيرة بعضها تمسح أرضه ويـؤخذ على كل جريـب من الأرض التـي قد زرعـت شيء معلوم، وبعضهـا عليه خـراج ولا مساحـة عليه، وبعضهـا مطلق منها، فـالممسوح منها لايحصـل لأصحابـه منه إلا القدر القـريب، وكان لنـابها عدّة بساتين فحكـى لي والدي قال: جـاءنا كتاب فخر الديـن عبد المسيح إلى الجزيرة، وأنا حينئذ أتـولى ديوانها يأمر بأن تجعل بسـاتين العقيمة كلها ممسوحة، فشق ذلـك علي لأجل أصحابها ففيهـا نـاس صالحون ولي بهم أنـس وهـم فقـراء، فـراجعته وقلـت لـه : لاتظـن أني أقول هـذا لأجل ملكـي لا والله، وإنما أريـد أن يدوم النـاس على الدعاء للمـولى قطب الدين، وأنـا أمسح ملكي جميعه، قـال : فأعاد الجواب بـأمر المسـاحة، ويقـول : تمسح أولا ملكـك ليقتدي بـك غيرك، ونحن نطلق لـك ما يكون عليه، فشرع النواب يمسحون، وكـان بالعقيمة رجلان صـالحان بيني وبينهما مـودّة اسم أحدهما يـوسف والآخـر عبادة، فحضرا عنـدي وتضررا مــن هـذه الحال وسـألاني المكـاتبـة في المعنـى، فأظهرت لهما كتـاب عبد المسيح جوابـاً عن كتابي فشكراني وقـالا: وأيضا

تعـود تراجعـه، فعاودت القـول فأصرّ على المسـاحة فعـرّفتهما الحال، فلما مضى عـدّة أيام عـدت يوما إلى داري وإذا هما قـد صادفـاني على الباب فقلت لنفسي:عجباً لهذين الشيخين قد رأيـا مراجعتي وهما يطلبـان مني مـالا أقدر عليـه، فقلـت لهما: والله إني لاستحيي منكما كلما جئتما في هـذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيـف هو فقالا: صدقـت ولم نحضر إلاّ لنعرفك أن حاجتنـا قضيت، فظننـت أنهما قد أرسـلا إلى الموصل مـن يشفع لهما، فـدخلت إلى داري وأدخلتهما معـي وسألتهما عـن الحال كيـف هو ومـن الذي سعى لهما، فقالا:إن رجـلاً من الصالحين الأبدال شكونا إليـه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العقيمة كلهـم، قال: فوقع عندي من هذا، ولكـن تـارة أصدّقهما لما أعلـم مـن صـلاح أحـوالهما، وتارة أعجـب مـن سلامة صـدورهما كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانـه واقعاً لاشك فيه، فلما كان بعد أيـام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمـر فيه باطلاق مساحة العقيمة، واطـلاق كل مسجون وبالصدقة، فسألـت القاصد عن السبب فـأخبرنا أن قطب الـدين شديـد المرض قال: فأفكـرت في قولهما، وتعجبت منه ثم توفي بعد يومين من هذا.

قال: ورأيـت والدي إذا رأى أحـد الرجلين يبـالغ في إكـرامه ويحترمـه ويقضي أشغاله واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطـب الدين من أحسـن الملوك وأعفهم عن أمـوال رعيته، محسنا إليهم، كثير الانعام عليهم، محبـوباً إلى صغيرهم وكبيرهم حليما عن المذنبين سريع الانفعال للخير، حـدّثني والدي قال: استدعاني يـوما وهو بالجزيـرة وكنت أتولى أعمالها فـلامني في بعـض الأمر فقلت: أخـاف من الاستقصاء لـو دعي على بعض هـؤلاء الملوك وأومأت إلى أولاده لكـانت شعرة منه تسـاوي الدنيا وما فيهـا، ولنا مواضع تحتمـل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعـاف هذا، فقال : جزاك الله خيراً لقـد نصحت وأدّيت

الأمانـة فاشرع في عمارة هذه الأماكـن، ففعلت وكبرت منزلتـي عنده، ولم يزل يثني عليّ.

قـال: وكان كثير الصبر والاحتمال مـن أصحابـه، لقد صبر مـن نوابـه زيـن الـدين، وجمال الـديـن وغيرهما على مـالم يصبر عليه سواه.، وكـان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة والانجاد لـه بنفسه وعسكـره وأمـواله، حضر معـه المصـاف بحـارم وفتحها وفتـح بانياس، وكان يخطـب له في بلاده باختياره من غير خـوف، وكان إحسانه إلى أصحـابه متتـابعـاً من غير طلـب منهم ولا تعـريـض، وكان يبغـض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله.

قال: وبـالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زنكـي سيف الديـن ونور الـدين وقطـب الديـن، وما جمع الله فيهـم من مكـارم الأخلاق ومحاسـن الأفعـال وحسن السيرة وعمارة البـلاد والرفـق بـالرعيـة إلى غير ذلك مـن الأسباب التي يحتاج الملك إليها أذكر قول الشاعر:

مـــن تلـــق منهـــم تقـــل لاقيـــت سيـــدهـــم
مثــــل النجـــــوم التـــــي يسري بها الســــاري

قلت: وقرأت بخط الشيخ عمـر الملاء رحمه الله في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين، وسأله فيـه الدعاء لقطب الدين صاحـب الموصل وقال فيه: «يـا أخي لـو ذهبـت أشرح لك سيرتـه في بـلاده وعيـش رعيته في ولايتـه أطلـت وأضجـرت، غير أني أذكـر لـك مـا خصـه الله بـه مـن الأخـلاق الصالحة، هـو من أكثر النـاس رحمة، وأشدّهـم حياء وأعظمهم تـواضعاً وأقلهـم طمعاً، وأزهـدهـم في الظلم وأكثـرهـم صبراً، وأبعـدهم غضبـاً، وأسرعهـم رضا، وهـو من هـذه الأخلاق على حـدّ أحبه أنـا محبة لاأقـدر أصفها، وبينى وبينه إخاء ومزاورة يزورني وأزوره».

- ٨٠٢٠ -

فصل

قال ابن الاثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين، وملك ولده سيف الدين بعده واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور، وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك، وكبر لديه وشق عليه، وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة، وكان نور الدين رحمه الله لينا رفيقا عادلاً فقال: أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم.

-٨٠٢١-

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصد الرقة فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ثم سلمها على شيء اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها وسار إلى الخابور فملكة جميعه ثم ملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدة، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من الموصل، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ، وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم وأقام حتى ملك سنجار، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة ، وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك صاحب بلاد الجبل وأذربيجان وأران وغيرها يستنجده، فأرسل ايلدكز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته وكان بسنجار فسار إلى الموصل، وقال للرسول : قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلاتدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد

الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك وقال: لاسبيل إلى ابقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي إنما جئت لاخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل إليه فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى، وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة، ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشام فقيل له:إنك تحب الموصل والمقام بها، وتراك أسرعت العود؟ فقال: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لاأكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد، ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه اقطاعا كثيراً.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة، وقال لي: قد آنست بك وأمنت إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض لايبلغ فيه غيرك الغرض فتمضي إلى الديوان العزيز جريدة وتؤدّي عني

رسالة سديدة سعيدة، وتنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي ومغنى طريفي.وتالديّ وأنا كبيره ووارثه والذي له حديثه وحادثة، فامض وخذ لي أذنا فإني أعدّ كل جارحة لما أخاطب به أذنا، وأمثل ما يصلني من المثال لدفع كل مكروه ركنا.

وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال مأموني الصحبة، وسرت منها على البرية غربي الفرات بخفير من بني خفاجه، فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سنجار فأخذها وسلمها إلى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي .

قال: ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد، واستوضح فيها الجدد، ودل هناك في دجلة على مخاضه، وكان ذا أخلاق وهمم مرتاضه، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ماظنّ مستصعباً، وسهل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تركماني قدامنا، وهو يقطع دجلة تارة طولاًوتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيط واحد لانميل يميناً ولايساراً ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عبرنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي برحالنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم، ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها، وخيمنا على تل توبه فاستعظم أهلها تلك النوبة، وما خطر ببالهم أنا نعبر بغير مراكب، وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون مقهورون محسورون، وانقطعت عنهم السبل من الشرق، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق ، وبسط العطاء وكشف الغطاء وتكلم في الصلحة والمصالحة الوسطاء، ومدّ الجسر وقضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه ومثلوا بناديه، وأقرّ سيف الدين غازيا على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء، ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً وجدّد مناشير أهل المناصب

-٨٠٢٤-

وتوقيعات ذوي المراتـب من القضاء والنقابة وغيرهما، وأمر بـاسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقـرأ على الناس فمنه:« قد قنعنا مـن كنز الأمـوال بـاليسير من الحلال، فسحقـا للسحـت، ومحقا للحـرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد مـن رضى الرب، ويقصي من محل القرب، وقد استخـرنا الله وتقـربنا إليه، وتـوكلنا في جميع الأحـوال عليه، وتقـدّمنا باسقاط كـل مكس وضريبه في كل ولايـة لنا بعيدة أو قريبـة، وإزالة كل جهـة مشتبهة مشـوبـه، ومحو كـل سنة سيئـة شنيعـة، ونفـي كل مظلمـة مظلمة فظيعة، وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، واطلاق كـل ما جـرت العادة بـأخذه مـن الأموال المحظـوره، خوفـاً من عواقبها الـرديئة المحذورة، فلا يبقـى في جميع ولا يتنا جور جـائر جارياً ، ولا عمـل لايكـون بـه الله راضيـاً، ايثـاراً للثـواب الأجـل على الحطـام العاجل، وهذا حـق لله قضيناه، وواجب علينا أدّيناه، بل هـي سنة حسنة سنناها، ومحجـة واضحة بيناها، وقاعـدة محكمة مهدناهـا، وفائدة مغتنمة أفدناها ».

فصل

قال العماد: وكان بالموصل رجل صالـح يعرف بعمر الملاء، سمي بذلك لأنه كان يملأ تنـانير الجص بأجرة يتقوت بها، وكل ما عليـه من قميص ورداء وكسوة وكساء قـد ملكه سواه واستعاره، فلا يملـك ثوبه ولا إزاره، وكان لـه شيء فوهبـه لأحد مـريديـه، وهو يتجـر لنفسه فيـه، فإذا جـاءه ضيـف قراه ذلـك المريـد، وكان ذا معـرفـة بأحكـام القـرآن والأحاديـث النبـويـة، وكـان العلماء والفقهـاء والملـوك والأمـراء يـزورونـه في زاويتـه، ويتبركون بهمتـه، ويتيمنون ببركتـه، وله كل سنـة دعوة يحتفـل بها في أيام مـولـد رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يحضره فيهـا صـاحـب الموصـل،

ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المحفل، وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره، وكانت بالموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلاّ من ذهب عمره ولم يتم على مراده، فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ورفع بنيانها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات ، ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، ورتب فيه خطيباً ومدرّساً، وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي من أصحاب الإمام محمد بن يحيى، فسأله أن يكون مدرّساً في ذلك الجامع، وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب إربل إلى الخدمة النورية بالموصل، وكان دخولهم إياها في بحبوحة الشتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدة منها:

مـــا يمنـــع الخادم مـــن قصـــده الـــــ
ـــــــخدمة غير الطرق والوحل

كـــأنها مـــوصلكـــم مقطـــع
مـــا يهتـــدى فيـــه إلى وصـــل

وكـــل معـــروف بها منكـــر
كما تـــراه ضيـــق السبـــل

وكـــل مـــن حـــل بها لا يـــرى
في زمـــن الخصـــب ســـوى المحـــل

ومـــذ دخلنـــاهـــا حصلنـــا بها
كـــرهـــا على خـــرج بـــلا دخـــل

أصعـــب مـــا تلقـــاه مـــن أهلهـــا
قـــول بـــلا أهـــل ولا سهـــل

وكنـــت أهـــواهـــا ولكننـــي
لقيـــت منهـــا كـــل مـــا يسلي

وأنـــت مـــن أصبـــح احســـانـــه
حليـــة هـــذا الزمـــن العطـــل

قال: وعاد نور الـدين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارهـا، ثم أتى حرّان وقـد اقتطعهـا عن صـاحـب الموصـل هي ونصيبين والخابـور والمجـدل، ووصل حلب في خامس رجب.

قال ابن شدّاد: دخل حلب في شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته.

قـال العماد: وفـوّض القضـاء والحكـم بنصيبين وسنجـار والخابـور إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما صارت الموصـل إلى سيف الدين بن أخي نـور الديـن، كان قـد استولى عليـه وتـولى أمر البلـد رجل يقـال له عبـد المسيح ، كان نصرانياً فـأسلم، وقيل إنه كان باقيـاً على نصرانيته وله بيعة في داره وتتبع أربـاب العلم والـدين فشتتهـم وأبعدهـم، وآذى المسلمين، فبلغ نو الدين ذلك، وكتب له قصص في ذلك ، فسار ونزل على الموصل من جانـب الشط، والشط بينه وبينهـا وقال: لاأقاتل هـذه البلدة وأهتك حرمتها وهـي لولدي، وراسل سيف الـدين وقال له: أنـا ليس مقصودي البلد وإنما مقصـودي حفظ البلد لك، فـإنه قد كتب إليّ في عبـد المسيح كـذا كذا ألـف قصة بما يفعـل مـع المسلمين، وأنا مقصـودي أزيل هـذا النصراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبـد المسيح يديـر البلد ويدور فيـه والأمر إليه، وبـذل الصلح لنور الـدين، فقـال نور الـدين أنا قـد جئت ولا بـدّ لي من دخـول البلد فقال: نعم لاتدخل إلا من باب السرّ فقال نور الدين : ما أدخل إلا من باب السرّ، فجـرت بين نور الدين وبين ابـن أخيه مراسـلات إلى أن علم

أن نيتـه صالحة فصـالحه في السر وركـب عبـد المسيح وخـرج يـدور بين السورين فجاءه بعض أصحابه وقـال له: أنت نائم ودمك قد راح وأنت غافـل، فقال: مـا الخبر؟ فقال: سيـف الديـن قد صـالح عمـه وأنت في مقابلة نور الدين فجاء ودخل على سيـف الدين وألقى شربوشه بين يديه وقال له: أنت قـد صالحت عمك وقد عملت ما عملـت في حفظ بلدك ومالي طـاقة بمقابلة نـور الدين، فـالله الله في دمـي فقال له: مالي طـاقة بدفعه عنك ولكـن عليك بالشيخ عمر الملاء، فقال: والله لـو مضيت إليه لم يفتح لي لعلمـه بما جرى مني في حق المسلمين، ولكـن تسير أنت إليـه فأنفـذ لسيف الديـن إليه واستحضره، وكـان معتكفاً فقال لـه: ما الخبر؟ فقـال سيف الـدين لعبـد المسيـح: منك إليـه ، فـوقف بين يـديه يبكـي فالتفـت إليه الشيـخ عمر وقـال: من يعـادي الرجـال يبكي مثـل النساء فقال له: قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمي، فقال : أنت آمن على دمك فقال:على مالي، فقال : وعلى مالك، فقال: وعلى أهلي؟ فقال: وعلى أهلك، وكـان شرف الدين بـن أبي عصرون مع نـور الدين حينئـذ، فقال سيف الدين لعمر الملاء: تخرج تحلف نـور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الـدين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخـذهما عمر وخرج إلى نور الدين فقـام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكـرمه، فقال له عمـر: الناس يعلمـون حسن عقيـدتك فيّ، وقـد خرجـت في كذا وكـذا، وناوله النسخة التـي تتعلق بسيف الدين فقرأهـا وناولها لابن أبي عصرون فقال: نسخـة جيدة، فقـال له الشيـخ عمر الملاء: أي شيء تقـول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة، فقال إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى، فقال للحاضريـن: اشهدوا على الشيخ بذلك يشير إلى أن نور الديـن كان يجري منه أيمان في وقائع، وكـان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيـد عليه القول، فأجـاب نور الدين إلى ذلـك، فقال له: قد علم النـاس حسن عقيدتك فيّ وأن قـولي مسموع عندك وقد خـرجت إليك ولابد لي من ضيـافة، فقال : كيف لي بذلك وأنت لاتـأكل طعامي

ولا تقبل مني شيئاً؟ فقال تحلف لي بهذه النسخة فوقف عليها وتغير وجهه، وقال: أنا ماجئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه، فقال الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين، فقال: قد أمنته على نفسه، فقال: وعلى أهله، فقال: ومن أهله؟ فقال: نصارى، فقال: أمنتهم، فقال وعلى ماله، فقال: ومن أين لهذا الكلب مال هذا مملوك لنا، فقال: قد أعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل، قال: قد أمنته على ماله، فحلف له على ذلك جميعاً واستقرّ الصلح، وخرج سيف الدين إلى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين، وكان وصله خلعة أمير المؤمنين، فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها وانتقل إلى جانب الشط الآخر ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جداً، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مدّة، ورتب أمورها وولى فيها كمشتكين، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له: جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الدين، فاستيقظ من منامه، وسار سحرة ذلك اليوم، ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه رحمه الله .

فصل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي بالله ونور الدين مخيم بشرقي الموصل بتل توبه، وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وكان مولد المستنجد بالله مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام ، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس ، وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والباء، وفيه يقول بعض الأدباء:

أصبحت لبني العباس كلهم
إن عددت بحساب الجمل الخلفا

وكان أسمر تام القامة، وطويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، كان عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيراً ، ولم يترك بالعراق مكسا، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الاثير: بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ، ويكتب فيهم السعايات، فأطال حبسه، فحضر بعض أصحابه يشفع فيه وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس.

وفي أيامه توفي شيخ الشيوخ اسماعيل بن أبي سعد، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمان وأربعين توفي محمد بن نصر القيسراني، وأحمد بن منير الشاعران، وقد تقدّم ذلك. وفي سنة تسع وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشاعر الأندلسي، وفي سنة إحدى وخمسين توفي الوأواء الشاعر الحلبي، وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النجيب الصوفي الفقيه الواعظ.

قال العماد: وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضيء، واتفق ذلك يوم عبور دجلة، وركب يوم النزول على تل توبة في الأهبة السوداء واليد البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحدباء، ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام، ومما نظمه العماد فيه:

- ٨٣٠ -

قـــد أضـــاء الـــزمـــان بـــا لمستضيء
وارث البرد وابــــن عـــم النبـــيّ

جـــاء بـــالحق والشريعـــة والعـــد
ل فيـــا مـــرحبـــا بهذا المجـــيّ

فهنيئـــا لأهـــل بغـــداد فـــازوا
بعـــد بـــؤس بكـــل عيـــش هنـــيّ

ومضيّ إن كـــان في الـــزمـــن المظـــ
ـــلم فـــالعـــود في الـــزمـــان المضيّ

وله من قصيدة أخرى:

لهفـــي على زمـــن الشبـــاب فـــإنني
بســـوى التـــأســـف عنـــه لم أتعـــوض

نقضـــت عهـــود الغـــانيـــات وإنها
لـــو لا نقـــاء شيبتـــي لم تنقـــض

يـــا حســـن أيـــام الصبـــا وكـــأنها
أيـــام مـــولانـــا الإمـــام المستضي

ذو البهجـــة الـــزهـــراء يشرق نـــورهـــا
والطلعـــة الغـــراء والـــوجـــه الـــوضي

قســـم السعـــادة والشقـــاوة ربنـــا
في الخلـــق بين محبـــه والمبغـــض

ومنها:

فضـــل الخلائف والخلائق بـــالتقـــى
والفضـــل والافضـــال والخلـــق الـــرضـــي

فـــأنعـــم أمير المؤمنين بـــدولـــة
مـــا تنتهـــي وسعـــادة مـــا تنقضي

قـــال: ووصـــل نـــور الـــديـــن رحمه الله تعـــالى إلى دمشـــق، وأدّى فـــرض الصيام، وخـــرج بعد العيد إلى الخيـــام، وأخرج سرادقـــه إلى جسر الخشب،

وسرنا إلى عشترا، ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الأرتقي باللبوة، وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين فثم ذكرها ابن الاثير.

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرم دار العزل، مدرسة للمالكية، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، ثم خرج إلى الغزاة وأغار على الرملة وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحب أن يجتمع بها شمله فخرج في النصف من ربيع الأول وكانت بإيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر فعمر لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الأوّل من ربيع الآخر واستحلها واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد والعدد ، وحصنها بأهل الجلاد والجلد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة ، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الأولى إليها، وسار إلى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أوّل دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعمّ أهلها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها، وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وهو ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية، واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار

شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كبر، وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدّة حياته يكرم عهده ويكفله، وقال في الخريدة: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره وجامع مفاخره وكان إليه الانشاء، وله قوّة على الترسل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره وأضرّ ولزم بيته إلى أن تعوّض منه القبر، ومن شعره:

يا أخا الغرّة حسب الدهر من عظة المغرور ما أصبح يبدي
تؤثر الدنيا فهل نلت بها لحظة تخلص من هم وكد (١١٨)

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في أوّل كتابه المسمى بالوشي المرقوم في حل المنظوم قال: حدّثني عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضاً طرياً، وكان لايخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً، وكانَ من العادة أنّ كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشذا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع، قال: فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه، وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي وسهل ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت ليس عندي شيء سوى أني

أحفظ القرآن العزيز، وكتاب الحماسة، فقال: وفي هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فترددت إليه، وتدرّبت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن احل شعر الحماسة فحللته من أوّله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرّة ثانية فحللته.

وقال ابن أبي طي: في هذه السنة شرع السلطان ـــ يعنى صلاح الدين ـــ في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدّم أكثره وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه ، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الآذان حي على خير العمل، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

قلت: وقد وقفت على كتاب فاضلي وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قوص وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السابق أوّل الكتاب : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)(١١٩)

وفيه: « توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأوّل ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمه، والهمم على السهل والصعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المعلمه قد أيدتها جنود السماء المسومة، وصابحنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقاً لايزال بشهاب القذف ضارباً، فلما تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران. ورملنا الرجال بالدم. وأرملنا النسوان ، وزحفنا إلى أبراجه وهي

أبراج قد استعدت للبـلاء جلباباً، فجعلنا لكل واحد جـورة مفردة وبابا، وسرحنا إليهـم رسل المنـايا من النشـاب، وقصدنـا أحد الأبـراج والبيوت تـؤتى في الحرب مـن غير الأبواب. وتقـدّمت إليـه نقـابة الجلبيـة فباتـت ليلتهـا تساوره وتـراجعـه بألسنـة المعاول وتشـاوره، وأسفـر الصبح وقـد أمكـن تعليقه، وتيسر تحريقـه، فأودعنـا تلـك العقود آلات الـوقود ، فلـم يكن إلاّ مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعاً سريعـاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً، وانتظمـت الرجال على أحجـاره، وتواثبـت إلى أمثاله مـن الأبراج وأنظاره، فحصلت في القبضـة وعجز من كان فيها عـن النهضة، واحتكم فيهـا العـذاب بـالسيـف والنـار، وضـاق عليهـم مجال النفـس والقـرار واستقبلنـا يـوم الخميس نقـب القلعـة وتقـديم المنجنيـق وتيسير السبيـل للقتـال وتخليـص الطريـق هـذا والكسـوب والنهـوب قد امتـارت منهـا العساكر وخـرجت فيها مكنونـات الذخائر، وأشبه اليـوم يوم تبلى السرائر، وطهر الأرض منهـم بالـدم المائر ، فلما كان بكـرة الجمعة وردتنـا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزة في فـارسه وراجله ورامحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره، فـركبنا مستبشرين بزحفـة، موقنين بحتفه. ولقيناه فـأحطنا من بين يـديه ومـن خلفه. وناوشتـه الخيل الطراد ، وأحـدقت بـه احداق الأغلال بـالأجياد وانتظرت حملتـه التي كانت لها قبـل ذلك اليوم مـوقع، وصـدمته التـي لها من رجـال الحرب موضـع، فملأ الله قلبـه رعباً، وثنـى صـدقه كـذباً، ولم يـزل يخاتل، ولا يقـاتل، ويـواصل المسير ولا يطـاول، والقتل في أعقابه، وأيـدي السيوف وسواعد الرماح لاتنـي في عقابه حتى تحصل في الـدير هـو وخيله ورجلـه، ولم يبق لـه من ملـك الشام إلا مـا وطئتـه رجلـه. فناصبنـاه الحصـار في ليلـة السبـت مستهل ربيـع الآخـر بـالـركـوب إليـه والوقـوف عليـه ، لعلـه يبرز ويبـارز ويخرج ولا يحاجـز. فخرست غماغمه واستذابت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صـدورنا، فكنا في تـوليته مـرضين الله سبحانه لامغضبين، وفي تـركه وراء ظهـورنـا ومباعـدتـه، مـن الله متقـرّبين. وواجهنـا غزة بعسـاكـرنـا

المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بكراً لم تفترعها الحوادث. وحصانا لم يطمثها أمل طامث. هي معقل الديوية الذين هم جمرة الشرك، وداهية الأفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد، وفتحناها من عدّة جوانب،ووطئناها وإذا هي كأمس الذاهب، فألقت إلينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها، فمن بين مواش تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوّمة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت، وأساري المسلمين فكوا من القيد والقد، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدّة الجهد. فأما الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإن الفضاء الفضي تعصفر من دمائهم وتذهب، وجرى منها مابه اضطرم وقد الجحيم وتلهب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاولة وينتقل، فهل ترى لهم من باقيه. أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاويه. وعراصاً من سكانها خالية. قد بقيت عبرة للعابر وذكرى للذاكر. وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر، ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك خذله الله راجين أن يحمله الثكل على الإقدام، ويخرجه حرّ النار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقتل أصحابه قد جرحه، فبتنا عليه والالسنة بفراره تعيره. واستتاره يقرّعه ويقرره. وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الأخر والكسب قد أثقل المقاتلة ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله. والعدوّ قد غزي في عقره وعقر، وأذل في دار ملكه وأحتقر ووصلنا إلى مستقرّ سلطاننا في يوم الإثنين الحادي عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولانا صلوات الله عليه تشريفه، واستقبال ركابه ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومجابه ما عظمت به النعم، وجلت ، وزالت به وعثاء الطريق وتجلت ، وجادتها سماء انعامة التي لم تزل تجودنا واستهلت.

قلت: ومن قصيدة لعمارة في مدح صلاح الدين أوّلها:

(فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها:

لعل بني أيوب إن علموا بها
تظلمت منه أن يرقوا ويشفقوا

غزوا عقر دار المشركين بغزة
جهاراً وطرف الشرك خزيان مطرق

وزاروا مصلى عسقلان بأرعن
يفيض إناء البرّ منه ويفهق

وكانت على ما شاهد الناس قبلهم
طرائق من شوك القناليس تطرق

وما عصمتهم منك إلا معاقل
تأنوا على تحصينها وتأنقوا

جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى
بوادره سور عليهم وخندق

وأخربت من أعمالهم كل عامر
يمرّ به طيف الخيال فيفرق

أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ
ـخليل فأبشر أنت غاز موفق

وهيجت للبيت المقدّس لوعة
يطول بها منه إليك التشوّق

تنشق من ملقاك أعظم نفحة
تطيب على قلب الهدى حين تنشق

وغزوك هذا سلم نحو فتحه
قريباً وإلاّ رائد ومطرّق

هو البيت إن تفتحه والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

- ٨٠٣٧ -

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتحها صلاح الدين رحمه الله بـاقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر، وتوفي العـاضد يوم عاشـوراء بالقصر، وانقضت تلك الـدولة بانتهاء مادام لها من العصر.

وذكـر العماد أيضا في أخبـار سنة إثنتين وسبعين كما سيـأتى أن الـذي خطب بمصر لبنـي العباس أولاً هـو أبو عبد الله محمـد بن المحسـن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، وذكر ذلك أيضا ابن الدبيثي في تاريخه، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتاب له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

قال ابـن الاثير : كان السبـب في ذلك أن صـلاح الديـن يوسـف بن أيوب لما ثبتت قـدمه في مصر وزال المخالفون له، وضعف أمـر العاضد، وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يـأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامـة الخطبة العباسية، فـاعتذر صـلاح الـدين بـالخوف مـن وثوب أهـل مصر وامتنـاعهم مـن الإجـابة إلى ذلـك لميلهم إلى العلـويين فلم يصـغ نـور الديـن إلى قولـه، وأرسل إليه يلزمـه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه، واتفـق أن العاضد مرض وكان صـلاح الدين قـد عزم على قطع الخطبة لـه فاستشار الأمـراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهـم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خـاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا إمتثـال أمر نور الديـن، وكان قـد دخـل إلى مصر انسان أعجمـي يعـرف بالأمير العالم، وقـد رأيناه بالموصل كثيراً فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا أبتدي بها ، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبـل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله ، فلـم ينكر ذلـك أحد عليه ، فلما كـان الجمعة الثـانية أمـر صلاح

الـدين الخطبـاء بمصر والقـاهرة بقطـع خطبـة العاضـد وإقـامة الخطبـة للمستضيءبأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الـديار المصرية، وكان العـاضد قد اشتـد مرضه فلم يعلمـه آله وأصحـابه بـذلـك، وقالـوا إن سلـم فهو يعلـم وإن تـوفي فلا ينبغـي أن ننغض عليه هذه الأيام التي قد بقيـت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم.

قال: ولما تـوفي جلس صـلاح الديـن للعزاء واستـولى على قصره، وعلى جميع مـا فيه، وكان قد رتـب فيه قبل وفاة العـاضد بهاء الدين قـراقوش، وهو خصي لحفظه وجعله كـاستاذدار العاضد فحفظ ما فيـه حتى تسلمه صـلاح الديـن، ونقـل أهل العـاضد إلى مكـان منفـرد، ووكل بحفظهـم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الأيـوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهـم، وأخرج مـن كـان بالقصر مـن العبيد والامـاء فـاعتق البعـض ووهب البعـض وباع البعض، وأخلى القصر مـن أهله وسكانـه فسبحان من لايزول ملكه ولا يغيره مر الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما أشتد مرض العـاضد أرسل يستدعي صلاح الـدين، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

قلت: أخبرني الأمير أبـو الفتوح بـن العاضد، وقـد اجتمعت بـه سنة ثمان وعشريـن وستمائة وهو محبـوس مقيد بقلعـة الجبل بمصر أن أبـاه في مرضـه استدعى صـلاح الديـن فحضر، قال: وأحضرنا يعنـي أولاده وهـم جماعـة صغار فـأوصـاه بنا فـالتـزم اكرامنـا واحترامنـا رحمه الله، وأما نـدم صلاح الدين فبلغنـي أنه كان على استعجاله بقطع خطبتـه وهو مريض،

وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السلطان للعزاء وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في اجمال أمره والتوديع له إلى قبره، ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه، وكان مذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل صرف من هو زمام القصر وعزل، ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر، وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه، وأقامه، فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلاّ بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، ووهت المعاقد، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد.

قلت: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نقص عددهم وقلص مددهم، ثم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهنّ، وجمع الباقيات فوهبهنّ وفرقهنّ وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه ولخواص مماليكه واوليائه من أخائر الذخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمه، والياقوتة العالية الغالية القيمه، والمصوغات التبريه، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية والصواني

الصينيه، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النضارية، والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدر والياقوت ، والحلي والوشي، والعبير والحبير والوثير والنشير، والعيني واللجيني، والبسط والفرش، وما لا يعد احصاء، ولا يحد استقصاء، فوقع فيها الفناء، وكشف عنها الغطاء، وأسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ولبيس وسحيق وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع فيها مدّة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال: ولما وصل خبر موت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوما بالأمر في ليلة عاشورا، سنة سبع وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بالله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات فذكر قصيدة منها:

توفي العاضد الدعيّ فما
يفتح ذو بدعة بمصر فما

وعصر فرعونها انقضى وغدا
يوسفها في الأمور محتكما

وانطفأت جمرة الغواة وقد
باخ من الشرك كلما اضطرما

وصار شمل الصلاح ملتئما
بها وعقد السداد منتظما

لما غدا معلنا شعار بني الـ
ـعباس حقا والباطل اكتتما

وبات داعي التوحيد منتصرا
ومن دعاة الاشراك منتقما

وظل أهل الضلال في ظلل ... داجية من غيابة وعمى

وارتبك الجاهلون في ظلم ... لما أضاءت منابر العلما

وعاد بالمستضيء ممتهدا ... بناء حق قد كان منهدما

واعتلت الدولة التي اضطهدت ... وانتصر الدين بعد ما اهتضما

واهتز عطف الاسلام من جذل ... وافتر ثغر الإيمان وابتسما

واستبشرت أوجه الهدى فرحا ... فليقرع الكفر سنه ندما

عاد حريم الاعداء منتهك الـ ... ـحمى وفيء الطغاة مقتسما

قصور أهل القصور أخربها ... عامر بيت من الكمال سما

أزعج بعد السكون ساكنها ... ومات ذلا وأنفه رغما

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضا، في بعض السنين: « كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره، ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراماً، فاضحى الدين واحداً بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلاّ صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعه، والمذلة في شيع الضلال شائعه، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا

أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمـة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار، فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومـزقوا كـل ممزق، وأخـذ منهم كـل مخنق، وقطـع دابرهـم، ووعظ آينهـم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابـرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقـا وعدلا، وليس السيف عمن سواهـم من كفار الفرنـج بصائم، ولا الليـل عن سير إليهم بنـائم، ولا خفاء عـن المجلس الصاحبي أن مـن شد عقد خلافه وحـل عقد خلاف ، وقام بـدولة وقعد بأخرى قد عجـز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقـر إلى أن يشكر ما نصح وقلد مافتح ويبلغ ما اقترح ويقـدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نـزح، وتأتيـة التشريفات الشريفـة، وتتواصـل إليه أمـداد التقويـات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعـوته بها أقام من دعوه، وتوصـل غزوته بها وصل من عـزوه، وترفـع دونه الحجـب المعترضة وتـرسل إليـه السحب المروضـه فكل ذلك تعود عـوائده وتبدو فوائده بالدولة التـي كشف وجهه لنصرها وجـرد سيفه لـرفع منـارها والقيـام بأمـرها، وقـد أتى البيـوت من أبـوابها وطلب النجعة مـن سحابها، ووعد آماله الواثقـة بجواب كتابها، وأنهض لايصال ملطفـاته، وتنجييز تشريفاتـه خطيب الخطباء بمصر، وهـو الذي اختـاره لصعود درجـة المنبر وقـام بالأمـر قيام مـن بـر. واستفتح بلبـاس السواد الأعظم الـذي جمع الله عليه السواد الأعظم أملاً أنـه يعود إليه بها يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه».

ولصـاحبنا مجد الـدين محمـد بن الظهير الإربلي مـن قصيدة في مـدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى:

مليـك مـن القـوم الـذيـن رمـاحهـم
دعـائم هـذا الـديـن في كـل مشهـد

هـم نصروا التـوحيـد نصراً مـؤزراً
بـه عـز في الآفـاق كـل مـوحـد

وهم قهروا وأغلب الفرنج ببأسهم
فدانوا لهم بالرغم لاعن ودد
وردوا إلى البيت المقدس نوره
وقد كان في ليل من الشرك أسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا
بها الركب خوف الكافر المتشدد
وقد ركبت فرسانه بحر إيلة
يخوضون في بحر من الكيد مزبد
وهم رجعوا مصراً إلى دعوة الهدى
بعزم ورأي في العظائم محصد
وهم شيدوا ركن الخلافة بالذي
أعادوه من حق طريف ومتلد
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها
وذكر منوط بالرسول محمد
وهم وهبوا عز الممالك واكتفوا
بسمراء العوالي والعلاء المشيد
فسل عن ظباهم يوم حطين كم قضت
بمرّ مراد الله في كل أصيد
وضعف حديث العدل والبأس والندى
إذا كان عن أيامهم غير مسند

وقال ابن أبي طي الحلبي: قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين والحاحه على صلاح الدين في إقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك، ولما ولي ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نو الدين فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك، ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر

بعـد وأمـوره مضطـربـة واعـداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعـة كبيرة متفرقة في بـلاد مصر من السودان وغيرهم وأن هذا الأمـر إن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله، فلما أوقـع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمن،ونكب أمراء المصريين وقطع أخبازهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع اقطـاع العاضد وقبـض جميع ما كـان بيده من البـلاد، واستولى على القصور، ووكل بها وبمـن فيها قراقوش الخادم، وخلت لـه بلاد مصر من معاند ومنـابذ، ثم شرع وأبطل من الأذان «حـي على خير العمل»، وأنكر على من يتسم بمذهبهم والانتساب إليهـم، فلما رأى أموره مواتيه وأعداؤه قليلون،شرع حينئذ في الخطبة لبني العباس، ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجـم الديـن بـالنزول إلى الجامـع في جماعة مـن أصحـابه، وأمـراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمـره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره، وإنما فعل الملك الناصر ذلـك، ووكل الأمر إلى غيره استظهار أو خوفـاً من فادحـة ربما طرأت أو عدو ربما ثـار، فيكون هو معتـذراً من ذلـك، ولما حصل نجـم الديـن بـالجامع أحضر الخطيـب، وقال لـه: إن ذكرت هـذا المقيم بـالقصر ضربت عنقك، فقـال: فلمن أخطـب؟ قال: للمستضيء العباسي، فلما صعد المنبر وخطب ووصـل إلى ذكر العاضد، لم يذكـر أحداً لكنـه دعا للائمـة المهديين، وللسلطـان الملك النـاصر، ونزل فقيل لـه في ذلك فقـال: ما علمـت اسم المستضيء ولا نعـوته، ولا تقـرر معي في ذلك شيء قبـل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعـل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة، قـال: لمن خطـب؟ قيل لـه: لم يخطـب لأحـد مسمى، قـال: في الجمعـة الأخرى يخطبون لـرجل مسمى، واتفق أنـه مات قبل الجمعة الثـانية، قيل إنه أفكـر واستولى عليـه الفكر والهم حتـى مات، وقيـل إنه لما سمـع أنه قطعـت خطبته اهتـم وقام ليـدخل إلى داره فعثـر وسقط، فـأقام متعلـلا

خمسة أيام، ومات، وقيل أنه امتص فص خاتمه، وكان تحته سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر، قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه يرفع اسمه من الخطبة، فحكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت أشار إلى أن العاضد قتل نفسه، وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير، قال: إن من عجيب ما جرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحرّكها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا فقالوا: قد استبدل الناس بامامهم قال: وكان الرجل استقبل القبلة، وهو يدعو الله أن يجعله إماما برّاً تقياً، واستيقظ الرجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أوّل مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده، وقيلت في ذلك الزمان أشعار في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان، وكان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام:

ليهنك يا مولى الانام بشارة
بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الاعادي بهمة
تقاصر عنها السمهريّ المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها
بعوثا من الآراء تحيي وتتلف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
ملكت به أقصى المغارب عنوة
وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحاً تتابعت
إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها
من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة
يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة
أغرّ غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره
وكانت الى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف
وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طي: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبي صلى الله عليه وسلم وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله على سبيل الفأل ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشابهته خلقا وخلقا وعفة
وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابـن المارستاني في السيرة المذكورة ، قال: وكـان هذا المنام سبباً إلى أن كاتـب الـوزيـر ابن هبيرة نـور الـديـن بن زنكـي يحثـه على التعـرّض لمصر والبعـث إليها، واتفـق في أثنـاء ذلـك نـوبة شـاور وزيـر صاحـب القصر، وقدومه هاربـاً منه إلى نور الـدين، فحرّك ذلك مـا كان تخمر في نفسه مما كان كاتبه بـه ابن هبيرة، فاستطلع مـن شاور الأسباب التـي يمكن بها الـدخـول على المصريين فشرحهـا وأوضحها، فسير إليهـا أسد الدين كما سبق ذكره.

قال: ولما قطعـت خطبة العاضـد استطال أهل السنـة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهـم، وصاروا لا يقـدرون على الظهور من دورهم وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابـه وعظمت الأذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفـرح الناس بذلك وكتبت الكتـب به إلى الاقطار، وتحدّث به السمار، ولما وصـل خبر ذلك إلى نور الـدين نـدب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعـالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقـرأ بكل مـدينة يمـرّ بها يقول فيهـا: (أصدرنـا هذه المكـاتبة إلى جميع البـلاد الاسلاميـة عامة بما فتـح الله على أيدينا رتـاجه، وأوضـح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصـار المصرية، والاسكندرية ومصر والقـاهرة وسائر الأطـراف الـدانيـة والقـاصية، والبـاديـة والحاضرة وانتهـت إلى القـريـب والبعيد، وإلى قـوص وأسوان بـأقصى الصعيـد، وهذا شرف لـزماننـا هذا وأهله نفتخر بـه على الأزمنة التي مضت مـن قبله، وما برحـت هممنا إلى مصر مصروفه، وعلى افتتـاحها موقـوفه، وعزائمنا في إقـامة الدعـوة الهادية بها ماضيه، والأقـدار في الأزل بقضاء أرائنا ونجاز مـواعدنا قاضيـه حتى ظفرنـا بها بعد يأس الملـوك منها، وقدرنا عليهـا وقد عجزوا عنهـا، وطالما مرت عليهـا الحقب الخوالي، وآبـت دونها الأيام والليـالي، وبقيت مـائتين وثمانين (١٢٠) سنة ممنوة بدعوة المبطلين. مملـوة بحزب الشياطين. سابغة

ظلالها للضلال مقفرة المحل إلا من المحال. مفتقرة إلى نصرة من الله يملكها. ونظرة ستدركها. رافعة يدها في أشكائها متظلمة إليه ليكفل بإعدائها على أعدائها، حتى أذن الله لغمتها بالإنفراج ولعلتها بالعلاج. وسببت قصد الفرنج لها وتوجههم إليها طمعا في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا في الأرض وأقدرنا على ماكنا نؤمله في إزالة الالحاد والرفض، من اقامة الفرض، وتقدّمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجح باب مالنا من الارادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك. ويورد الأدعياء، ودعاة الإلحاد بها المهالك» وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينة إلاّ دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد فخرج الموكب إلى تلقيه، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل مورووده، ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحبي بكل احسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتي ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الدين لايخرج عن أمر نور الدين ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين، وقد كان كاتبه نور الدين في شوّال سنة ست وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصعبة، وافتراع بكر هذه القضية وفرع الرتبة، وأيقن أن أمره متبوع، وقوله مسموع، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام، فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدّم له بها من الإشاعة، وأمرني بانشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام في مدينة السلام، ثم ذكر نسخة الكتابين،

ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أوّلها:

قــــد خطبنــــا للمستضيء بمصر
نــــائب المصطفــــى إمــــام العصر
وخــــذلنــا لنصرة العضــــد العــــ
ــــاضد والقــــاصر الــــذي بــــالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء، قال العماد في كتاب الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة، ونصرة وزير الخليفة كنصرته، ثم قال:

وأشعنــا بها شعــار بنــي العبــاس
فــاستبشرت وجــــوه النصر
وتــركنــا الــدعــيّ يــدعــو ثبــورا
وهــو بــالــذل تحت حجــر وحصر
وتبــاهــت منــابــر الــديــن بالخطـــ
ــــبة للهــاشمــيّ في أرض مصر
ولــدينــا تضــاعفــت نعــم اللــــ
ــــه وجلــت عــن كــل عــدّ وحصر
فــاغتــدى الــديــن ثــابــت الــركــن في مصـــ
ــــر محوط الحمــى مصــون الثغــر
واستنــارت عــزائم الملــك العــا
دل نــور الــديــن الكــريــم الأغــر
وبنــو الأصفــر القــوامــص منــه
بــوجــوه مــن المخــافــة صفــر
عــرف الحق أهــل مصر وكــانــوا
قبلــه بين منكــر ومقــرّ
قــل لــداعــي الــدعــيّ حسبــك فاللـــ
ــــه أقــرّ الحقــوق خير مقــرّ

هو فتح بكر ودون البرايا
خصنا الله بافتراع البكر
وحصلنا بالحمد والأجر والنصـ
ـر وطيب الثنا وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهراً
للعدى الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من أدعياء حقوقاً
يدعى بينهم لزيد وعمر
والذي يدعي الإمامة بالقاهر
ة انحط في حضيض القهر
خانه الدهر في مناه ولا يطـ
ـمع ذو اللب في وفاء الدهر
ما يقام الإمام إلا بحق
ما تحاز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سراة بني العبـ
ـاس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظافر مستقيم
ظاهر قوّة قوي الظهر
كشموس الضحى كمثل بدور الـ
ـتم كالسحب كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد
وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثري الرجال من ملك الما
ل ولكنها أخو اللب مثري
ولهذا لم ينتفع صاحب القصر
وقد شارف الدثور بدثر
دام نصر الهدى بملك بني العبـ
ـاس حتى يقوم يوم الحشر

قال العماد في ديـوانه، ونقلته من خطـه قال: ووصل الخبر بـأن الخطبة قامت في الاسكندرية يوم الجمعة سـابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعـة ثامـن عشري شهر رمضان لمولانـا الإمام المستضيء بـأمر الله أمير المؤمنين، وإقامـة شعار بنـي العباس بها، فقلـت ونحن نـزول بجسر الخشـب من دمشـق في عاشر شـوال وكتبـت بها إلى بغداد، فـذكر هـذه القصيدة.

وقـال في البرق: ووصل مـن دار الخلافة في جـواب هذه البشـارة عماد الدين بن صنـدل، وهو من أكابر الخدم المقتفوية مـن ذوي الروية والهمة القويـة، وتولي استاذية الـدار العزيزة بعد عـزل كمال الدين عضد الـدين عنها، فـأكرم نـور الديـن بارسال مثلـه، إليه، وعـوّل في هذا الأمـر المهم عليه، وهو أكرم رسول ، وصل فأنجـح الأمل، وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكمـلاً معظماً مجملاً بأهبته السوداء العراقيـة، وحلله الموشيه، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل، وعين يوم يحضر فيه الرسول، ونصوا على من يحضر في مجلس نـور الديـن ، واغفلوا ذكـر العماد، فطلبه نـور الديـن لما حضروا، وقام لقيام الـرسول له لما حضر، وقصد أن يعرفهم منـزلته عنده، وناوله الكتاب ليقـرأه، قال: فتناوله مني الموفق بـن القيسراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريتـه وماماريته وتركته يقرأ وأنا أردّ عليـه وأرشـده في التـلاوة إلى مـالا يهتـدي إليـه حتـى أنهاه وأنـا على افتيـاته عليّ لا أنهاه، فـأعجب نـور الـدين صمتـي وسمتي، وأحمد منـي فضل التأني والتأتي واجتاب الأهبة، ولبس الفـرجية فوقها، وتقلد مع تقلد السيفين طوقهـا، وخرج وركب من داخـل القلعة وهو حال بما عليـه من الخلعـة، واللـواء منشـور، والنضـار منثـور، والمركبـان الشريفـان أحـدهما مركوبه، والآخر بحليته مجنوبه.

قـال: وسألـت عن معنـى تقليـده السيفين فقيل لي هما للشـام ومصر، وللجمع له بين البـلادين، وخرج إلى ظاهر دمشق حتـى انتهى إلى منتهى

الميدان الأخضر، ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر ، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمصدر، لبيقا بالأعظمين السرير والمنبر، وكان وزن الطوق مع اكرته ألف دينار من الذهب الأحمر، وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً رائعاً رائقاً لجماله وكماله لائقاً، لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل وأجمل وأكمل، فسير تشريفه برمته إليه بمصر ليحظى به، وسير أيضاً بخلع من عنده يكرم بها أصحابه، ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وأنس من السعادة الدائمة بقبسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ورايات سود وأهب عباسية للخطباء في الديار المصرية، فسيرت إلى صلاح الدين، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء والحمد لله على ما أنعم وأولى ووهب وأعطى.

قال ابن أبي طيّ: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة، أمر بالقبض على القصور، وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام، وكتب وجواهر، ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبروكسر هو قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج، ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المائع ، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر، فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرقه السلطان على نسائه، وأما طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره لأنه ضرب به فحبق ، وأما الابريق فانفذه السلطان إلى بغداد، واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في

موضع في خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدّة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حراً وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع بالقصر مدّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير، وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير، حيث شغف بحبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصل من الكتب، كذا أخبرني جماعة من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد، واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري، ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء مكان دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتوروا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

قال: وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه، ويحدّثه عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور، وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف : حدّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم؟ قال: نعم طلبني العاضد يوماً وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه، وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثل أقبيتكم وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأخذت ذخائر القصر ففصلها، كما سبق، ثم قال: ومن جملتها الكتب فإني أخذت منها جملة في سنة إثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبدة من العهد القديم مخلده، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدّي، وكانت كالميراث مع أمناء الايتام يتصرّف فيها بشره الانتهاب والالتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام، وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره، وشرع كل من سكن في تخريب معمورة، وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرت سكناه فيه، وخطب لإمامنا المستضيء في قوص وأسوان والصعيد والقاصي والداني والقريب والبعيد، وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر، وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم املكها أمراءه، وخص بها أولياءه، وباع أماكن، ووهب مساكن، وعفى الآثار القديمة، واستأنف السنن الكريمة.

وقال ابن الاثير : لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره، اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه القضيب الزمرد، طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فصل

ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس، ومات العاضد، انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الذلة، واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه، وفيهم يقول العرقله:

أصبح الملك بعد آل علي
مشرقا بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو
م ومصر تزهو على بغداذ
ما حووها إلا بحزم وعزم
وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا
ن بها كالخصيب والاستاذ(١٢١)

يعني بالاستاذ كافور الاخشيدي، وقوله بعد آل علي يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، وأظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون فملكوا البلاد، وقهروا العباد، وقدد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ولانسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد

هذا من نسـل القدّاح الملحد المجوسي، وقيل كان والـد عبيد هذا يهوديـاً مــن أهـل سليمة مـن بلاد الشام، وكـان حدّاداً و عبيـد هذا كـان اسمه سعيداً، فلما دخـل المغرب تسمـى بعبيد الله، وزعـم أنه علـوي فاطمـي، وادعى نسباً ليـس بصحيح لم يذكره أحـد من مصنفي الأنساب العلـوية بل ذكر جماعة من العلماء بـالنسب خلافه، وهو ما قدّمنا ذكـره، ثم ترقت به الحال إلى أن ملـك وتسمى بالمهدي، وبنـى المهدية بالمغـرب، ونسبت إليه، وكـان زنديقـا خبيثا عـدوّاً للاسـلام، متظاهـراً بالتشيـع، متستراً به، حريصاً على إزالة الملة الاسلاميـة، قتل من الفقهاء والمحدّثين والصالحين جماعة كثيرة، وكـان قصده اعـدامهم مـن الوجـود ليبقى العـالم كالبهـائم فيتمكـن مـن افساد عقـائدهـم وضـلالتهـم: (والله متـم نوره ولـو كـره الكـافـرون (١٢٢)) ونشأت ذريتـه على ذلـك منطـوين يجهـرون بـه إذا أمكنتهم الفـرصة، وإلاّ أسروه والـدعاة لهم منبثـون في البلاد يضلـون من أمكنهـم إضـلاله مـن العبـاد، وبقـي هـذا البلاء على الاسـلام مـن أول دولتهم إلى آخـرها، وذلك مـن ذي الحجة سنة تسـع وتسعين ومائتين إلى سنـة سبـع وستين وخمسمائة، وفي أيـامهـم كثـرت الـرافضـة، واستحكـم أمـرهم، ووضعـت المكـوس على النـاس، واقتدى بهم غيرهـم، وأفسـدت عقـائد طـوائف مـن أهـل الجبال السـاكنين بثغـور الشـام، كـالنصيريـة والـدرزية والحشيشيـة نوع منهـم، وتمكـن دعاتهم منهـم لضعف عقـولهم وجهلهم مـا لم يتمكنوا من غيرهـم، وأخذت الفرنـج أكثر البلاد بـالشام والجزيـرة إلى أن منّ الله على المسلمين بظهـور البيت الأتـابكـي، وتقدّمـه مثل صلاح الديـن، فاستردّوا البلاد وأزالوا هذه الدولـة عن أرقاب العباد، وكـانـوا أربعة عشر مستخلفـا، ثـلاثـة منهـم بـإفريقيـة وهـم الملقبـون: بالمهـدي، والقائم ، والمنصـور، وأحد عشر بمصر وهـم الملقبون: بـالمعز، والعـزيـز ، والحاكـم، والظاهـر، والمستنصر، والمستعلي، والآمـر، والحافـظ، والظافر، والفـائز، والعاضد، يدّعـون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة

العلويـة، وإنما هي الـدولة المجـوسية واليهـودية البـاطنية الملحـدة، ومن قبـاحتهم أنهم كـانوا يـأمرون الخطبـاء بذلـك على المنابـر، ويكتبونـه على جدران المسـاجد وغيرها، وخطـب عبدهم جوهـر الذي أخذ لهم الـديار المصرية وبنى لهم القاهـرة المعزية بنفسه خطبة طويلـة قال فيها: « اللهم صل على عبدك ووليـك ثمرة النبوّة وسليل العترة الهادية المهـدية معد أبي تميم، الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليـت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتجبين الأئمة الـراشدين»، كذب عـدوّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولافي ذريتـه الباقين، والعترة النبويـة الطاهـرة منهم بمعـزل رحمة الله عليهم، وعلى مثـالهم من الصـدر الأول وقد بين نسبهـم هذا وأوضح محالهم وما كانوا عليه مـن التمويه وعداوة الاسلام جماعة ممن سلـف من الائمـة والعلماء، وكل متـورع منهم لايسميهـم إلا بني عبيـد الأدعياء، أي يدّعون مـن النسب بما ليس لهم، ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمـد بن الطيـب فإنـه كشف في أول كتـابه المسمـى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسـب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه، وأن القدّاح الذي انتسبوا إليه، دعي مـن الأدعياء ممخرق كذاب، وهو أصل دعـاة القرامطة لعنهـم الله، وأما القـاضي عبد الجبـار البصري فإنـه استقصى الكـلام في أصولها، وبينهـا بيانـا شافيـا في آخر كتـاب تثبيت النبـوّة له، وقـد نقلت كـلامهما في ذلك وكـلام غيرهما في مختصر تـاريـخ دمشق في تـرجمة عبـد الرحيم بن الياس ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس، وهذان إمامـان كبيران من أئمة أصول ديـن الاسلام، وأظهر عبد الجبـار القاضي في كتابه بعض مـا فعلوه من المنكرات والكفريات التـي يقفّ الشعر عند استماعهـا، ولكـن لابـد مـن ذكر شيء مـن ذلـك تنفيراً لمن لعلـه يعتقـد إمامتهـم، ويخفى عنه محالهم ولم يعلـم قباحتهـم ومكابرتهم، وليعـذر من أزال دولتهـم، وأمات بدعتهم، وقلـل عدّتهم، وأفنى أمتهم، وأطفأ جمرتهم، ذكر عبد الجبار أن الملقب بالمهـدي لعنه الله كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكـان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحـون في فرشهم،

وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين، وأكثر من الجور واستصفاء الأموال، وقتل الرجال ، وكان له دعاة يلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم: « هو المهدي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه» ويقولون لآخرين: « هو رسول الله وحجة الله». ويقولون لأخرى: « هو الله الخالق الرازق» لاإله إلا الله وحده لاشريك له تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً، ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه وزاد شره على شر أبيه أضعافا مضاعفة وجاهر بشتم الأنبياء فكان ينادي في أسواق المهدية وغيرها: « ألعنوا عائشة وبعلها، ألعنوا الغار وما حوى» اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين، وألعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين، وارحم من أزالهم، وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم، وأصلهم سعيرا، ولقهم ثبورا، واسكنهم النار جمعا، واجعلهم ممن قلت فيهم: (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (١٢٣)).

رجعنا إلى الأصل.وبعث إلى أبي طاهر القرمطي المقيم بالبحرين وحثه على قتل المسلمين، واحراق المساجد والمصاحف، وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مخلداً، الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدّم ذكره وسلخه وصلبه، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشرذ مهم خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد، وقام بعده ابنه الملقب بالمعز، فبث دعاته فكانوا يقولون هو المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلع من مغربها، وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم، واحتجب عن الناس أياماً، ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلات قلوب العامة والجهال منه، وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزية، واستدعى بفقيه الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي، ويعرف بابن

النابلسي فحمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسلخ حياً وحشى جلده تبنا وصلب رحمه الله تعالى.

قلت: وفي أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر والشوارع والطرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب، ثم أمر بقلع ذلك، وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأمكنة العليا منقوراً في الحجر، ودلني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر، وفي أيامهم طوف بدمشق برجل مغربي نودي عليه: هذا جزاء من يحب أبابكر وعمر، ثم ضربت عنقه، وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل : قطع لسان، أبي القاسم الواسطى أحد الصالحين، وكان أذن ببيت المقدس وقال في: أذانه حي على الفلاح، فأخذ وقطع لسانه، ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابلسي الحافظ أبو القاسم في تاريخه، وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلاّ محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدّتهم مع قلة عدّتهم ، فإن عدّتهم عدّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيفا وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانيا وستين سنة، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم، وإبادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم، ورحم من بيّن مخرقتهم وكذبهم ومحالهم، وقد كشف أيضا حالهم الامام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن نصر الشاشي في كتاب « الرد على الباطنية» وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده، ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدة سماها الإيضاح عن دعوة القدّاح أوّلها:

حي على مصر إلى خلع الرسن
فثم تعطيل فروض وسنن

وقال: لو وفق ملوك الاسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو

الباطنيـة الملاعين، فإنهم مـن شر أعداء ديـن الاسلام، وقـد خرجـت من حدّ المنـافقين إلى حد المجـاهرين لما ظهـر في ممالك الاسـلام من كفـرها وفسـادهـا وتعين على الكـافـه فـرض جهـادهـا، وضرر هـؤلاء أشـدّ على الاسلام وأهلـه من ضرر الكفار، إذ لم يقم بجهـادها أحد إلى هذه الغـاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض.

قلت: ثـم إني لم يقنعني هذا مـن بيان أحوالهم، فأفـردت كتابا لـذلك سميتـه « كشـف ما كـان عليـه بنـو عبيـد مـن الكفر والكـذب والمكـر والكيد»، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحـوالهم فعليه به فإني بتوفيق الله تعالى جمعـت فيه مـا ذكره هـؤلاء الأئمة المصنفـون وغيرهم، ووقفـت على كتـاب كبير صنفـه الشريـف الهاشمي رحمه الله، وكـان في أيـام الملقـب بـالعزيـز ثـاني خلفـاء مصر فبين فيه أصـولهم أتـم بيـان، وأوضح كيفيـة ظهورهم وغلبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضـائحهم وما كان يصدر منهم من انواع الزندقة والفسق والمخرقـة، فنقلت منه إلى ما كنـت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق ، ومـا أحسن ما قال فيهم بعض مـن مدح بني أيوب بقصيدة منها:

ألستـم مـزيلي دولـة الكفـر مـن بنـي
عبيـد بمصر إن هـذا هـو الفضـل
زنـادقـة شيعيـة بـاطنيـة
مجوس ومـا في الصـالحين لهم أصـل
يسرون كفـراً يظهـرون تشيعـا
ليستتروا شيئـاً وعمهـم الجهـل

أما مـا فعله هـؤلاء من الانتسـاب إلى علي رضوان اللـه عليه، والتستر بالتشيـع قد فعلـه جماعة من القـرامطة، وصاحـب الزنـج الخارج بالبصرة وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عرف من سيرهـم من وقف على أخبار النـاس، وكلهم كذبة ، في ذلـك، وإنما غرضهم التقـرب إلى العوام

والجهال واستتباعهم لهم واستجلا بهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله ما يشاء، ولا يغتر بأبيات الشريف الرضي في ذلك، وقد حصل الجواب عنها في كتاب الكشف بوجوه حسنة، وبالله التوفيق، وقد صنف الشريف القائد [أخو محسن] الدمشقي رحمه الله كتاباً في أبطال، نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصل ذلك تفصيلا حسنا وأطنب في ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى.

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شدّاد: واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها، ولا يبقى لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة، وقصد بلاد العدوّ وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده، وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقة، فأخذها نور الدين، ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره، وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياما حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

قال ابن الاثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوئين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور منها أن المركبين كانا قد دخلها ماء البحر لكسر فيهما، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله عنه لايهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردوا شيئاً، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة، وبث السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافيتا وعريمة، فأخذهما عنوة، وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعرقة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا إلى انطاكية فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدّد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلما نهبت بلادهم وخرّبت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم، لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه، وكان في الناس من يأخذ ما ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة، وكان نصرانيا فلم يأخذ إلاّ ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا السبب، وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خُذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه وأنا في غنى عنه، فلم يفعل فقال: خذ النصف وأنا النصف واجتهد به والدي فلم يفعل، فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام معه عدّة من الأثواب السوسية وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد

حضر اليوم، وسبب حضوره أن إنساناً فقاعيـا من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقـد أعادوا عليه مـاله، فرأى هـذه الأثواب واسمي عليهـا، فلم يسهل عليه أن يردّهـا ــ يعني عليهم ــ و سأل عنـي وقد قصدني وهي معي، وحضر عنـدي الساعة وسلمها إليّ، وقـال: قد تركت طـريقي لتبرأ ذمتي، فـأخذنا نحـن ما عليه اسمنـا بعد الجهـد، وطلب والدي الـرجل وسألـه أن يقيم عنـدنا ليسلم إليـه مالاً يتجر فيـه، فلم يفعـل، وعاد إلى بلده، قال: وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

فصل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قـال العماد: وكان صـلاح الديـن واعـده نور الـدين أن يجتمعـوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بـالصلاح المشترك فخرج من القاهرة في الثـاني والعشرين مـن المحـرّم بـالعزم الأجـزم والـرأي الأحـزم، فاتفـق للاجتماع عائق، ولم يقدّر للإتفاق قدر موافق، فلقي في تلك السفرة شدّة وعدم خيلا وظهرا وعدّة، وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول.

قـال ابن الاثير: في سنـة سبع وستين أيضـاً جـرى ما أوجـب نفرة نـو الديـن من صلاح الـدين، وكان الحادث أن نـور الدين أرسـل إلى صلاح الدين يـأمره بجمع العساكـر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنـج، والنزول على الكـرك ومحاصرته ليجمـع هـو أيضاً عسـاكـره ويسير إليه، ويجتمعـا هناك على حرب الفـرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرّز صلاح الـدين من القاهـرة في العشرين من المحـرّم، وكتب إلى نور الـدين يعرّفـه أن رحيله لايتأخر، وكان نـور الدين قد جمع عساكره وتجهـز، وأقام ينتظر ورود الخبر مـن صلاح الـدين بـرحيله ليرحـل هو، فلما أتـاه الخبر بذلـك رحل مـن دمشق عـازما على قصد الكـرك، فوصل إليـه وأقام ينتظر وصـول صلاح

الديـن إليه، فأتـاه كتابـه يعتذر فيه عـن الوصول بـاختلال البـلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنهـا، فعاد إليها فلم يقبل نور الـدين عذره، وكان سبـب تقاعـده أنّ أصحابـه وخـواصه خـوّفـوه من الاجتماع بنـور الديـن فحيث لم يمتثـل أمر نـور الدين شـق ذلك عليـه وعظم عنـده وعزم على الـدخول إلى مصر، وإخـراج صـلاح الديـن عنهـا، فبلغ الخبر إلى صـلاح الـدين، فجمـع أهلـه وفيهم والـده نجم الـديـن وخالـه شهـاب الديـن الحارمي، ومعهم سـائر الأمراء وأعلمهم ما بلغـه من عزم نور الـدين على قصده وأخذ مصر منـه واستشارهم، فلم يجبه أحد منهـم بشيء، فقام ابن أخيه تقـي الديـن عمر، وقـال: إذا جاءنا قـاتلناه وصـددناه عـن البلاد، ووافقـه غيره مـن أهلـه، فشتمهـم نجـم الـديـن أيـوب، وأنكـر ذلـك واستعظمـه، وكان ذا رأي ومكـر وكيد وعقـل وقـال لتقي الـدين: اقعـد وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهـذا شهاب الدين خالك أتظنّ في هـؤلاء كلهم مـن يحبك ويـريد لـك الخير مثلنا؟ فقـال: لا، فقال نجـم الدين: والله لـو رأيت أنا وهذا خـالك نور الديـن لايمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبـل الأرض بين يديـه، ولو أمـرنا بضرب عنقـك بالسيـف لفعلنا، فـإذا كنـا نحـن هكـذا كيـف يكون غيرنـا! وكـل مـن تـراه مـن الأمـراء والعساكر لو رأى نور الديـن وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النـزول وتقبيل الأرض بين يديـه، وهذه البـلاد له، وقد أقـامك فيها، فإن أراد عزلـك فأيّ حاجة به إلى المجيء يأمـرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خـدمته، ويولي بلاده من يـريد، وقال للجماعة كلهـم: قوموا عنا فنحـن مماليـك نور الديـن وعبيده ويفعـل بنا ما يـريده فتفـرّقوا على هذا، وكتـب أكثرهـم إلى نور الديـن بالخبر، ولما خلا نجـم الديـن أيوب بابنه صـلاح الدين قال لـه: أنت جاهل، قليـل المعرفة تجمع هـذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمـع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد، جعلـك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصـد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكـانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا

المجلس فسيكتبون إليه ويعرّفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والأيام تندرج، والله كل وقت في شان، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين رحمه الله الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحمام

قال ابن الاثير: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته فكانت من حدّ النوبة إلى باب همذان لايتخللها سوى بلاد الفرنج، وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده وأجرى الجرايات لها ولمربيها فوجد بها راحة كبيرة، كانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أوسمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة من طائر إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك، حتى أنّ طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدوّ، ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد أمنوا لبعد نور الدين

عنهم، فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لايقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر، وصونا من الحيف ليحمي البلاد من العدوّ بالسيف، وهو متشوّف إلى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وتقدّم إليّ بكتب منشور لأربابها وإعزاز أصحابها، وهو حينئذ بظاهر دمشق مخيم بوادي اللوان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادون على أهل العدوان، وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة، ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال: « هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الابطاء، والسابقات الهوج في الاهتداء، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعه. وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعه. وقد عم بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكائدها ومكامنها طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها الميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار من الأقطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفار»

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة، وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف

وأخصر فقـال: « الطيور مـلائكة الملـوك» يشير إلى أن نزولها على الملـوك من جـوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبيـاء عليهم السلام مـن السماء، مع فرط مـا فيها مـن الأمانـة لايتوهم مـن جهتها خيـانة، فلقـد أحسن فيما وصف، وأبـدع فيما استنبط وأنصف، وهـو بذلك أولى وأعـرف، رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجـل باسقاط المكوس بمصر، قرىء على المنبر بـالقاهرة يـوم الجمعة بعـد الصـلاة ثالـث صفـر سنـة سبع وستين وخمسمائة عـن السلطان الملك الناصر في أيام نور الـدين رحمه الله، فهو كان الآمر وذلك المباشر، يقـول فيه:« أما بعـد فإنا نحمد الله سبحـانه على ما مكـن لنا في الأرض، وحسنه عنـدنا مـن أداء كل نـافلة وفـرض، ونصبنا لـه من إزالـة النصب عن عباده، واختارنا له مـن الجهاد في الله حق جهاده،وزهدنا فيه مـن متاع الـدنيا القليـل،وألهمنـا من محاسبـة أنفسنا على النقير والفتيـل، وأولانا مـن شجاعـة السماحة فيـوما نهب هـا اشتملت عليـه الدواويـن، ويوماً نقطع مـا سقاه النيل، فالبشائر في أيامنـا تترى شفعا ووتراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخـرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطـامـع، واسخطـت الخيمة والصنـايـع، وأرضـت المنبر والجامـع، ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الـديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكـون لنا في الـدنيا إلى أن تكـون لنا في الآخـرة، وأن نتجرد منهـا لنلبس أثـواب الأجـر الفـاخـرة، ونطهر منهـا مكـاسبنـا، ونصـون عنهـا مطالبنا، ونكفـي الرعية ضرّهم الـذي يتوجه إليهم، ونضـع عنهم أصرهم

والأغلال التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب، فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المتردّدين إليهما وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها، فسيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر براً وبحراً، مركبا وظهراً، سراً وجهراً، لايحل ما شدّة، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرمه، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لايشوبها تأويل ولا يتخوّنها تحويل ولا يعتريها زوال، ولا يعتورها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القيمة، من عارضها ردّت أحكامه، ومن ناقضها نقض ذمامه، ومن ازالها زلت قدمه، ومن أحالها حل دمه، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من حطبه، فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أوناظر، فليمتثل ما مثل من الأمر، وليمضه على ممر الدهر، مرضيا لربه، ممضياً لما أمر به.

وفيها توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقري النحوي، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى، وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين، وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندري المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب، ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحو من خمس وثلاثين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النحاة الحسن بن صافي، وفيها ترتب العماد الكاتب مشرّفا بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الانشاء، قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعيا فطنا لوذعيا، لايشتبه عليه الأحوال، ولا يتهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سير منها عدّة من الأمتعة المستحسنة والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البلخش أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقرن بها من اللآلى مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات بما لايجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار، فشكر نور الدين همته، وذكر بالكرم شميته، ووصف فضيلته وفضل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدّ به خلة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر، وتمثل بقول أبي تمام

لم ينفق الذهب المربي بكثرته
على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد، فاستنزره وما استغزره، واستقل المحمول في جنب ما حرره وتروّى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخره.

قال ابن أبي طي: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرد الموفق بن القيسراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام

أخبارها وارتفاعهـا، وأين صرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنـة، وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيـلاء صلاح الدين عليهـا المقيم المقعد، وأكثر في مـراسلته في حمل الأموال، حـدّثني أبي قـال: لم يخف حال نـور الديـن في كراهيـة الملك الناصر، ولقـد علم ذلك جميع الأجناد والأمـراء، وتحدّث به العوام، ولاسيما حين أنفذ هـذه الهدية واشتـدّ بعد ذلـك في مراسلتـه، وأنفذ ابـن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدّ من دخول مصر.

قال العماد: وكـان نور الديـن مذ ملكـت مصر، وتوجه لـه فيها النصر، يؤثر أن يقـرر له فيها مال للحمل يستعين به على كلـف الجهاد، وتخفيف مالـه من الثقل، والأيـام تماطله، والأعوام تطـاوله، وهو ينتظـر أن صلاح الدين يبتدي من نفسه بما يريـده، وهو لايستدعي منه ولا يستزيده، فلما حمل من أخـائر الذخائر والمال الحاضر مـا حمله، وعرف مجملـه ومفصله، تقدّم إلى الموفـق خالد بن القيسراني أن يمضي ويطلـب، ويقتضي ويعمل أيضـا بالأعمال المصريـة جـزازه، ولا يبقـى في نفوس ديـوانـه مـن أمرهـا حزازه، وأرسل معه الهدايا والتحف السنـايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الانشـاء، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخـرج صلاح الـدين في النصف مـن شوال ومعـه الفيل

والحمارة العتابية، والـذخائر النفيسة التي كان انتخبهـا من خزائن القصر، وهي معـدودة من محاسن العصر، وقـد سبق ذكـر تسييرها إلى نور الـدين وقوبلت بـالاحسان والتحسين، ووصلت الحماره، وكثرت لها النظـارة، وأما الفيـل فـإنه وصـل الينـا في سنـة تسـع وستين ونحن بحلـب في الميـدان الأخضر، وأهداه نـور الديـن إلى ابن أخيه سيـف الديـن غازي صـاحب الموصل مـع شيء من تحفة الثياب والعـود والعنبر، ثم سيره سيف الـدين

إلى بغداد هدية للخليفة مع ما سيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

فصل
في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها وفرق عنها عربها، وخرب عماراتها، وشتت على أعمالها سراياه بغاراته، ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلي:« سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه، ومد أبداً إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد مكانة، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم، ويفلل أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم، وأبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لايبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الايمان، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم إلى أن صار العدوّ اليوم إذا نهض لايجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة ولايهتدي سبيلاً.» ثم ذكر باقي الكتاب.

قال ابن شدّاد: وهذه أوّل غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدوّ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد

عنها، ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة وحصل ثواب القصد، وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بهسنى في ذي الحجة منها.

وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهه بنور البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكل منا يمدحها وبحبه يمنحها، وكل منا يطريها، فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت:

ليس في الدنيا جميعا
بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها
في سبيل الله عشقي
والتقى الأصل ومن
يتركها يشقى ويشقي
كم رشيق شاغل عنه
بسهم الغزو رشقي
وامتشاق البيض يغني
عنه بالأقلام مشقي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبتيات في معنى الجهاد على لسانه

فقلت:

للغزو نشاطي وإليه طربي
مالي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب
والراحة مستودعة في التعب

وقلت أيضا:

لاراحة في العيش سوى أن أغز
وسيفي طربا إلى الطلى يهتز

في ذل ذوي الكفر يكون العز
والقدرة في غير جهاد عجز

وقلت أيضا:

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب
والراحة في سواه عندي تعب

إلا بالجدّ لا ينال الطلب
والعيش بلا جدّ جهاد لعب

قال: واتفق خروج كلب الروم اللعين في جنود الشياطين بقصد الغارة على زرا من ناحية حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان، ونزلوا في قرية تعرف بسمسكين (١٢٥)، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين في عشترا، وقد سره ما جرى، فأنفذ سرّية إلى أعمال طبرية، واغتنم خلوّها، فأدلجت تلك الليلة وحمدت في شن الغارة غدوّها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان، وثبت من ثبته الايمان، حتى عبرت السرّيه، وانفصلت تلك القضية، ورحل نور الدين من عشترا، فنزل بظاهر زرا، قال العماد:

وكنت راكبا في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى، فمدحته بقصيدة

عقدت بنصرك راية الايمان
وبدت لعصرك آية الاحسان

يـا غـالـب الغلـب الملوك وصـائد الــــ
ــــصيد الليـوث وفـارس الفــرسـان
يــاسـالـب التيجـان مـن أربـابها
حـزت الفخـار على ذوي التيجـان
محمـود المحمـود مـابين الـورى
في كـل اقليـم بكـل لسـان
يـاواحـداً في الفضـل غير مشـارك
أقسمـت مـالـك في البسيطـة ثـاني
أحلى أمـانيـك الجهـاد وإنـه
لـك مـؤذن أبـداً بكـل أمـان
كـم بكـر فتـح أولـدتـه ظبـاك مـن
حـرب لقمـع المشركين عـوان
كـم وقعـة لـك بـالفـرنـج حـديثها
قـد سـار في الآفـاق والبلـدان
قمصـت قـومصهـم رداء مـن ردى
وقـرنـت رأس بـرنسهـم بسنـان
وملكـت رق ملـوكهـم وتـركتهـم
بـالـذل في الأقيـاد والأشجـان
وجعلـت في أعنـاقهـم أغـلالهم
وسحبتهـم هـونـاً على الأذقـان
إذ في السـوابـغ تحطـم السمـر القنـا
والبيـض تخضـب بـالنجيـع القـاني
وعلى غنـاء المشرفيـة في الطلى
والهام رقـص عـوالي المرّان

وكـان بين النقـع لمع حـديـدهـا
نـار تـألـق مـن خـلال دخـان
في مـازق وردالـوريـد مكفـل
فيـه بـريّ الصـارم الظمآن

غطى العجاج به نجوم سمائه
لتنوب عنها أنجم الخرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا
طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
في حيرة وأتوا إلى حوران

ومنها:
وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم
لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للاسلام ركناً ثابتا
والكفر منك مضعضع الأركان
قوّضت أساس الضلال بعزمك الـ
ـماضي وشدت مباني الايمان
قال أين مثلك في الملوك مجاهد
لله في سرّ وفي اعلان
لم تلقهم ثقة بقوّة شوكة
لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلا بالذي
لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا فقاصيها إذا
حققته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا
مصر إلى قوص إلى أسوان

لم تلـه عـن بـاقـي البـلاد وإنما
الهاك فـرض الغـزو عـن همذان

للـروم والأفـرنـج منـك مصـائب
بـالترك والأكـراد والعـربـان

اذعنـت لله المهيمـن اذعنـت
لـك أوجـه الامـلاك بـالاذعـان

أنـت الـذي دون الملـوك وجـدتـه
مـلآن مـن عـرف ومـن عـرفـان

في بـأس عمـرو وفي بسـالـة حيـدر
في نطـق قـس في تقـى سلمان

سير لـو أنّ الـوحـي ينـزل أنـزلـت
في شـأنها سـور مـن القـرآن

فـاسلـم طـويـل العمـر ممتـدّا المدى
صـافي الحيـاة مخلـد السلطـان

وهـي قصيـدة طـويلـة وصـف فيهـا امـراءه الحاضريـن الجهـاد معـه ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النوبة

قال العماد: وفي جمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد النوبة وأراهم سطاه المرهوبة، وفتح حصنا لهم يعرف بابريم، وكان لايريم، وهي بلاد عديمة الجدوى، عظيمة البلوى، ثم رجع بالسبي وعاد به إلى أسوان، وفرق على أصحابه في الغنائم السودان.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الأميركنز الدولة، فأنفذ يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها، فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة، وسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى وأسر من وجده فيها، وهرب صاحبها، وكتب إلى السلطان بذلك، فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروي يهنيه بفتح ابريم قصيدة منها:

فقدّم العزم فذا مبتداه
يقصر عن ملك الأرض منتهاه

واسحب ذيول الجيش حتى ترى
أنجمه طالعة عن دجاه
سواك من ألقى عصاه بها
قناعة لما استقرّت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا
ج إذا شئت وتور انشاه
فقد غمدت ابريم في ملكه
تبرم أمرا فيه كبت العداه
لا بدّ للنوبة من نوبة
ترضى لسخط الكفر دين الإله
تظل من نوبة منسوبة
لعزمة كامنة في أناه
تكسو الغزاة القاطني أرضها
ما نسجت للحرب أيدي الغزاه
سود وتحمر الظبا حولها
كأعين الرمد بدت للأساه
أولا فسمر يحميها القنا
مثل دنان بزلتها السقاه
لله جيش منك لا ينثني
إلا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها
خيل وفرسان كمثل البزاه
أساد حرب فوق أيديهم
أساور الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الأنهار واستلأموا الـ
ـغدران فالنيران تجري مياه

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم

فاقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين، فلما حصلوا فيها تفرّقوا فرقا، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة، حتى برّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم، واتفق أنهم عدوّا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دنداان، فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية، فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جواب إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنملة وهي مدينة الملك، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عريا، وقد التف في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر، قال: فأتيت فسلمت عليه، فضحك وتغاشى وأمر بي أن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني، قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلاّ دار الملك فقط، وباقيها اخصاص.

- ٨٠٨٠ -

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجه، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريما رحيما عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود، وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والإجلال والإعظام وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدّم ذكره، رحمهم الله.

قال القاضي ابن شدّاد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله، وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلاّ من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعه، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

مشهده الحسره، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبره، فيا له فقيداً، فقد عليه العزاء، وهانت بعده الأرزاء، وانتشر شمل البركة بفقده فهي بعد الاجتماع أجزاء:

وتخطفته يد الردى في غيبتي
هبني حضرت فكنت ماذا أصنع

قال ابن أبي طي الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، ولايعرف في نسبه أكثر من والده شاذي، وحدّثني أبي رحمه الله قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول : شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابن أبي طي: وقد ادّعى ابن سيف الاسلام لما ملك اليمن أنهم من بني مروان بن محمد الجعدي المعروف بالحمار، يعني آخر خلفاء بني أمية، قال: وقد نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أن هذا كذب، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جداً فوق شاذي، وكذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله.

قلت: ودليل صحة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الرباط النجمي بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي، وابن سيف الاسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب ابن شاذي إن أخي السلطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه، وتعاظم إلى أن ولى نفسه الخلافة، وادعى أنه من بني أمية، وعزم على اعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير من الشعراء بذلك، وزينواله فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإني أنا الهادي الخليفة والذي
أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد

ولابـد مـن بغـداد أطـوي ربـوعهـا
وانشرهـا نشر السماسر للبرد
وانصب أعـلامـي على شرفـاتها
وأحيـي بهـا مـا كـان أسسـه جـدّي
ويخطـب لي فيهـا على كـل منبر
وأظهـر ديـن الله في الغـور والنجـد

قال ابن أبي طي: وكـان نجم الدين أيوب عدلا مـرضياً، كثيراً الصلاة والصلات، غزير الصـدقات والخيرات، يحب العلماء ويميل إلى الفضلاء، وكان ممدحاً مـدحه العماد الكاتب بجملة قصائد، قال: وكـان مولد نجم الدين أيوب ببلـد شبختان ، كذا حكاه مؤيد الدين ابـن منقد، وحدّثني جماعة أن مولـد نجم الدين كـان بجبل جور، وربي في بلد الموصـل، ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السلطان محمد بـن ملكشاه، فرأى منه أمانة وعقلاً وسـداداً وشهـامة فـولاه قلعـة تكـريـت، فقـام في ولايتها أحسـن قيـام، وضبطها أكـرم ضبط، وأجلى من أرضهـا المفسديـن وقطاع الطريـق وأهل العيث، حتـى عمرت أرضها وحسـن حال أهلها وأمنـت سبلها، فلما ولي السلطان مسعـود الملك أقطع قلعـة تكريـت لمجاهد الـدين بهروز الخادم شحنـة بغداد ومتـولى العـراق، وكان هـذا بهروز أميراً ينفـذ أمره في جميـع العـراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهـان، وكـانـت خيله خمسـة آلاف فارس، فأقـر الأمير نجم الدين في ولايـة تكريت، وأضاف إليـه النظر في جميع الـولاية المتاخمة لـه، وقرر أمـره عند السلطان مسعـود، وجعل بهروز قلعـة تكريـت خزانـة أموالـه وبيت عقـائله، وجعـل جميع ذلـك منوطـاً بالأمير نجـم الدين، ومعـذوقا بهمته، وكـان نجم الديـن عظيماً في أنفس الناس بالديـن والخير وحسن السياسة، وكان لايمر أحـد من أهل العلم والدين بـه إلاّ حمل إليه المال والضيافة الجليلـة، وكان لايسمع بأحـد من أهل الدين في مدينة إلاّ أنفذ إليه.

وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية الأمير نجم الدين وقرظة وأثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثرة خيره أشياء حسنه، وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزيني، وأمره بقتله فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدركزيني، ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد، وجرد عسكراً ضخماً، وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد واتصل الخبر بقراجه الساقي وهو أتابك ابن السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهزم زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدّة جراحات ، وعلم به الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه(١٢٦) إلى القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقرباً إليه ، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من امتعته، فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطاف مدّة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ما سنذكره تلقاه زنكي بالرحب والسعة، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدّة قطائع، وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً باسلاً ينزل من القلعة ويصعد إليها في اسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لايفارق القلعة، ولا ينزل منها فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه، ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد إلى القلعة، وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني، وأخذ النصراني

برجله فألقي من القلعة، وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى، وحضر عنده من خوّفه جراءة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين، وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل، وقيل إن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه، وأظهر البكاء والأسف على مفارقته، ولما اتصل باتابك زنكي قدومهما أفرحه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقطعهما في بلد شهرزور اقطاعاً سنياً، وقيل إنه أقطع أسد الدين بالموزر، وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودّة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين، حتى قربهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة، وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار، وقتال الفرنج لعنهم الله، وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفعلة الغراء، وحدثني أبي رحمه الله قال: حدّثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي، وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب، قال: وحدّثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح، قال: حدّثني حسام الدين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوة بني العباس في أوّل سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر،

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول، فبينا الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر، ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين فقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان، فضحك نجم الدين، وقال: صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلة رزقت هذا الولد، يعني السلطان الملك الناصر، أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله، وقتله النصراني وكنت قد ألفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فثقل عليّ الخروج منها والتحوّل عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك، وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته، فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ، ولم افرح به، ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنت له فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لاينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً ، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدره، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد أوقفني على ما كان قاله، فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه، قلت ولعمارة في نجم الدين مدائح ومراث منها قوله:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجاً ومعتمراً
كأنما حل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتشر
فقارعوا عنه فهو اليوم منتظم
ومادرى أحد من قبل رؤيتهم
أن الحظوظ بلثم الأرض تقتسم
نامت عيون الورى في عدل سيرتهم
كأن يقظتنا في عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة
إذا الحوادث لم يكشف لها غمم
أعز بالبأس والاحسان حوزتنا
فلم يلم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك
تنحط عن قدره الاقدار والهمم

وقال في مرثيته:
هي الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقاها تضاعف أجره
أذم صباح الاربعاء فانه
تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة
تداعى سماك الجوّ منها ونسره
فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى
على فقد أيوب فقد بان عذره
أقام بأعمال الفرات وخيله
يراع بها نيل العزيز ومصره
إلى أن رماها من أخيه بضيغم
فرى نابه أهل الصليب وظفره

فلما قضى نحبي حياة ودولة
بأمرك في ادراكها تم أمره
تعاقبتها مصراً تعاقب وابل
يبيت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها فحللتها
فمغناك مغناه وقطرك قطره
وواخيته في البر حيا وميتا
فقبرك في دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع إليكما
وإلا فسكان الحجون وحجره
هنيا الملك مات والعز عزه
وقدّرته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده
وما طال إلاّ في رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما
رأى في بني ابنائه ما يسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم
فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره
لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره
حمى حوزة الاسلام والدين بعده
ثمانية من أجلهم عز نصره
فكيف بخيس آل أيوب أسده
لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس إنه
أبوها ونور البدر منها وزهره
وأبقى المقام الناصري فإنه
لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضاً:

صفو الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الموت لا يبقي ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرّت الدنيا مطامعنا
فما مع الموت لا غش ولا كدر
كأس إذا ما الردى حيا الحياة بها
لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر
كم شامخ العز لاقى الذل من يدها
ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
في كل جيل وعصر من وقائعها
شعواء يقطر منها الناب والظفر
أودى عليّ وعثمان بمخلبها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسي في مصيبته
فللورى برسول الله معتبر
نجم هوى من سماء الدين متكدراً
والنجم من أفقه يهوي وينكدر
منظومة أنجم الجوزاء من جزع
له وعقد الثريا منه منتثر
وكيف ينسى محياه الكريم ومن
نعماه في كل عيش صالح أثر
جدّدت من أسد الدين الشهيد لنا
حزناً به يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
إن فاح نشر كلام تمدحان به
مسكاً فعترة أيوب هي العطر

تخفي ذبال مصابيح إذا طلعوا
صبحاً وتنسي ملوك الأرض إن ذكروا
كأنما صور الله الكمال بهم
شخصاً ويوسف منه السمع والبصر
لا شوبك منه معصوم ولا كرك
ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلاً إلا وساكنها
إما مباح حماه أو دم هدر
ما مات أيوب إلا بعد معجزة
في المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيداً من الدنيا وليس له
في رتبة أرب باق ولا وطر
وطوّل الله منه باع أربعة
منها الندى والتقى والملك والعمر
واشرف الملك ما امتدت مسافته
في صحة أخواها العقل والكبر
ومن سعادته أن مات لا سأم
يشكوه منه معانيه ولا ضجر

فصل

قال: العماد وسار نور الدين قاصداً جانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من الأحوال، فسار إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل في كل منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم، ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة، ثم فتح بهسنى، واتبع في كل منهما الطريقة الحسنى، وكتب العماد إلى صديق له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش:

كتابي فديتك من مرعش
وخوف نوائبها مرعشي
وما مر في طرفها مبصر
صحيح النواظر إلا عشي
وما حل في أرضها آمن
من الضيم والضر إلا خشي
ترنحني نشوات الغرا
م كأني من كأسه منتشي
أسرّ وأعلن برح الجوى
فقلبي يسر ودمعي يشي
بذلت مهجتي رشوة
فحاكم حبكم مرتشي
وكيف يلذ الكرى مغرم
بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة ونمى حديثها إلى نور الدين، قال: فاستنشدنيها فأنشدته إياها، ونحن سائرون في واد كبير، مع بيتين بدهت بهما في الحال وهما:

وبالملك العادل استأنست
نجاحا مني كل مستوحش
وما في الأنام كريم سوا
ه فإن كنت تنكر ذا فتش

قال ابن الاثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه وأقصرا، عازما على حربه، وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند،

صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً، وملتجئاً إلى ظله فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعده النصر والسعى في ردّ ملكه إليه، وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر، وغيرها، فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: «إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لا أعتقدك مؤمنا، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فأما أن تكون تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي»، وذكر أموراً غيرها فلما سمع قليج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب أنا أجدّد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكها.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الامام الكبير قطب الـدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحـده، فسر نور الدين به وأنزلـه بحلب بمدرسة باب العراق، ثـم أطلعه إلى دمشق فدرس بـزاوية الجامع الغربيـة المعروفة بالشيخ نصر المقـدّسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروق، وشرع نـور الدين في انشاء مدرسة كبيرة للشافعيـة لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلت: هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر ابن أيوب أخو صلاح الـدين وفيها تربته، وقد رأيت أنا مـا كان بناه نور الدين، ومن بعـده منها، وهو موضع المسجد والمحـراب الآن، ثم لما بناها الملك العـادل أزال تلك العمارة، وبناها هـذا البناء المتقن المحكـم الذي لانظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدّر الله تعالى جمع هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

وبقـي قطـب الـديـن إلى أن تـوفي في الأيـام النـاصريـة في سنـة ثمان وسبعين، وقد وقـف كتبه على طلبة العلم، ونقلـت بعد بناء هـذه المدرسة إليها فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته رحمه الله.

قال العماد: وكـان وفد في سنة أربـع وستين شيخ الشيوخ عماد الـدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه، فأقبل عليه نور الدين وأمرني بـانشاء منشـور لـه بمشيخة الصـوفيـة، ورغبه في المقـام بـالاحسان إليـه بالشـام، ومن جملـة ما أتحفـه به عمامـة بأعمـدة ذهبية، كـان قد أنفـذها صلاح الدين مـن مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنـة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العمامة في أخبار نور الدين أوّل الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى إياها وهـو الشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله.

ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه:« فلينظر في رباط السمسياطي، وقبة الطواويس، ورباط الطاحونة وغيرها من ربط الصوفية بدمشق المعمورة وبعلبك، ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني قطائف وكتب إليه:

مـــاراقــــدات في صحــــون
مستـــــوطنـــــات في سكـــــون
أو كـــــالعقــــائل في الخدو
ر قـــــداعتقلـــــن على ديـــــون
أو كـــــالتمائم للصحـــــا
ف ومـــــا نسبـــــن إلى جنـــــون
صرعـــــى ومـــــا دامـــــت لها
يـــــومـــــارحـــــى الحرب الـــــزبـــــون
يحيين بـــــالتغـــــريـــــق بـــــل
يسمـــــن في ضيـــــق السجـــــون
نضـــــدن بـــــالترصيـــــع في الـــــ
ـــــجامات كـــــالـــــدر المصـــــون
وقـــــداشتملـــــن مـــــن اللطـــــا
ئف والصفـــــات على فنـــــون
يجلي أمثـــــال العـــــرا
ئس بين أبكـــــار وعيـــــون
هـــــنّ اللـــــذيـــــذات اللـــــوا
تذ بـــــالسهـــــول مـــــن الحزون
السكـــــريـــــات الغـــــريـــــ
ـــــقات الغـــــلائل والشـــــؤون
للفـــــن في أكفـــــانهن
على المنـــــى لا للمنـــــون

-٨٠٩٤-

المستطـــــابـــــات الظهـــــو
را المستلـــــــذات البطـــــــون
المستقيات الصفـــــــــــــــوف
وقفـــن كـــالخيـــل الصفـــــون
اسمـــع حـــديثـــي في انبســـا
طـــي فـــالحديـــث أخـــو شجـــون

وهي أكثر من هذا

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدّم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوّته على الروم والأرمن، وكانت الدروب تحت أذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنور الدين من مقدّمي الروم ثلاثين أسيراً، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه: « وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الامام»، وفي آخره «ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الاسلامية في العصور الخالية، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب».

قلت: اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية، مع طائفة من الترك، فانضم إليهم جماعة من العرب، فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: « ونسأل الله التوفيق لاستدناه قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده» وسير العماد معه قصيدة منها:

بـــــا لمستضيء أبي محمـــــد الحســـــن
رجعـــت أمـــور المسلمين إلى السنـــن
في أرض مصر دعـــالـــه خطبـــاؤهـــا
وأتـــت لتخطـــب بكـــر خطبتـــه عـــدن
فـــا لمغـــرب الأقصـــى بـــذلـــك مشرق
وبنصر مصر محقـــق يمـــن اليمـــن
ورأى الالـــــه المستضيء لشرعـــــه
وعبـــــاده نعـــــم الأمين المؤتمن
سر النبـــوّة كـــامـــن فيـــه ومـــن
فطـــر الامـــامـــة مشرق نـــور الفطـــن
تقـــوّى أبي بكـــر ومـــن عمـــر الهدى
وحيـــاء عثمان وعلـــم أبي الحســـن
وبجـــده عـــرفـــت مقـــالـــة حيـــدر
لامـــن ددأنـــا ولا منـــي الـــددن
كـــم مـــن عـــدو ميـــت في جلـــده
رعبـــا وخـــوفـــاً فهـــو حـــي في كفـــن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله :

هـــل مثـــل محمـــود بـــن زنكـــي مخلـــص
متـــوحـــد يبغـــي رضـــاك بكـــل فـــن
ورع لـــــدى المحـــــراب أروع محرب
في حـــالتيـــه إن أقـــام وإن ظعـــن
يمسي ويصبـــــح في الجهـــــاد وغيره
يضحـــي رضيـــع سلافـــة وضجيـــع دن
وبعـــــزة الاســـــلام منتصراً حـــــراً
وبـــــذلـــــة الاشراك منتقما قمـــــن

قال ابن أبي طيّ: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين، وخمسين ديناراً من

دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديما من انعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم في حقه فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثاله الشريف إليه، وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطىء دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر والذكر الباقي على ممر الدهر، فقيل له ما ثم موضع يصلح لهذا إلاّ درار التمر فعاقه أمر القدر عن قدرته على هذا الامر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود ابن قفجاق صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المجدل فسرحهم بالعطاء الأجزل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفراة فتقبله مستخلف الأرمن بالبراق، وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بذل وصغار، وعاد إلى حلب، وقد أنجح في كل ما طلب، وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتاث سره لالتياث سريته وحظي بمرض القلب لمرض جسم محظيته، وجرت شكايته شكاية جاريته، فتصدّق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على يدي الرجال في خفة، وسارت على الطريق المهيع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تقرب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدّم بحق لازم من بخدمته شيعها، وتأخر نور الدين جريدة مع عدّة من مماليكه وأمرائه الماحضين في ولايته، وتقدّم إليّ أن أسايره في طريقه وأحاوره وأحاضره في منازله وأسامره، وسرنا على طريق قبة ابن ملاعب والمشهد وسلميه، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرّقوا وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

قلت: وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فانّ من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهرة، وعواد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون، من جائرات الرسوم، وما نزال نجدّد للرعية رسما من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقرىء أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي

- ٨٠٩٩ -

رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسيوغ المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور، والعقيبة ومزارعها الجارية في الاملاك، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه وأليم عقابه، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنس بأوضاره وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين».

فصل

في فتح اليمن

قال العماد:وفي رجب توجه تورانشاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن، فملكها وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار إلى مكة ثم إلى زبيد، فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز من القلاع، ففتح اقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بكراً، وشيع ذكرا.

وقال ابن شدّاد: ولما كان سنة تسع وستين، رأى صلاح الدين قوّة عسكره، وكثرة عدد أخوته، وقوّة بأسهم، وكان بلغه أن باليمن انساناً

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها واستتب أمره، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق، سمعت منه — يعني من صلاح الدين رحمه الله — الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعة من أماثل الناس، مثل بركات المقرىء وعلي بن محمد النيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن، وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلق به.

وقال العماد في الخريدة: علي بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شرب الخمر، وادّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدّث نفسه بالمسير إلى مكة فمات سنة ستين، وتولى بعده أخوه، وله شعر حسن يدل على علوّ همته (١٢٧).

قال ابن أبي طي: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جوّاداً، وكان إقطاعه بمصر لايقوم بفتوّته، ولاينهض بمروّته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت فمن جملة شعره في ذلك قوله من قصيدة أوّلها:

- ٨١٠١ -

العلم مذ كان محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الأجفان ظامئة
إلى الموارد في الأعناق والقمم
أمامك الفتح من شام ومن يمن
فلا تردّ رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سوّمها
من الفرات إلى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به
إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الورى لحما على وضم
وقد ترقى إلى أن امسكت يده
من الكواكب بالأنفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل
نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى:
أفاتح أرض النيل وهي عظيمة
على كل راج فتحها ومؤهل
متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبوبا سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وابين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرق وجعفر
نقيضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكاً لا يحيل بفخره
على أحد إلا على عزمك العلي

وله من أخرى:

قالوا إلى اليمن الميمون رحلته
فقلت ما دونه شيء سوى السفر

سير يسر بني الدنيا وطيب ثنا
وطول عمر كذا يحكى عن الخضر

لا توقدن لها النار التي خمدت
خفض عليك تنل ما شئت بالشرر

المال مل ء يد والقوم ملك يد
ولا أطيل وهذا جملة الخبر

قال ابن أبي طيّ: ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر، في البر العساكر، وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن فوصل زبيد في أوائل شوّال، فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني، وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم، وعدد كبير، فهجم زبيد وتسلمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل إلى عدن، وفي صحبته ابن مهدي، ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلي، ثم سار إلى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلاّ شيخا وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة.

فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان

شمس الـدولة قد استنـاب بزبيد الأمير سيف الـدولة المبارك ابـن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خـاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتلـه، فقتله ابـن منقذ بـزبيد، فلما بلـغ شمس الـدولة قتلـه استصوبـه، ولما حصل شمس الـدولة في زبيـد انفذ إليه صـاحب طمام (١٢٨) وصالحه هو وبـاقي الملوك على أداء المال، ثم تتبـع تلك الحصون والقـلاع فاحتـوى عليها جميعهـا، وكتب بـذلك إلى أخيـه الملك النـاصر، فأرسل إلى نـور الدين يخبره بما أفاض اللـه عليه من الإحسان وخـوّله من ملك الـديار والبلدان، فأرسـل نور الديـن مهذب الدين أبـا الحسن على ابن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصل

ذكر العماد هاهنا الأمير مجد الـدين سيف الدولة المبارك بـن كامل بن منقذ، المستنـاب بزبيد ووصفـه بأنه من الكفـاة والكرماء، والـدهاة ذوي الآراء، وهو فاضل من أهل بيت فضل، كتب العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يمناه كأس خلتها
مقبوسة في الليل من نبراسه
وكأن ما في كأسه من خدّه
وكأن ما في خدّه من كاسه
وكأن لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائه
إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقينا المدام وكلما
عاتبته ردّ الجواب براسه

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية، ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً، وأدق معنى أوّلها:

لك الخير عرج بي على ربعهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي

يقول فيها

مبارك عيس الوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد: ثم سير نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الروم مرة ثانية، ومقدّمهم الدوقس كلمان، وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلسا، وسير معه أسرى من الروم، وذلك في شعبان هذه السنة، ومما تضمنه كتاب البشارة « ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة(حمر مستنفرة. فرّت من قسورة)»،وقبل ذلك بشهرين سيرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد أوّلها:

أطاع دمعي وصبري في الغرام عصي
والقلب جرع من كأس الهوى غصصا
وإن صفو حياتي ما يكدّره
إلا اشتياقي إلى أحبابي الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا
وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها:

من ذا الذي سار سيري في ولائكم
غداة قال العدى لاسير عند عصا

قد نال عبدك محمود بها ظفراً
ما زال يرقبه من قبل مرتبصا
من خوف سطوته إن العدوّ إذا
أم الثغور على أعقابه نكصا

وكلف نور الدين في هذه السنة بافادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النسوة والأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله، ثم ذكر ما قدّمنا ذكره في أوّل الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة، وجلسنا نحن في ديوانه حافلين في إيوانه لبسط عدله وإحسانه، وتنفيذ أوامر سلطانه، فجاءني من أخبرني أن نور الدين نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسنة الضحى وصلاها، فقمت في الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيته في الدهليز خارجاً في أجر العيادة ناجحاً، ولنهج السعادة ناهجاً، فلما رآني توقف، ولقولي تشوّف، فقلت له: إن الموضع قد تشرف، أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعث، فلما رأى حاله تلبث، وقال: نعيده إلى العمارة، ونكسوه حلل النضارة، ثم حملت له وجوه سكر وشيئاً من ثياب وطيب وعنبر، وكتبت معها هذه الأبيات:

عند سليمان على قدره
هدية النملة مقبوله
ويصغر المملوك عن نملة
عندك والرحمة مأموله
رقي لمولانا وملكي له
وذمتي بالشكر مشغوله

وكيـــــف يقضي الحق ذو منـــــة
ضعيفـــة بـــالعجـــز معلـــولـــة
وإنما شيمـــــة مـــــولى الـــورى
طـــاهـــرة بـــالخير مجبـــولـــة

قـال: وكان رأى قبلـة المدرسـة غير مفصصة، وبـالترخيـم والتذهيـب والتهذيب غير مخصصة، فأنفذ لي لعمارتها فصوصـا مذهبة وذهباً، ثم حم مقدور حمامـه، وعاق القـدر عن اتمامـه، ودفعت إلى الموصـل، فرأيتـه في المنام وهـو يجاريني في الكلام، ويقول مـا يعود إلى المدرسة معنـاه، وقال: الصـلاة الصلاة، فعـرفـت أنه أشـار إلى المحـراب، وأنـه للآن على هيئـة الخراب، فكتبت إلى الفقيـه الذي كان عنـده الذهـب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه.

فصل

قال ابـن أبي طيّ: وفي هذه السنـة وصل رسول نـور الدين الموفـق بن القيسراني إلى الـديار المصريـة، واجتمع بـالسلطـان الملك النـاصر، وأنهى إليه رسـالة نور الـدين وطالبـه بحساب جميع مـا حصله وارتفع إليـه من المغل، فصعـب على السلطان، وأراد شـق العصا لو لا مـا ناب إليـه من السكينة والعقـل فأمـر بعمل الحسـاب، وعرضـه على ابن القيسراني وأراه جرائد الأجناد بمبـالغ إقطاعهم وتعيين جامكيـاتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنـده جميع ذلـك أرسل معه هـدية إلى نور الـدين على يـد الفقيه عيسى.

قال: وقفت على برنامج شرحهـا بخط الموفق بن القيسراني، وهي خمس ختمات، إحـداهـا ختمـة ثـلاثون جـزءاً مغشـاة بـأطلـس أزرق، مضببـة

بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب يانس، وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد بقفل ذهب، وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادي * ثلاثة أحجار بلخش: حجر وزنه إثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه إثنا عشرة مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف* ست قصبات زمرد قصبة وزنها ثلاثة عشرة مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث* وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل* وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس* مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً* خمسون قارورة دهن بلسان* عشرون قطعة بلور* أربعة عشر قطعة جزع، وذكر تفصيلها. إبريق يشم* طشت يشم* سقرق مينا مذهب* صحون صيني وزبادي وسكارج* أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار* كرتان وزن أحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى أحد وعشرون رطلاً* مائة ثوب أطلس* أربعة وعشرون بيقاراً مذهبة* أربعة وعشرون ثوبا حريري* أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض* حلة فلفلي مذهبة* حلة مرايش صفراء مذهبة، وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السلاح على اختلاف ضروبه، قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدّوا بأكثرها، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين، فأنفذ من ردّها.

قال: وحدّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره.

-٨١٠٨-

وقال العماد: لما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفق خالد أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطريف والتالد، وقال: هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبارهم، وما يضبط مثل هذا الاقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها، وقد تصرفوا في مواضع لايمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن ينقص ارتفاعها، فالموارد مشفوهة، والشدائد مكروهه، والمقاصد بردعها مجبوهه، والهمم بها مشدوهة، وشرع في جمع مال يسيره، وبحمله بجهد يبذله، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خلده، وجاء مطرف غناه أضعاف متلده.

-٨١٠٩-

فصل

في طلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتصعبة المتشـدّدة المتصلبة، وتـوازروا وتزاوروا فيما بينهـم خيفـة وخفيه، واعتقـدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيه، وعينـوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتـدبير وتبيتوا أمـرهـم بليل، وستروا عليـه بـذيـل، وكان عمارة اليمنـي الشاعـر عقيدهـم، ودعا للـدّعوة قـريبهم وبعيـدهم، وكـانوا قـد أودعوا سرّهم عند من أذاعـه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عـدّة من أنصار الدولـة الناصريـة في جملتهم، وعـرفوهـم بجهلتهم، وكـان الفقيه الـواعظ زيـن الـديـن علي بـن نجـا ينـاجيهـم فيما زيـن لهم مـن سـوء أعمالهم، ويـداخلهم في عـزم خـروجهم، مطلعـاً على أحـوالهم، وتقـاسموا الـدور والأملاك، وكـادت آمالهم تـدنو من الإدراك، فجـاء زين الـدين الـواعظ وأطلع صـلاح الدين على فسادهـم وما سوّلـوه من مراد مرادهـم وطلب مـالابـن كامـل الـداعـي من العقـار والـدور، وكـل مما له مـن الموجـود والمذخور، فبذل لـه السلطان كل ما طلبـه، وأمره بمخالطتهم ورغبـه، ثم أمر السلطان باحضار مقدّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يـوم السبت ثـاني شهر رمضـان جماعة منهـم بين القصرين منهـم عمارة، وأفنى بعـد ذلك من بقـي منهم ومـات بموتهم الخبر عنهم، وكـان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوي ، وكـان عارفا بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بابدائهـا، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الـدفائن مخزونة، قد دفن دافنها، وخـزن تحت الثرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الـوصول إليها والاطلاع عليها، وجمع من أمـوال هؤلاء ما يحمل إلى الشام للاستعـانة به على حماية ثغور الاسلام.

قال ابـن أبي طي: وفي هـذه السنة اجتمـع جماعة مـن دعاة المصريين

والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا اليه من الذل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، وأن يثبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، واعدّوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها وكاتبوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر، فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث في اليمين وكفر عنها، وصار إلى الملك الناصر، وعرفه بجلية ما جرى، قال: فأحضرهم واحداً واحداً وقررهم على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم، وقيل إن الذي أذاع سرّهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع مالابن الداعي من العقار والمال، فأعطاه جميع ذلك. وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي والعوريس، وكان قد تولى ديوان النظر، ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني، كان قال لهم: إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قلت:وبلغني أن عمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في الخريدة: وقعت اتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم

وقد تقدّم ذكرها وأما البيت فهو هذا

قـد كـان أوّل هـذا الـدين مـن رجـل
سعـى إلى أن دعـوه سيـد الأمـم

قـال العماد: ويجوز أن يكون هـذا البيت معمـولاً عليه، فـأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله . (١٢٩)

قـال: ولعمارة في مصلوب بمصر، يقـال له طـرخـان، وكان خـرج على الصالـح بن رزيـك، فظفر بـه الصالـح وصلبه، وكـان يستحسن أبيـات عمارة فيه وهي:

أراد علـو مـرتبـة وقـدر
فـأصبـح فـوق جـذع وهـو عـال

ومـدّ على صليـب الجذع منـه
يمين لا تطـول على الشمال

ونكـس رأسـه لعتـاب قلـب
دعـاه إلى الغـوايـة والضـلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وقـال في البرق: ووصل مـن صـلاح الـدين يـوم وفـاة نـور الديـن إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية،وهو بخط ابن قريش يعني المرتضى.

وقال ابـن أبي طي: وقـد كتب القاضي الفـاضل إلى نور الـدين كتـاباً شرح فيه قضية المصلبين، فقـال بعد مطلع الكتاب: « قصر هـذه الخدمة على متجدّد سار للاسلام وأهله، وبشـارة مؤذنة بظهور وعد الله في اظهاره على الدين كلـه، بعد أن كانت لها مقدّمات عظيمـة، إلا أنها اسفرت عن النجح، وأوائل كـالليلة البهيمة، إلا أنها انفرجـت عن الصبح، فـالاسلام ببركاتـه البادية، وفتكاتـه الماضية، قد عاد مستـوطناً، بعد أن كان غـريباً،

وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلا عجيباً، إلا أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوّله، وأظهر على سرها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر، لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء، وإن تعدّت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام، وكان لايحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكله، وخطراته في التحرز منهم مستعمله، لاتخلو سنة تمر، ولا شهر يكر، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطره إلى الفرنج، خذلهم الله التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الاقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لايقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير جرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردّد وكتب إلى الفرنج تتجدّد »، ثم قال: « والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لايبسطوا عقابا مؤلما، ولا يعذبوا عذابا محكما، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلى سبيلهم، ولا يزيدهم العفو إلا ضرارة، ولا الرقة عليهم إلاّ قساوة، وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتله لارسول مجامله، وحامل بلية لاحامل هدية، فأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه فتوصل مرة بالخروج ليلاً ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها

نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسده، وطائفة من هذا الجنس متمرده، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد».

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد، وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له، وأما بنورزيك، وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدّم والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى إيله ثارت حاشية القصر، وكافة الجند، وطائفة السودان وجموع الأرمن، وعامة الاسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجي إن العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلاّ بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده، وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدّم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدّة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحده، والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمه، ولا يجب به قعود عن نصره، واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيله، أو يبيت له مكيدة وحيلة، (والله من ورائهم محيط) (١٣٠) وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن، هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبع لأتباعهم، وشرّدت طائفة الاسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر، وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد، فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم، إلى أن ينكشف وجه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه المستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوافيه بقيت مادة لا تحسم الأطماع عنها، فإنه قبلة للضلال منصوبة، وبيعه للبدع محجوجة ــ قال المؤلف: لعلها محجوبة ـ ومما يطرف به المولى أن ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه أطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره، محتقراً شخصه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وإن أرباب المعاش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن، ووجدت في منزله بالاسكندرية، عند القبض له، والهجوم عليه

كتبا مجرّدة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود، وكان يدعي النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ونشأ على الضلاّلة كبيراً، وبالجملة فقد كفي الاسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قصيدة عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله ونقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى جناية
وبايع فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته
تجد منه عوداً في النفاق صليبا
صليب سيلقى غداما كان يسعى لأجله
ويسقى صديدا في لظى وصليبا

قلت: الصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أي بسقي ما يسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وكان عمارة مستشعراً من الغُزّ، وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها، واختل أمره بعدها، فلم تصف القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي التحرز منه وابعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلف ذلك وصرّح وعرض فيه بما في ضميره، وقد قال في كتاب الوزراء المصرية: ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم، وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب:

وكــان لي في ملــوك النيــل قبلكــم
مكــانــة عــرفتهــا العــرب والعجــم
وكــان بينــي وبين القــوم ملحمــة
في حــربها ألســن الاديــان تختصــم
ومــا تــزال إلى داري عــوار فهــم
يسعــى إليّ بها الإنعــام والكــرم
تــركــت قصــدك لما قيــل إنــك لا
تجود إلا على مــن مســه العــدم
ولســت بــالــرجــل المجهــول مــوضعــه
ولا لنــزر مــن الاحســان أغتنــم
ولا إلى صــدقــات المال أطلبهــا
ولا عمــى نــال أعضــائي ولا صمــم
وإنما أنــا ضيــف للملــوك ولي
دون الضيــوف لســان نــاطــق وفــم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله:
قــررت لي أبنــاء رزيــك رزقــا
كــان في عصرهــم مستنــا مهنــا
وأتــت بعــدهــم ملــوك فسنــوا
فيّ مــا كــان صــالــح القــوم سنــا
ورعــوني إمــا اقتــداء بماض
أو لمعنــى فكلهــم بي يعنــى

وله فيه من أخرى
فقــد صــارت الــدنيــا إليكــم بــأسرهــا
فــلا تشبعــوا منهــا ونحــن جيــاع
إذا لم تــريــدونــا فكــونــوا كمــن مضــى
ففــي النــاس أخبــار لهم وسماع

وليس على مرّ الفطام إقامة
فهل في ضروع المكرمات رضاع

وقال في قصيدة مدح بها تقي الدين:

هل تأذنون لمن أراد عتابكم
أم ليس في إعتابكم من مطمع
ضيعتم من حق ضيفكم الذي
مازال قبل اليوم غير مضيع
وتغافل السلطان عني حين لم
أكشف قناع مذلة وتضرّع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده
فسمحت لي بشفاعة لم تنفع
وإذا نطاق الرزق ضاق مجاله
أمسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضاً:

تيممت مصراً أطلب الجاه والغنى
فنلتهما في ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم
فأحمد مرتادي وأخصب مربعي
وفزت بألف من عطية فائز
مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرفتني من يد عاضدية
سرت بين يقظى من عيون وهجع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى
بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
فخبرته مني بأكرم مودع

وليست أيادي شاور بذميمة
ولا عهدها عندي بعهد مضيع
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتها
هشيماً رعته النائبات وما رعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة
وإن خالفوني باعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه
من الحاكم المصغي إلي فأدّعي
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أقول لصدري كلما ضاق وسع
وكم في ضيوف الباب ممن لسانه
إذا قطعوه لا يقوم بأصبعي
فيا راعي الاسلام كيف تركتنا
فريقي ضياع من عرايا وجوّع
دعوناك من قرب وبعد فهب لنا
جوابك فالباري يجيب إذا دعي

وقال أيضا:
أسفي على زمن الإمام العاضد
أسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من
أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حجرات قصرك إذ خلت
يابن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذي
كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم
فكبا وقصر عن صلاح الفاسد

فعســـى الليـــالي أن تـــردّ إليكـــم
ماعـــوّدتكـــم مـــن جميـــل عـــوائد

وقال أيضا:

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف
عليّ ولا عبـــد الـــرحيـــم رحيـــم
عفـــا الله عـــن آرائه كـــل فترة
كـــلام العـــدى فيهـــا عليّ كلـــوم
وســـامحه في قطـــع رزق بفضلـــه
وصلـــت إليـــه والـــزمـــان ذميـــم
ألا هـــل لـــه عطـــف عليّ فـــإنـــني
فقير إلى مـــا اعتـــدت منـــه عـــديـــم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله، وبلغني أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق فقال:

عبـــد الـــرحيـــم قـــد احتجـــب
إن الخلاص هـــو العجـــب

قال: وهذه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج، والخوض في فساد الدولة، بل الملة، وتوضح عذر السلطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك، وهي:

رميـــت يـــا دهـــر كـــف المجـــد بـــالشلـــل
وجيـــده بعـــد حلي الحســـن بـــالعطـــل
سعيـــت في منهـــج الـــرأي العثـــور فمـــن
قـــدرت مـــن عثـــرات البغـــي فـــاستقـــل
جـــدعـــت مـــارنـــك الأقنـــى فـــأنفـــك لا
ينفـــك مـــا بين نقـــص الشين والخجـــل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلا أما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن
كما لها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حيث سما
رأس الحصان تهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش تكرمة
وخلة حرست من عارض الخلل
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زر ساحة القصرين وابك معي
عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما والله ما التحمت
فيكم قروحي ولا جرحي بمندمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة
في نسل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدّكم
محمد وأبيكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد
من الأعادي ووجه الودّ لم يمل

أسبلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأوّل العام والعيدان كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز في عيد الغدير بما
تهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية
مثل العرائس في حلى وفي حلل
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ
ـأطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضيـ
ـف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم
لمن تصدّر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها
منكم واضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد في الخريدة: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلة العلياء، والمرتبة الشماء، والمنزلة التي في السماء، حتى انكدرت نجومهم، وتغيرت رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعضد عاضدهم، وأخليت منهم مصرهم. وأجلي عنهم قصرهم، فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشدّ منهم، فأمال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ما تخيلوه من المقاصد وسوّلوه من المكايد. فأثمرت بجثثهم الجذوع. وأقفرت من جسومهم الربوع. وأحكمت في لحومهم النسوع. وهذا أوّل من ضمه حبل الصلب. وأمه فاقره الصلب. وهذا صنع الله فيمن ألحد وكفر النعمة وجحد. وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة، سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره. وقد ذكروه عنده بالفضل والأدب. ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء. وأنشدهما للملك الناصر وذكر أنه كان ينكرهما:

يا رافيا خرق كل ثوب
ويا رشا حبه اعتقادي
عسى بكف الوصال ترفو
ما مزق الهجر من فؤادي (١٣١)

فصل

في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردت شعر عمارة ابن أبي الحسن اليمني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، ونقلت إلى هذا الكتاب ــ يعني كتاب البرق الشامي ــ لمعاً من ذلك فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو

محمد بن مصال:

لو أن قلبي يوم كاظمة معي
ملكته وكظمت غيظ الادمع

قال العماد: إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم:

قلب كفاك من الصبابة أنه
لبى نداء الظاعنين ومادعي
ومن الظنون الفاسدات توهمي
بعد اليقين بقاءه في أضلعي
ما القلب أوّل غادر فألومه
هي شيمة الأيام مذ خلقت معي
ملك إذا قابلت بشر جبينه
فارقته والبشر فوق جبيني
وإذا لثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوك يميني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقد يقول:

لي في هوى الرشاء العذري أعذار
لم يبق لي مذ أقر الدمع انكار
لي في القدود وفي لثم الخدود وفي
ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق أن رضيت به
أولا فدعني وما أهوى واختار
لمني جزافا وسامحني مصارفة
فالناس في درجات الحب أطوار
وخل عذلي ففي داري ودائرتي
من المهادرة قلبي لها دار

قلت:ويروي: «وخل غيري ففي أسري ودائرتي» والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقي الدين، والنونية في مدح نجم الدين أيوب، والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب، وكان عمارة هذا عربيا فقيها أديباً، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن.وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد فأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلما ببيت شعر، فحلفت له على ذلك ولطف الله بي فلم أهج أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح — يعني ابن رزيك — ببيتي شعر، فاقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت متأولا قول الله عز وجل: (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (١٣٢) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)(١٣٣) قال: ولم يكن شيء غير هذا

وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه، ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة، قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم ابن فليتة، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم، فألزمني السفارة عنه، والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذ الفائزبن الظافر، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهمم
حمدا يقوم بما أولت من النعم

لا أجحـــد الحق عنـــدي للـــركـــاب يـــد
تمنـــت اللجـــم فيهـــا رتبـــة الخطـــم

قـــربـــن بعـــد مـــزار العـــز مـــن نظـــري
حتـــى رأيـــت إمـــام العصر مـــن أمـــم

ورحـــن مـــن كعبـــة البطحـــاء والحرم
وفـــداً إلى كعبـــة المعـــروف والكـــرم

فهـــل درى البيـــت أني بعـــد زورتـــه
مـــا سرت مـــن حـــرم إلا إلى حـــرم

حيـــث الخلافـــة مضروب سرادقهـــا
بين النقيضين مـــن عفـــو ومـــن نقـــم

ولـــلإمـــامـــة أنـــوار مقـــدّســـة
تجلـــو البغيضين مـــن ظلـــم ومـــن ظلـــم

وللنبـــوّة آيـــات تنـــص لنـــا
على الخفيين مـــن حكـــم ومـــن حكـــم

وللمكـــارم أعـــلام تعلمنـــا
مـــدح الجزيلين مـــن بـــأس ومـــن كـــرم

وللعلى ألســـن تثنـــي محامـــدهـــا
على الحميـــديـــن مـــن فعـــل ومـــن شيـــم

ورايـــة الشرف البـــذاخ تـــرفعهـــا
يـــد الـــرفيعين مـــن مجد ومـــن همم

أقسمـــت بـــالفـــائز المعصـــوم معتقـــداً
فـــوز النجـــاة وأجـــر البر في القســـم

لقـــد حمى الـــديـــن والـــدنيـــا وأهلهما
وزيـــره الصـــالـــح الفـــراج للغمـــم

اللابـــس الفخـــر لم تنســـج غـــلائلـــه
إلا يـــد الصنعتين السيـــف والقلـــم

وجـــوده أوجـــد الأيـــام مـــا اقترحـــت
وجـــوده أعـــدم الشـــاكين للعـــدم

قـــد ملكتـــه العـــوالي رق مملكـــة
تعير أنـــف الثـــريـــا غـــرة الشمـــم
أرى مقـــامـــا عظيـــم الشـــان أوهمنـــي
في يقظتـــي أنها مـــن جملـــة الحلـــم
يـــوم مـــن العمـــر لم يخطـــر على أمـــل
ولا تـــرقبـــت إليـــه رغبـــة الهمـــم
ليـــت الكـــواكـــب تـــدنـــو لي فـــأنظمهـــا
عقـــود مـــدح فما أرضـــى لكـــم كلمـــي
تـــرى الـــوزارة فيـــه وهـــي بـــاذلـــة
عنـــد الخلافـــة نصحـــا غير متهـــم
عـــواطـــف أعلمتنـــا أن بينهما
قـــرابـــة مـــن جميـــل الـــرأي لا الـــرحـــم
خليفـــة ووزيـــر مـــدّ عـــدلهما
ظـــلاً على مفـــرق الاســـلام والأمـــم
زيـــادة النيـــل نقـــص عنـــد فيضهما
فما عســـى يتعـــاطـــى منـــة الـــديـــم

قـال: وعهـدي بـالصـالـح وهـو يستعيـدهـا في حـال النشيـد مـرارا والاستـاذون والأمراء والكبراء يـذهبـون في الاستحسان كـل مـذهب، ثـم أفيضت عليّ خلـع من ثياب الخلافة مـذهبة، ودفع إليّ الصـالـح خمسمائة دينـار، وإذا بعض الاستـاذين قـد خرج لي مـن عند السيـدة بنت الامـام الحافـظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معـي إلى منزلي، واطلقـت لي مـن دار الضيافـة رسوم لم تطلـق لأحـد قبلي، وتهادتني أمـراء الدولـة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجـالسة، ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وانثالـت عليّ صلاته، وغمرني بره، ووجدت بحضرتـه من أعيان أهل الأدب الشيـخ الجليس أبـا المعالي ابن الجبـاب، والموفق أبـا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشـاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وغيرهـم، وما من هذه الحلبة أحد الا

ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الانسانية بأوفر نصيب، ومازلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم وقلت:

ليالِيّ بالفسطاط من شاطىء مصر
سقى عهدك الماضي عهاد من القطر
ليال هي العمر السعيد وكل ما
مضى في سواها لا يعدّ من العمر
أفادتني الأقدار فيها مواليا
صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على أن لا ترد إرادتي
ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة:

ولو لم يكن أدري بها جهل الورى
من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان منا قاب قوس فبيننا
فراسخ من إجلاله ومراحل

قال: وأنشدت الصالح، وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها:

دعوا كل برق شمتم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحي فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها
فكل امرء يرجى على قدر قدره

قال: ولما جلس شاور في دار الذهب، قام الشعراء والخطباء، ولفيف الناس إلاّ الأقل ينالون من بني رزيك، وضرغام نائب الباب، ويحيى بن

الخياط الاسفهسلار فأنشدته:

صحت بدولتك الأيام من سقم
وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

ومنها:

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت
والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوما وعادلهم
في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مأثمة
بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان مجتمعا في ذلك الرخم
ولم يكونوا عدوّا ذل جانبه
وإنما غرقوا في سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم
ولو شكوت لياليهم محافظة
لعهدها لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوما بذمهم
لم يرض فضلك إلاّ أن يسدّ فمي
والله يأمر بالاحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك.

قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندي في قوله:« الحمد للعيس» وإن كانت القصيدة فائقة، ثغرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا:« الحمد

- ٨١٢٩ -

لله » ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل، فله الحمد، وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدّسة، وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم.

- ٨١٣٠ -

فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الأمر، وغدونا أياما، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها:

عيــــدان فطـــــر وطهـــــر
فتــــح قـــــريـــــب ونصر

كــــلاهما لــــك فيــــه
حقـــا هنـــــاء وأجـــــر

وفيهما بـــــالتهـــــاني
رســـم لنـــامستمـــــر

طهـــارة طـــاب منهـــا
أصـــل وفـــرع وذكـــر

نجـــل على الطهـــر نـــام
زكـــا لـــه منـــك نجـــر

محمـــودا لملـــك العـــاد
ل الكـــريـــم الأغـــر

وبـــابنـــه الملـــك الصـــا
لـــح العيـــون تقـــر

مـــولى بـــه اشتـــدّ للديـــ
ـــن والشريعـــة ازر

نـــور تجلى عيـــانـــا
مـــادونـــه اليـــوم ستر

أضحـــت مســـاعيـــك غـــرا
كما أيـــاديـــك غـــزر

وكـــــل قصـــــــدك رشـــــد
وكـــــل فعلـــــــك بـــــر

وإن حبـــــــك ديـــــــن
وإن بغضـــــــك كفـــــر

لنـــــا بيمنـــــاك يمـــــن
كما بيسراك يسر

وللمـــــوالين نفـــــع
وللمعـــــاديـــــن ضر

وللسماء سحـــــاب
وسحـــــب كفيـــــك عشر

نـــاديـــك بـــالـــرفـــد رحـــب
نـــداك للـــوفـــد بحـــر

للبحـــر مـــدّ وجـــزر
ومـــا لجودك جـــزر

عـــدل عميـــم وجـــود
غمـــــر ويسر وبشر

وفي العطيـــــة حلـــو
وفي الحميـــــة مـــر

قـــد استـــوى منـــك تقـــوى
الإلـــــه سر وجهـــر

تقـــاك والملـــك عنـــد الـــ
ـــقياس عقـــد ونحـــر

يـــا أعظـــم النـــاس قـــدراً
وهـــل لغيرك قـــدر

وســـاهـــراً حين نـــامـــوا
وقـــائماً حين قـــروا

مـــا اعتـــدت إلا وفـــاء
وعـــادة القـــوم غـــدر

-٨١٣٢-

وفعلك الدهر غزو
للمشركين وقهر
فعل غيرك ظلم
للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر
إلى ابتسامك ثغر
روم به وفرنج
في سفعهم لك وتر
حرب عوان وفتح
على مرادك بكر
بنو الاصافر من خشـ
ـية انتقامك صفر
لم يبق للكفر ظفر
لا كان للكفر ظفر
وما دجى ليل خطب
إلاّ وعزمك فجر
أصبحت بالغزو صبا
وعنه مالك صبر
لكسر كل يتيم
إسعاف برك جبر
في كل قلب حسود
من حر بأسك جمر
تمل تطهير ملك
له الملوك تخر
يزهى سرير وتاج
به ودست وصدر

وكيـــــــف يعمـــــــــل للطـــــــا
هــــــــر المطهـــــــــر طهــــــــر
هــــــــذا الطهـــــــور ظهـــــــور
على الــــــــزمــــــان وأمــــــر
وذا الختــــــــــان ختـــــــام
بمسكــــــــه طــــــــاب نشر
رزقـــــت عمــــــراً طـــــويـــــلا
مــــــاطــــال للــــدهــــر عمــــر

قال: وفي يـوم العيد يـوم الأحد ركب نـور الديـن على الرسـم المعتاد، محفـوفاً مـن الله بالإسعـاد، مكنوفـاً من السماء والأرض بـالأجناد، والقـدر يقـول له: هـذا آخـر الاعيـاد، ووقف في الميـدان الأخضر الشمالي لطعـن الحلق، ورمي القبق، وكان مسجـد صلاته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بـوضـع المنبر، وخطب لـه القـاضي شمـس الـديـن ابن الفـراش قـاضي العسكـر بعـد أن صلى به وذكـر، وعـاد إلى القلعـة طـالع البهجـة بهيـج الطلعة، وأنهب العطـايا والإنعـام على رسم الأتراك وأكـابر الامـلاك، ثم حضرنـا على خـوانـه الخاص، ولـه عقـد كمال مصـون مـن الانتقـاض والانتقاص، ومـا أوضح بشره، وأضوع نشره، وأضحـك سنه، وأبـرك يمنه، وفي يوم الاثنين ثاني العيـد بكر وركب، وجمل الموكب، وكـان الفلك بنيره جار، والطـود الثابـت بمرور السحـاب في وقار، وكـأنه القمـر في هالتـه، والقدر في جـلالته، والبدر في دائرته سـائرين بين سيارته، ودخـل الميدان والعظماء يسايـرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهـم همام الدين مـودود وهو في الأكابـر معدود، وكان قـديما في أوّل دولته والي حلـب، وقد جرّب الـدهر بحنكته ولأشطره حلب، فقال لنور الديـن في كلامه عظة لمن يغترّ بأيامه: هل نكـون هاهنا في مثـل هذا اليوم في العـام القابـل؟ فقال نور الـدين: قل: هـل نكون بعد شهر فـانّ السنة بعيده فجرى على منطقهما مـا جرى به القضاء السـابق، فإنّ نور الدين لم يصـل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى

العام، ثم شرع نور الـدين في اللعب بالكرة مع خـواصه البرره، فاعترضه في حـاله أمير آخـر اسمه يـرنقـش، وقال لـه: بـاش فأحـدث له الغيـظ والاستيحاش، واغتاظ على خـلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليـم، فزجره وزبـره، ونهاه ونهره، وساق ودخـل القلعـة ونـزل واحتجب واعتـزل فبقـي اسبوعـا في منزلـه مشغولا بنـازله، مغلـوبا عـن عاجلـه، بحديـث أجله، والنـاس من الختـان لاهـون بأوطـارهم في الاوطـان، فهـذا يروح بجـوده، وذلك يجود بروحه، فما انتهت تلك الافـراح إلاّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح.

قال: واتصل مـرض نور الدين، وأشـار عليه الأطباء بالفصـد فامتنع، وكان مهيبـا فما روجع وانتقل حـادي عشر شوال يـوم الأربعاء من مـربع الفنـاء إلى مـرتـع البقـاء، ولقــد كـان مـن أوليــاء الله المؤمنين، وعبـاده الصـالحين، وصار إلى جنـات عدن أعـدت للمتقين وكانـت له صفـة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعـة من الشمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جـاءت سنة الزلزلـة بنى بازاء تلك الصفـة بيتاً من الأخشاب مأمـون الاضطراب، فهو يبيت فيه، ويصبح ويخلـو بعبادته ولا يبرح، فدفن في ذلك البيت الـذي اتخذه حمى من الحمام، وأذن بناؤه لبانيه بالإهدام، قال العماد وقلت في ذلك:

عجبــت مــن الموت كيــف أتــى
إلى ملــك في سجــايــا ملــك
كيــف ثــوى الفلــك المستــديــر
في الأرض والأرض وســط الفلــك

وله فيه رحمهما الله تعالى

يــا ملكــا ايــامــه لم تــزل
لفضلــه فــاضلــة فــاخــرة
غــاضــت بحــار الجود مــذ غيبــت
أنملــك الفــائضــة الــزاخــره

ملكت دنياك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخره

قال ابن شدّاد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعترته عجز الأطباء عن علاجها، ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يردّه إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله ورضي عنه.

قال ابن الاثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لايرى إلاّ الجدّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه فأتاه أمر الله الذي لا يرد.

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه واتمها رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي وهو من حذاق الأطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت

الخوانيق منه، وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه، ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر احضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض إلى هذا الحدّ فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه.

قال ابن الاثير: وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلاّ في حنكه، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جدّاً فملك الموصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام والديار المصرية، واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدّمة مفرّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمعتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث،ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثا، كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره، يحب الصالحين، ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بأناثهم ورزقهم، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله باسقاط المنزلة

والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر لـه جميع ما يقصده من الأعمال، وسهـل على يديـه فتح الحصـون والقلاع، ومكـن له في البلـدان والبقاع.

ثم قال بعـد كلام كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيره، ومـدحه جماعة مـن الشعـراء فـأكثـروا، ولم يبلغـوا وصـف آلائه بـل قصروا، وهـو قليـل الابتهاج بـالشعر زيـادة في تواضعه لعلـوّ القدر، ومـولده على مـا ذكر لي كاتبـه أبو اليسر شاكـر بن عبد الله وقت طلـوع الشمس من يـوم الأحد سابع عشر شوّال سنة إحـدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنـة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشـق، ثم نقل إلى تـربة تجاور مـدرسته التـي بنـاها لأصحـاب أبي حنيفة رضي الله عنـه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله.

قلت وفي هذه المدرسة يقول العرقلة:

ومـدرسـة سيـدرس كـل شيء ... وتبقـى في حمى علـم ونسـك
تضـوّع ذكـرهـا شرقـا وغـربـا ... بنـور الـديـن محمـود بـن زنكـي
يقـول وقـولـه حـق وصـدق ... بغير كنـايـة وبغير شـك
دمشـق في المدائن بيـت ملكـي ... وهـذي في المدارس بيـت ملكـي (١٣٤)

ولما اشتهر مـن قلة ابتهاجـه بالمدح لما علم مـن تزايد الشعـراء، وهي طريقة عمر بـن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بـن محمد الوهراني في مقامـة له وقد سئـل في بغداد عن نور الـدين: «هو سهـم للدولة سـديد وركـن للخلافـة شديـد، وأمير زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعده الأفـلاك، وتعضده الجيوش والأمـلاك، غير أنه عرف بالمرعى الوبيـل لابن السبيل،

وبالمحل الجديب للشاعر الاديب فما يرزى ولا يعزى، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى (١٣٥) وإياه عنى أسامة بن منقد بقوله:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي وفيها الجوع والعطش ١٣٦

قلت: رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز وهو من سادات التابعين بالشأم قال يعقوب بن سفيان الحافظ: حدّثنا ضمرة عن الشيباني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه فذكر ابن محيريز في مجلسه، فقال رجل: كان بخيلا، فغضب ابن الديلمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون (١٣٧)

وأما شعر ابن منقد فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله:

في كل عام للبرية ليلة
فيها تشب النار بالايقاد

لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد

أبداً يصرّفها نداه وبأسه
فالعام جمع ليلة الميلاد

ملك له في كل جيد منة
أبهى من الأطواق في الاجياد

أعلى الملوك يداً وأمنعهم حمى
وأمدّهم كفاً بيذل تلاد

يعطي الجزيل من النوال تبرعاً
من غير مسألة ولا ميعاد

- ٨١٣٩ -

لازال في سعـــــــدوملـــــــكدائم
مـــا دامــت الـــدنيــا بغير نفـــاد (١٣٨)

وقد تقدّم من شعر ابن منير، وابن القيسراني، والعماد الكاتب وغيرهم من مـدح نور الديـن بالكرم والجود مـا قليل منه يـرد قول الوهـراني وابن منقـذ، على أن ابن منقـذ قـد رددنا شعـره بشعـره كما تراه وإنما الشعـراء وأكثر النـاس كما قال الله تعالى في وصف قـوم: (فإن أعطوا منهـا رضوا وإن لم يعطوا منـه إذاهم يسخطـون)(١٣٩) وما كـل وقت ينفـق العطاء، ويفعل الله ما يشاء.

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي نـور الدين جلس ابنه الملك الصـالـح اسماعيل في الملـك، وحلـف لـه ولم يبلـغ الحلم، وحلـف لـه الأمـراء والمقـدّمـون بدمشـق، وأقام بها وأطـاعه النـاس في سائر بـلاد الشام وصـلاح الديـن بمصر، وخطـب له بها وضرب السكـة بـاسمه فيهـا، وتـولى تربيتـه الأمير شمس الدين محمد بن المقدّم.

قـال العماد: وأخـرجـوا يـوم وفـاة نور الـديـن ولـده الملـك الصـالـح اسماعيـل، وقـد أبـدى الحزن والعـويـل. رهـو مجزوز الـذوائب، مشقـوق الجيب، حـاسر حاف، مما فجأه وفجعـه من الريب، وأجسـوه في الإيوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش، فاستوحى كـل قلب حـزنه واستـوحـش، فوقـف النـاس يضطرمـون، ويضطربـون، ويتلهفون، ويلتهبـون، ولما كفن بحلـة الكرامـه، ودفن في روضـة بابها إلى باب رضوان من دار المقامه، وقضوا الجزع، وقـوّضوا الفزع، وغيبوا الدمعه، واحضروا الربعة، حضر القـاضي كمال الدين، وشمس الديـن بن المقدّم،

وجمال الدولـة ريحان، وهو أكبر الخدم، والعـدل أبو صـالح بـن العجمي أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيـت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعـزائمهم متعاقده، وأن ابن المقدّم مقـدّم العسكر وإليه المرجع والمصدر.

قـال : وأنشأت في ذلـك اليوم كتـابا عـن الملك الصـالح إلى صـلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته «اسماعيل بن محمود».

وفيـه: « أطال الله بقـاء سيدنـا الملك النـاصر، وعظم أجـرنا وأجـره في والدنـا الملك العادل، نـدب الشام، بل الاسلام، حـافظ ثغوره، ومـلاحظ أمـوره، ومقدام الجهـاد، مقتني فضيلتـه، ومـؤدّي فريضتـه، ومحيي سنتـه، وأورثنا بالاستحقـاق ملكه وسريره على أنه يعز أن يرى الـزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغـل السر ويقسم الفكر إلاّ أمر الفرنج خـذلهم الله، وما كان اعتماد مـولانا الملـك العـادل عليه وسكـونـه إليـه إلاّ لمثل هـذا الحادث الجلل، والصرف الكـارث المذهل، فقد ادّخـره لكفايات النـوائب، وأعدّه لحسـم أدواء المعضـلات اللـوازب، وأملـه ليومـه ولغـده، ورجـاه لنفسـه ولولده، ومكنـه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله إلاّ صـورة، والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سمـوه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل النـاصر من ناصر، وقـد عرفناه المقترح ليروض بـرأيه من الأمـر ما جمح، والأهـم شغل الكفـار عـن هذه الـديـار بما كان عـازمـا عليه مـن قصدهم، والنكـاية فيهم على البدار، ويجري على العـادة الحسنى في أحياء ذكر الوالد بتجديد ذكرنا راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا».

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الـدين، فأرسل كتابا بالمثال الفاضلي فيـه: « ورد خبر من جانب العـدوّ اللعين عن المولى نور الـدين أعاذنا الله فيه مـن سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجـوه، فاشتدّ به الأمر، وضاق به الصـدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيـه التثبت، وأعوز

الصبر، فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصه الحكم الذي عم، فللحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلاّ لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلاّ لتؤدي حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أتيت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه، وسيف على من عاداه، وإن اسفر الخبر عن معافاه، فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب».

قال العماد: وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيا لابن نور الدين وفي آخره: « وأما العدوّ خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام، عالما أن الجماعة رحمه ، والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه، ويجعل للاسلام واقية باقية عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده،

وييسر منال كل أمر صالح، وتقريب بعيده إن شاء الله تعالى.

ومن كتاب آخر: « الخادم مستمر على بـدأته من الاستشراف لأوامرها، والتعـرض لمراسمهـا، والـرفـع لكلمتها، والإيـالـة لعسكـرهـا، والتحقـق بخـدمتها في بـواطـن الأحوال وظـواهـرها، والترقـب لأن يـؤمر فيمتثـل، ويكلف فيحتمـل، وأن يرمـى به في نحـر العدوّ فيتسـدّد بجهده، ويـوفي أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده».

قـال العماد: ولما توفي نـور الـدين اختـل أمـري، واعتل سري، وعلـت حسادي، وبلـغ مرادهـم أضدادي، وكـان الملك الصـالح صغيراً فصـار العدل ابن العجمـي له وزيراً، وتصرّف المتحالفون في الخزانـة والدولة كما أرادوا، وولـوا وصرّفـوا ونقصـوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتـابـة محروم الدعوة من الإجابة، ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة منها:

لفقـــــد الملــــك العـــــدل يبكـــي الملــــك والعـــــدل
وقــــد أظلمـــــت الآفـــــاق لا شمـــــس ولا ظـــــل
ولما غـــــاب نـــــور الديــــن عنــــا أظلـــم الحفـــل
وزال الخصـــــب والخيـــــر وزاد الشر والمحـــــل
ومـــــات البـــــأس والجود وعـــاش اليـــأس والبخـــل
وعـــــز النقـــــص لما هـــــان أهـــل الفضـــل والفضـــل
وهـــــل ينفـــــق ذو العلــــم إذا مـــا نفـــق الجهـــل
ومـــا كـــان لنـــور الديــــن لــــولا نجلــــه مثـــل

فصل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان اليأس، وذلك أن شمس الدين بن المقدّم خرج وراسل الفرنج، وخوّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم، وتكلموا في الهدنة، وقطع مواد الحرب والفتنه، وحصلوا بقطيعة استعجلوها، وعدّة من أساراهم استطلقوها، وتمت المصالحة، وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام، ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل، « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف، وتجرّد، وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدّى وتمرّد»، وفي آخره: « وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح، لولا أن الثريا تعرّضت تعرّض أثناء الوشاح، وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلغه الله فيه أمله، وقبل عمله بالغا أسنى المراد وأفضله».

وقال ابن الاثير : ولما توفي نور الدين قال الأمراء منهم شمس الدين ابن المقدّم، وحسام الدين الحسين بن عيسى الجرّاحي وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوّابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح، فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا، قال: فلم يمض

غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية، وعليها اسمه ويعرّفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين، وملك الديار الجزرية، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته، ويمنعه، وكتب إلى الأمراء يقول:« إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمته سواي وأراكم قد تفرّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه، حتى أخذت بلاده».

فأقام الصالح بدمشق، ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النورية، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه، وكان هو وأخوته بحلب وأمرها إليهم وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم:« إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب، ولا نقوى على منعه». فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب.

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض، قد أرسل إلى البلاد الشرقية

كالموصل وغيرها استدعى العساكر منها فسار سيف الدين، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدّة أيام، ثم أخذها وملك الرها والرقة وسروج، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر، فقال له فخر الدين عبد المسيح ـــ وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين، وقصد سيف الدين ظناً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أوّلاً ـــ فلم يجن ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء: ليس بالشام من يمنعك، فاعبر الفرات وأملك البلاد، فأشار أمير آخر معه، وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة أن تعود، فرجع إلى الموصل.

فصل

قال ابن الاثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراً له وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان، فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدّمته على مرحلة، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك، فنهب بركه ودوابه، وسار إلى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح، فسار إلى دمشق فأخرج إليه ابن المقدّم عسكراً لينهبه، فعاد منهزما إلى حلب فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه، وجهزه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش، فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها فلما وصلها

وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب.

قال ابن الاثير: ولو لا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق، فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذ من يده، وبقي الملك الصالح بحلب، وسعد الدين بين يديه يدبر أمره، وتمكن منه تمكناً عظيماً يقارب الحجر عليه.

قال العماد: كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه واستأذن في الوصول إلى الشام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، وخرج وسار مرحلتين، وسمع النعي، فأغذّ السير والسعي، ونجا بماله وبحاله، وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله، وكانت عنده بوفاة عمه بشاره، وظهرت على صفحاته منها أماره، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مذكيا، وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، واسقاط المكوس، واعدام اقساط البوس، فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً ليلاً ونهاراً، وزال العرف وعاد النكر، وأنشد قول ابن هاني: « ولا تسقني سراً فقد أمكن الجهر».

وقيل أخذ المنادي على يده دنا وعليه قدح وزمر، وزعم أنه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغني ويشرب، وعادت الضرائب، وضربت العوائد، فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد أن جرى ما جرى،

وتمثل:« عنده الصباح يحمد القوم السرى»، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين عليّ بن الداية وأخوته أخوه مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين وكان مجد الدين أبو بكر أخو رضاع نور الدين، وقد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصده من طريفه وتالده، وحكمه في الملك، ونظمه في السلك، فلا يحل ولا يعقد إلاّ برأيه، وكانت حصونه محصنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحا ومساء إذا طلب، وشيزر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوّابه فيها، وهو يصونها ويحميها، ولما توفي جرت أخوته في القرب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدولة وأعضادها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأمجادها وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكوا في أنهم يكفلون ولده ويربونه ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه، فأقام شمس الدين علي وهو أكبرهم وأوجههم، ودخل

قلعة حلب وبها والياشاذبخت، وسكنها وأسر مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصالح، وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيداً من الدهاء، فاستقر الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه، ويقدموا به عليه، وهو يتسلم ممالكه، ويكون أتابكه، ووصل كمشتكين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبروه من المرام، وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمي واسماعيل الخازن، فبغتوا أخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدّم الشيعة فسفكوا دمه، وأقام شمس الدين ابن المقدّم بدمشق على عساكرها مقدّماً، وفي مصالحها محكماً، وجمال الدين ريحان والي القلعة والشحن من قبله والأمر إليه بتفصيله وجمله، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الحاكم النافذ حكمه، الصائب سهمه، الثاقب نجمه، وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث

والعشرين من ذي الحجة، وغاظ صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته، واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين، وكان يومئذ صبياً، وأجمعوا على منابذة الملك الناصر، وقبض أصحابه الذي بالشام، ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدّم شمس الدين مقدّم العساكر، وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له، وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدّم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها، وتم أمر الصلح، وعادت الفرنج إلى بلادها، وابن المقدّم إلى دمشق، واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام، وعلم ضعفهم، فراسل ابن المقدّم وغيره من الأمراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عصرون: « ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدوّ لهما واحد، وصرف مال الله الذي أعدّ لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعه في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأمه، وكان مذخوراً لكشف الغمه، فصار عونا، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديده وشوكتهم حديده، دفعوا في القطيعه، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعه، فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورد والصدر، وإن أتممنا ظن بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد، فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمر ربما عجز فيه عن الاستدراك، وإن العدوّ طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصه، مجدّ لايميل إلى الرخصه، فإن كانت الجماعة ساخطين فتظهر امارات السخط والتغيير ولا تمسك

في الأول فتعجـز عـن الأخير، لاسيما ونحـن نغـار لله ونغير، ونقصـد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التـدبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العـدوّ ناحية حارم بالمال الذي قويـت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوتـه فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون لايمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه».

قال: وكان متـولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النـوري، وكان شمس الديـن علي أخو مجد الديـن بن الداية إليـه أمور الجيش والـديوان، وإلى أخيه بـدر الدين حسن الشحنكيـة، وكان بيده ويـد أخوته جميع المعـاقل التي حول حلب، فلما بلـغ عليا موت نور الدين صعـد إلى القلعة، وكان مقعـداً ، واضطرب البلـد، ثم سكنـه ابن الخشـاب فامتنـع من الصعـود إليهم، وتردّدت بينهـم الرسالة وتحزب النـاس بحلب أهل السنة مـع بني الـداية، والشيعـة مـع ابن الخشـاب، وجـرت أسبـاب اقتضت أن أنـزل حسن بـن الدايـة جماعة مـن القلعيين وأهل الحاضر، وزحفـوا إلى دار ابن

الخشاب فملكوهـا ونهبوها واختفى ابن الخشاب، واتصلـت هذه الأخبار بمـن في دمشق فـأخـذوا الملـك الصالـح وسـاروا إلى حلـب في الثالـث والعشريـن مـن ذي الحجـة، وسـار مـع الملك الصـالـح سعـد الـديـن كمشتكين وجرديـك واسماعيل الخازن، وسـابق الديـن عثمان بن الـداية، وقد وكلت الجماعة به، وهو لا يعلـم، وساروا إلى حلب، وخرج الناس إلى لقائهـم وكان حسن قـد رتب في تلـك الليلة جماعة مـن الحلبيين ليصبح ويصلبهم، فلما خـرج إلى لقاء الملك الصـالح ووقعـت عينه عليه تـرجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فـأركبـه خلفه رديفـا، وقبـض سـابـق الـدين أخـوه في الحال، وتخطفـت أصحابهم جميعهـم، واحتيط عليهم وسـاروا مجدين حتـى سبقوا الخبر إلى القلعـة، وصعدوا إليهـا وقبضـوا على شمس الـدين على بـن الـداية مـن فـراشه وحمل إلى بين يـدي الملك الصـالح، فـاستقبلـه أحد مماليك نـور

- ٨١٥٠ -

الدين المعـروف بالجفينة فركله بـرجله ركلة دحابها على وجهـه، فانشقت جبهتـه، ثم صفـدوا جميعـا وحبسوا في جـب القلعـة، وقبضوا على جميـع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلـت: وفي آخر هـذه السنـة تـوفي مرّي الفـرنجـي الملـك الذي كـان حاصر القـاهرة، وأشرف على أخذ الـديار المصرية، وفي كتـاب فاضلي: « ورد كتاب من الداروم يـذكر أنه لما كان عشية الخميس تـاسع ذي الحجة هلـك مري ملـك الفـرنـج لعنه الله، ونقلـه إلى عـذاب كـاسمه مشتقـاً، وأقدمه على نار (تلظى لايصلاها إلا الأشقى) (١٤٠)

-٨١٥١-

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابـن أبي طي: ففي أوّلها ضمن القطـب ابن العجمي أبو صـالح، وابن أمين الدولـة لجرديك إن قتل ابن الخشاب، ردّوا عليـه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة، فدخل على الملك الصالح، وتحدّث معه وأخذ خاتمه أمانـا لابن الخشاب، ونودي عليه فحضر وركـب إلى القلعة، فقتل وعلق رأسه على أحد أبراج القلعة .

وبقـي الملـك الصـالـح في قلعة حلـب، ومضـى العماد الكـاتـب إلى الموصل، قال:« وعـزمت على خدمة سيف الـدين صاحبها وقـد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات، ومضى إليه ابـن العجمي للاصلاح فأصلح بين ابني العم، وعلـق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقـال، وضيقوا عليهم في القيـود والأغلال،وألـزموهـم بتسليم الحصـون، وتقديـم الرهـون إلى أن غصبوا دورهـم، وخربوا معمورهـم».

قال: وكـان الموفق خـالد بن القيسراني قـد وصل ونحـن بدمشـق من مصر، فلزم داره، ولم يدخـل مع القوم، فأمـا صلاح الدبن فـإنه اعتقد أن ولد نـور الديـن يتولاه بعده أخـوة مجد الدين، فلما جـرى ما جـرى ساءه ذلك وقـال: أنا أحق بـرعي العهود، والسعـي المحمود فإنـه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعه، وضـاقت المناهج المتسعه، وانفردت مصر عـن الشـام، وطمع أهـل الكفـر في بـلاد الاسلام، وكتـب إلى ابـن المقدّم ينكر ما أقدموا عليه مـن تفريق الكلمة، وكيف اجتروا على أعضاد الدولـة وأركانها، بـل أهلها وأخـوانها، وإنه يلـزمه أمـرهم وأمـرها ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدّم إليه يردعـه عن هذه العزيمه، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ويقول له:«لايقال عنك إنك طمعت في بيت من غـرسك، وربـاك وأسسـك، وأصفـى مشربك، وأضفـى ملبسـك، وأجلى سكـونـك لملك مصر، وفي دستـه أجلسـك، فما يليـق بحالـك، ومحاسـن

أخلاقـك وخلالـك غير فضلك وأفضالـك». فكتب إليـه صلاح الـدين بالانشاء الفاضلي « إنـا لانؤثر للاسلام وأهله إلا مـا جمع شملهم، وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكي أعلاه الله إلا مـا حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالـوفاء إنما يكون بعد الوفاء، والمحبة إنما تظهـر آثارها عند تكاثر أطماع العـداة، وبالجملة أنا في واد والظانون بنـا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنـا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقي السلاح إنك جارح».

فصل

قال العماد: ثم عـزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمـر فاعترضه أمران: أحـدهما وصول اسطـول صقلية إلى الاسكنـدرية وادراكـه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه، أمـا وصول الاسطول فكان يوم الأحد السادس والعشريـن من ذي الحجـة سنة تسـع وستين، وانهزم في أول المحرم سنـة سبعين، ثم ذكـر كتاباً وصـل من صلاح الديـن إلى بعض الأمراء بـالشام يشرح الحال، وحـاصلـه أن أوّل الأسطـول وصـل وقـت الظهـر، ولم يـزل متـواصـلاً متكـامـلاً إلى وقت العصر، وكـان ذلـك على حين غفلـة مـن المتوكلين بـالنظر لا على حين خفـاء من الخبر، فأمـر ذلك الأسطـول كان قد اشتهر، وروع به ابن عبد المؤمـن في البلاد المغربيه، وهدّد به في الجزائر الروميـه صاحـب قسطنطينيه، فشـوهد في الثغـر من وفـور عدّتـه، وكثرة عدّتـه، وعظيم الهمـة به، وفرط الاستكثـار منه، ما مـلأ البحر، واشتـدّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البر، ثـم أشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكـن الأسطول النـزول فاستنـزلوا خيـولهم من الطـرائد، وراجلهم مـن المراكب، فكانـت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألـف مقاتل، ما بين فـارس وراجل، وكانـت عدّة الطرائد ستـة وثلاثين طريـدة تحمل

الخيـل، وكان معهـم مـائتـا شيني في كـل شينـى مـائة وخمسون راجـلاً، وكـانت عـدّة السفـن التي تحمـل آلات الحرب والحصـار من الأخشـاب الكبـار وغيرها سـت سفن، وكـانت عـدّة المراكب الحمالـة برسـم الأزواد والرجال أربعين مركبـاً، وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيـالة، وصناع المراكب وأبراج الـزحف ودباباتـه والمنجنيقية مايتمم خمسين ألـف رجل، ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين مـن البحر، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهـم إلى السور، وفقد من أهل الثغـر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بـن البصار بسهم جرخ وجذفت مـراكب الفرنج داخلـة إلى المينا، وكـان به مـراكب مقـاتله، ومـراكب مسـافره، فسبقهـم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوهـا وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منهـا، واتصل القتـال إلى المسـاء فضربوا خيـامهـم بـالبر، وكان عـدّتهم ثلاثمائة، فلما أصبحـوا زحفوا وضـايقوا وحاصروا ونصبـوا ثلاث دبـابات بكباشها وثـلاثة مجانيق كبار المقـادير، تضرب بحجارة سود استصحبـوها مـن صقلية، وتعجـب أصحابنـا مـن شدّة أثـرهـا وعظم حجـرها، وأمـا الدبابات فـإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها وارتفاعهـا، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفـوا بها إلى أن قاربت السور، ولجوا في القتال عـامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منـزلة العسـاكر بفـاقوس يـوم الثلاثـاء ثالـث يوم نـزول العـدوّ على جنـاح الطـائر، فـاستنهضنـا العسـاكـر إلى الثغـريـن اسكندريـة ودمياط، احترازاً عليها واحتيـاطاً في أمرهـا وخوفاً مـن مخالفة العـدوّ إليها، واستمـرّ القتال وقـدّمت الـدبابـات وضربت المنجنيقـات، وزاحمت السـور إلى أن صارت منـه بمقدار أمـاج البحـر، وأهاج الـدور، فاتفق أصحـابنا على أن يفتحوا أبواباً قبـالتها من السور ويتركـوها معلقة بالقشـور، ثم فتحوا الأبواب وتكـاثر صالـح أهل الثغر من كـل الجهات فأحـرقوا الدبابـات المنصوبة، وصدّقـوا عندها من القتـال، وأنزل الله على المسلمين النصر، وعلى الكفار الخذلان والقهـر، واتصل القتـال إلى العصر من يوم الأربعـاء، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهـم، وقصرت عزائمهم وفتر

حربهم، وأحرقت آلات قتالهم، واستمر القتل والجراح في رجالهم، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدوّ على نية الهرب والمبادرة، ثم كر المسلمون عليهم بغتة، وقد كاد يختلط الظلام فهاجموهم في الخيام، فتسلموها بما فيها وفتكوا في الرجالة أعظم فتك، وتسلموا الخيالة، ولم يسلم منهم إلاّ من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربة، وجاءتها أحكام الله الغالبه، وبقي العدوّ بين قتل وغرق، وأسر وفرق، واحتمى ثلاثمائة فارس منهم في رأس تل، فأخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله، واقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شدّاد أن نزول هذا العدوّ كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك .

فصل

وأما نوبة الكنز فقال ابن شدّاد: الكنز انسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد، ويعيد الدولة مصرية، وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير، وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرّد له عسكراً عظيماً شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف

فكسرهم،وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شافتهم، وأخمد نائرتهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين، واستقرّت قواعد الملك.

قال العماد: وفي أوّل سنة سبعين مستهلها قام المعروف بالكنز في الصعيد، وجمع من كان في البلاد من السودان والعبيد، وعدا ودعا القريب والبعيد، وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبي الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك من المنقطعين، فغارت حمية أخيه، وثارت للثأر، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدّة من أمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طود، فاحتمت عليهم وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلها، ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوءه وسودانه، فسفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق، والله لناصري دينه ناصر وواق.

وقال ابن أبي طي: واتفق أيضاً أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان قد استنابه بمصر، فجمع له العساكر وأوقع به وبدّد شمله، وفض جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

-٨١٥٦-

فصل

في توجه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين اخر شهر ربيع الأول

قال العماد: لما خلا باله مما تقدّم ذكره تجهز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس ثالث عشر ربيع الأوّل، وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين بن المقدّم عنده تستوري في الحث والبعث زنده، وتستقدمه وجنده، وسار على صدر وائله، ووصل السير بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى، فاستقبله صاحب بصرى وشدّ أزره، وسدّد أمره، واستضاف إلى بصرى صرخد، وتفرد بالسبق إلى الخدمة وتوحد، وسار في الخدمة معه إلى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر، وسار في موكب قوي بالعدد والعدد وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الاطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق، وخرقها وكأن الله تعالى له خلقها، ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبيه، فراسله حتى استمالـه، وأغزر له نواله، وتملك المدينة والقلعة، ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وملك ابن المقدّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها، وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك الصالح، وحفظ ماله من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحق بصيانة حقه، واجتمع به أعيانها، وخلص لولاية اسرارها واعلانها، وأصبح وهو سلطانها، وزاره القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري فوفاه حقه من الإحترام وأوفر له حظ التبجيل والاعظام، ونفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر.

وفي بعضها:« يـوم وصولنا إلى بصرى وقبلـه وفدت وهاجـرت وتزاحمت وتكاثـرت وتوافـت الأمراء والأجنـاد الأتراك والأكـراد والعربـان، وراجل الأعمال، وأعيان الـرجال، وورد كتـاب من دمشـق بعد كتـاب، وكل مخبر وذاكر، وهو غائب بكتـابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنـة القياد مذعنة إلى المراد، وأما الفرنج خذلهم الله فإنا في هذه السفـرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنـا بها إقامة الحاضر المتخيم، وعيونهم متناومـة، وجزنا وأنوفهم راغمـة، ووطئنا ورقابهم صغر، ومـررنا وعيشهم مر، والله يـزيدهم ذلاً، ويجعل عداوة الاسلام في صدورهم غلا، وفي أعناقهم غلاً».

وفي كتـاب آخـر: «وكـــان رحيلنـا مـن بصرى يـوم الأربعـــاء الـرابـع والعشرين مـن ربيع الأوّل، وقـد توجـه صاحبهـا بين أيدينـا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها، ثـم لقينا الأجل ناصر الدين ابـن المولى أسد الدين رحمة الله عليه، وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابـن أنر في يوم السبت السابع والعشريـن، ونزلنـا يوم الأحـد بجسر الخشـب، والأجناد الـدمشقية إلينـا متـوافيه، والـوجوه على أبـوابنا مترامية، ولم يتـأخر إلاّ مـن أبقى وجهـه، وراقب صـاحبه، ومن اعتقـد بالقعود أنه قـد نظر لنفسه في العـاقبه، ولما كان يـوم الاثنين التاسع والعشريـن من الشهر ركبنـا على خيرة الله تعالى، وعـرض دون الدخـول عدد مـن الرجـال فدعستهـم عساكـرنا المنصـورة وصدمتهم وعـرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم، ودخلنـا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليـه قريرة عيوننا مستقرا سكون الـرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجـاء البلد النـداء بإطابـة النفوس، وإزالـة المكوس، وكـانت الولاية فيهـم قد ساءت وأسرفت، واليـد المتعدّية قد امتـدّت إلى أحوالهم وأجحفـت، فشرعنـا في امتثـال أمـر الشرع برفعهـا، وإعفـاء الأمـة منهـا بوضعها».

قـال ابـن الاثير: لما خـاف مـن بـدمشـق مـن الأمـراء أن يقصـدهـم كمشتكين والملك الصـالح من حلـب فيعاملهم بما عامـل به بني الـداية

راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه، فلم يجبهم فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدّم، ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقر بها، ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه واستردّ له بلاده التي أخذها ابن عمه، وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لاينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدوّ الله عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام، إذ هو أصل بلاد الاسلام، فتجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح، واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسببا لتنفير قلوب الناس عن الصبي، فاقتضى الحال أن كاتب ابن المقدّم صلاح الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصالح فيكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله، فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر، وكان أوّل دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين، وأظهروا الفرح به وصعد القلعة، واستقر قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جمادى الأولى ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سلخ جمادى المذكور وهي الدفعة الأولى.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل

واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل إن ابن المقدّم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، وبجواب ممض ورد من ابن المقدّم، ولما تيقن ابن المقدّم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفى أثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات.

قلت: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أوّلها:

تهنّ يا أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة وندى

أجرا وذكرا من ذلك الشكر في الـ
ـدنيا ومن ذلك الجنان غدا

لا تستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا

وجست أرض العدى وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العددا

وما رأينا غزا الفرنج من الـ
ـملوك في عقر دارهم أحدا

فسر إلى الشام فالملائكة الـ
ـأبرار تلقاك ملتقى حمدا

فهو فقير إليك يا أمل أن
تصلح بالعدل منه ما فسدا

والله يعطيك فيه عاقبة الـ
ـنصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك الـ
ـعدل وأعطاك ما ملكت سدى (١٤١)

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أوّلها:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام أن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له
فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الاسلام فاتضحت
سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد
فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلا في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقبا

- ٨١٦١ -

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب

قال ابن أبي طي: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه وإنعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر هي تردّك، وعما تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والاحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يعره السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا، ولا ردّ عليه خفضا ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وترك جوابه احسانا وتجافيا، وجرى في ميدان أريحيته واستن في سنن مروّته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له: يا هذا اعلم إنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الاسلام، وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد، وفت الأكباد، وإيتام الأولاد، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله وأومى إلى رجاله باقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه، ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجهاً إلى حمص، فتسلم البلد وقاتل القلعة، ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها

من يحصرهـا ورحل إلى جهـة حماه فلما وصل إلى الرستـن، خرج صـاحبها عز الدين جرديك، وأمر من فيها مـن العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره، وسار جـرديك حتى لقي السلطان واجتمع بـه بالرستن، وأقام عنـده يومـا وليله، وظهر مـن نتيجة اجتماعه بـه أنه سلـم إليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلـب، فأجابه السلطان إلى مراده، وسار إلى حلب، وبقي أخو جرديك بقلعة حماه.

قال: وسـار جرديك إلى حلـب وهو ظان أنـه قد فعل شيئـاً، وحصل عند مـن بحلب يـدا، فاجتمـع بالأمـراء والملك الصـالح وأشـار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فـاتهمه الامراء بالمخامرة، وردّوا مشـورته، وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ولج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بـالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية.

قال: ولما قـدّم جرديك وشـدّ في وسطه الحبـل ودلي إلى الجب، وأحس به أولاد الـداية قـام إليه منه حسـن وشتمه أقبـح شتم وسبـه ألأم سب، وحلف بـالله إن أنزل إليهـم ليقتلنه، فـامتنعوا مـن تدليتـه، فأعلـم سعد الـدين كمشتكين فحضر إلى الجب وصـاح على حسـن وشتمـه وتوعـده، فسكـن حسن وأمسـك وأنزل جـرديـك الجب، فكان عنـد أولاد الدايـة، واسمعه حسن كل مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصل به قبـض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:

بنـو فـلانـة أعـوان الضـلالـة قـد
قضـى بـذلهم الأفـلاك والقـدر
واصبحـوا بعـد عـز الملـك في صفـد
وقعـر مظلمـة يغشـى لها البصر

وجرد الدهر في جرديك عزمته
والدهر لا ملجأ منه ولا وزر

قال: ولم يزل السلطان مقيما على الرستن، ثم طال عليه الأمر فسار إلى جباب التركمان فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماه وطلب من أخي جرديك تسليم حماه إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل وصعد السلطان إلى قلعة حماه واعتبر أحوالها وولاها مبارز الدين علي بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جمادى الآخرة، وسار السلطان إلى حلب، ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر، وامتدّت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدي، وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدّم عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه: أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجىء إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد، قال: وخنقته العبرة وسبقته الدمعه، وعلا نشيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمه، وأن يجهر بحي على خير العمل والأذان والتذكير في الاسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلوا على

أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكـون عقود الأنكحـة إلى الشريف الطـاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبيـة مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشيـاء كثيرة اقترحوها، مما كـان قد أبطله نور الـدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طـيّ: فأذن المؤذنون في منارة الجامـع وغيره بحي علي خير العمل، وصلى أبي في الشرقيـة مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفـه، وذكروا في الأسـواق وقـدّام الجنـائز بـأسماء الأئمـة، وصلـوا على الأمـوات خمس تكبيرات، وأذن للشريـف في أن تكون عقـود الحلبيين من الإمـامية إليـه، وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه.

فصل

قـال ابن أبي طـيّ: وكانـت هـذه السنة شـديدة البرد، كثيرة الثلـوج، عظيمة الأمطـار، هائجة الأهـوية، وكان السلطـان قد جعل أولاد الـداية علالة لـه وسبباً يقطع به ألسنـة من ينكر عليه الخروج إلى الشـام، وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيـت لاستخلاص أولاد الداية، وإصلاح شأنهم، وأرسل السلطـان إلى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلـح، فامتنع كمشتكين، فاشتـدّ حينئذ السلطـان في قتال البلد، وكـانت ليـالي الجماعة عند الملـك الصالـح لاتنقضي إلا بنصب الحبـائل للسلطان، والفكـرة في مخاتلته، وارسال المكروه إليـه، فأجمعوا آراءهـم على مراسلة سنـان صاحب الحشيشية في ارصاد المتالف للسلطان، وإرسـال من يفتك به، وضمنوا له على ذلـك أموالاً جمة وعـدة من القـرى، فأرسـل سنان جماعـة من فتـاك أصحابـه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبـل جوشن واختلطوا بـالعسكر فعرفهـم صاحب أبـو قبيس، لأنه كان مشـاغراً لهم، فقال لهم: يـا ويلكم

كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه؟ فخافوا غائلته، فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرّحوا بعضهم، وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله ، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

قال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية، كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب، وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين، فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير، واتفق في أوّل هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم، فعظم شأنه وزاد خطره، فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان لست ممن يرهب بتألب الفرنج، وها أنا سائر إليهم، ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكيه فغنموا غنيمة حسنة وعادوا، فقصد القمص جهة حمص، فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل إلى حمص، فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتي:

إياب ابن أيوب نحو الشآ
م على كل ما يرتجيه ظهور
بيوسف مصر وأيامه
تقرّ العيون وتشفى الصدور

رأت منـــــك حمص لها كـــــافيـــــا
فــــواتـــاك منهـــا القـــوي العسير

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ يقول في وصف قلعة حمص: « والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب، وعقابا في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامه، عاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعه، فاكتنفت بها عقارب، منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة، فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحدّ إلاّ وقد أثرت فيها جدر يا يضربها، ولم تصل السابع إلا والبحران منذر نقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع إلى مولد هو إليها الطالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا (وسيرت الجبال)بها (فكانت سرابا) (١٤٢) فهنالك بدت نقوب يرى قائم من دونها ما وراءها، وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل: «قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الذي يخرج عن العد، وبعد أن نرتب أحوال حمص حرسها الله، نتوجه إلى حماه، والله المعين على ما ننويه من الرشاد، وننظفه من طرق الجهاد».

وقال العماد: لما سمع المدبرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدين المؤذن بإدبارهم، سقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة، وكاتبوهم وأرسلوا إلى صلاح الدين بالاغلاظ والاحفاظ، وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان، وقال له: هذه السيوف التي ملكتك مصر، وأشار إلى

سيفـه، إليهـا تردّك، وعما تصـدّيـت لـه تصـدّك، فحلم عنـه السلطـان، واحتمله وتغافل كـرماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبلـه، وذكر أنه وصل لترتيب الأمـور وتهذيب الجمهـور، وسدّ الثغـور، وتربيـة ولد نـور الديـن، واستنقاذ أخوة مجد الديـن، فقال له: أنت تريد الملـك لنفسك، ونحن لا ننـزع في قوسـك، ولا نأنـس بأنسـك، ولا نرتـاع لجرسك، ولا نبنـي على أسك، فـارجع حيـث جئت أو اجهـد واصنع مـا شئت، ولا تطمـع فيما ليـس فيه مطمـع، ولا تطلـع حيـث ما لسعـودك فيـه مطلـع، ونال مـن تقطيب القطب ينال كل ما أحـال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسم، وأخفى الاحتمال، ثم إنـه استناب أخاه سيف الاسـلام طغتكين بدمشق، وسار بالعسكـر ونزل على حمص فأخذهـا يوم الثلاثاء ثـالث عشر جمادى الأولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها مـن يحصرها، ورحل إلى حماه فأخذها مستهل جمادى الآخرة، ثم مضى ونزل على حلـب فحصرها ثالث الشهر، فلما اشتدّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصـار، استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البـذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات مـن فتاكهـم كل عـات، فعرفهـم الأمير ناصـح الديـن خمار تكين صـاحب أبـو قبيـس، وكان مشـاغـرا لـلاسماعيلية، فقـال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الـوصول وما خشيتم، فقتلوه وجاء مـن يدفع عنه فـأثخنوه، وعدا أحـدهم ليهجم على السلطـان في مقامه، وقـد شهر سكين انتقامه، وطغـريل أمير جانـدار واقف ثـابت ساكن سـاكت، حتى وصل إليه فشمل بالسيف رأسه، وما قتـل الباقون حتى قتلوا عدة، ولاقى مـن لاقاهـم شدّة، وعصـم الله حشاشتـه في تلـك النوبـة من سكـاكين الحشيشيـة، فـأقـام إلى مستهـل رجـب، ثـم رحـل إلى حمص بسبـب أن الحلبيين كاتبـوا قمص طـرابلس، وقـد كان في أسر نـور الديـن مذ كسرة حارم، وبقي في الأسرأكثر من عشر سنين، ثم فـدا نفسه بمبلغ مائة ألـف وخمسين ألف دينـار، وفكاك ألـف أسير، فتوجـه في الافرنجيـة إلى حمص، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه مخوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى العادل: « قد اعلمنا المجلس أن العدوّ خذله الله كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستصالوا على الاسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماه، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه، فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بجبله، متفحصاً بحيله، وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإن العدوّ قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همته، وولى ظهراً كان صدره يصونه، ونكس صليباً كانت ترفعه شياطينه».

وقال العماد في الخريدة: لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب ابن أسعد بقصيدة أوّلها:

ما نام بعد البين يستحلي الكرى
إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

كلف بقربكم فلما عاقه
بعد المدى سلك الطريق الأخصرا
ومودع أمر التفرّق دمعه
ونهته رقبة كاشح فتحيرا

ومنها في المديح:
تردي الكتائب كتبه فإذا غدت
لم يدر أنفذ أسطراً أم عسكرا
لم يحسن الأتراب فوق سطورها
إلاّ لأن الجيش يعقد عثيرا

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول: « والشعر ما زال عند الترك متروكا» فعجل جائزته لتكذيب قوله، وتصديق ظنه،

فشرفه وجمع له بين الخلعة والصنعة، وعنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصالح بن رزيك التي أولها : « أما كفاك تلافي في تلافيكا».

يقول فيها

ياكعبة الجود إن الفقر أقعدني
ورقة الحال عن مفروض حجيكا
من ارتجي ياكريم الدهر ينعشني
جدواه إن خاب سعي في رجائيكا
أأمدح الترك أبغي الفضل عندهم
والشعر مازال عند الترك متروكا
أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم
واضيعتا إن تخطتني أياديكا
لاتتركني وما أملت في سفري
سواك اقفل نحو الأهل صعلوكا

قلت: وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا في اخبار سنة ثمان وخمسين، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين، وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل إلى مدح ابن رزيك في قوله من قصيدة أوّلها :

إذا لاح برق من جنابك لامع
أضاء لواش ما تجنّ الاضالع

يقول فيها:

تمادى بنا في جاهلية نحلها
وقد قام بالمعروف في الناس شارع
وتحسب ليل الشح يمتدّ بعدما
بدا طالعا شمس السخاء طلايع (١٤٣)

- ٨١٧٠ -

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضا إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتابا طويلاً رائقا فائقاً يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الافرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب، وإقامه الخطبة العباسية بها يقول في أوّله للرسول : «فإذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الاخلاص جهد الدعاء، فليعد و ليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً، منها لعله يشرح منا صدرا، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا.

ومن الغرائب أن تسير غرائب
في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى
والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا، وغيرنا يدّعي التصدير، ولابد أن نستردّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تردّ به الغصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان العائق إلاّ أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمه يضاهي ابتداءنا بالخدمه، وانجابا للحق يشاكل انجابنا للسبق، وكان أوّل أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدوّ كسر، أو مصاف للاسلام معه ضرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدوّنا أنا نصطلي الجمره، ونملك الكره، ونتقدّم الجماعه، ونرتب المقاتله، وندبر

التعبيه إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنـا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكـرها، وكـانت أخبار مصر تتصـل بنا بها الأحـوال عليه فيهـا من سوء تدبير، وبها دولتها عليه مـن غلبة صغير على كبير، وإن النظام بها قد فسد، والإسلام بها قـد ضعف عن إقامة كـل من قام وقعد، والفـرنج قد احتاج من يـدبرها إلى أن يقاطعهم بأمـوال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وإن كلمة السنة بها وإن كـانت مجموعه فإنها مقموعـه، وأحكام الشريعة وإن كـانـت مسماه فـإنها متحـاماه، وتلـك البـدع بها على مـا يعلـم، وتلـك الضلالات فيهـا على ما يفتى فيه بفـراق الاسلام ويحكم، وذلـك المذهب قد خالـط من أهله اللحم والـدم، وتلك الأنصاب قد نصبـت آلهة تعبد من دون الله وتعظـم وتفخم، فتعـالى الله عن شبـه العباد، وويـل لمن غرّه تقلب الذيـن كفروا في البلاد، فسمت همتنـا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلهـا، ونسترجع لـلاسلام شاردهـا، ونعيد على الـدين ضـالته منهـا، فسرنـا إليها في عسـاكـر ضخمـه، وجموع جمه، وبأمـوال انتهكـت الموجود، وبلغت منا المجهـود، أنفقناها من حاصل ذممنـا وكسب أيدينا، وثمـن أسارى الفـرنـج الواقعين في قبضتنـا، فعـرضـت عوارض منعـت، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفـرنج قطعت (لكل أجل كتاب) (١٤٤)، ولكـل أمل بـاب، وكان في تقـديـر الله أنا نملكهـا على الوجـه الأحسن، ونـأخذهـا بالحكـم الأقوى الأمكـن، فغدر الفـرنج بـالمصريين غدرة في هـدنة عظم خطبها وخبطهـا، وعلم أن استئصال كلمـة الاسلام محطها، فكـاتبنا المسلمون مـن مصر في ذلك الزمان كما كـاتبنا بالعسـاكر المجموعة والأمراء والأهل المعروفة إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرّر لنا في القلوب ودّان: الأوّل مـا علموه مـن ايثارنا للمـذهب الأقـوم، وإحياء الحق الأقدم، والآخر ما يـرجونه من فك أسارهم، وإقالـة عثارهم، ففعل الله ما هو أهلـه، وجاء الخبر إلى العدوّ فانقطـع حبله، وضاقت بـه سبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعهـا ورساتيقها وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانـه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من

أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعه، وكلمتهم جامعه، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغتام أعجام، إن هم إلاّ كالانعام لا يعرفون رباً إلاّ ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانيه، موضوعة عنهم الجزيه، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمي بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار، فعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منها وصلوا بالعدد المجهز، والحشد الأوفز، وخصوصاً في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويصابحونها القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من مكان قريب، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضدّين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد

فأخرجناهم مـن القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم وتارة بـالأمور الفاضحة منهم، وطوراً بالسيوف المجرده وبالنـار المحرقه، حتى بقي القصر ومن به من خـدم ومن ذرية قـد تفرّقت شيعـه، وتمزقت بـدعه، وخفتت دعـوته، وخفيت ضلالتـه، فهنالك تم لنا إقـامة الكلمة، والجهر بالخطبـة، والرفع للواء الأسـود الأعظم، وعاجـل الله الطاغيـة الأكبر بهلاكه وفنائه، وبـرأنا من عهـدة يمين كان إثم حنثهـا أيسر من إثم إبقـائه، لأنه عوجـل لفرط روعتـه، ووافـق هـلاك شخصـه هلاك دولتـه، ولما خـلا ذرعنـا، ورحـب وسعنا، نظـرنا في الغـزوات إلى بلاد الكفـار، فلم تخرج سنـة إلا عن سنـة أقيمت فيها بـراً وبحراً مركبا وظهراً إلى أن أوسعناهـم قتلاً وأسرا، وملكنا رقـابهم قهراً وقسراً، وفتحنـا لهم معاقـل ما خطـر أهل الاسـلام فيها مـذ أخـذت من أيـديهم، ولا أوجفـت عليها خيلهـم ولا ركـابهم مذ ملكهـا أعاديهم، فمنهـا ما حكمت فيـه يد الخراب، ومنها مـا استولت عليـه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر ايلة، كان العدوّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلـوك منـه إلى الحرمين واليمن وغـزا سـاحـل الحرم فساء منـه خلقـاً، وخـرق الكفـر في هـذا الجانـب خـرقـاً، فكـادت القبلـة أن يستـولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطـرّقه مـن لا يـدين بها جـاء بـه مـن الإسلام، فـأخـذت هذه القلعـة، وصارت معقلاً للجهاد وموئلا لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد.

ثم قـال: «وكان بـاليمن مـا علم مـن أمر ابـن مهدي الضـال الملحد المبدع المتمرد، ولـه آثار في الاسلام وثار طالبه النبـي صلى الله عليه وسلم لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بـالثمن البخس، واستباح منهن كل مـا لا يقر لمسلـم عليه نفـس، ودان ببدعـه، ودعا إلى قبر أبيـه وسماه كعبة، وأخـذ أموال الرعـايا المعصومـة وأجاحهـا، وأحل الفروج المحـرمة وأباحهـا، فانهضنا إليه أخـانا بعسكرنـا بعد أن تكلفنا له نفقـات واسعه، واسلحـة رائعـة، وسـار فـأخذنـاه ولله الحمـد، وأنجـز الله فيـه القصـد،

والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند ساميه، وإلى ما يفتض الاسلام عذرته متماديه، ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك، كما يكون المهلك دون المطلب، وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لاتطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قفصه، قسطيليه، توزر، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه، ولا عهد للاسلام باقامتها وتنفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها، وفي هذه السنة كان عندنا وقد شاهده وفود الامصار، ورموه بأسماع وأبصار مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع والمناشير والألويه بما فيها من الأوامر والأقضيه، فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام، والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينيه، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحريه، ومناقلات ظاهرة وسريه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداه، ومن مفاضحة إلى مناصحه، حتى أنه انذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها، ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوّته المستقلة فعمر أسطولاً يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثر عدّته وتنتخب عدّته، إلى أن وصل منها في السنة

الخالية إلى الاسكنـدرية أمـر رائع وخطب هـائل، وما أثقـل ظهر البحـر مثل حمله، ولا ملأ صـدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليـم بل أقاليم يقله، وجيش مـا احتفل ملك قط بنظيره لو لا أن الله خذلـه، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كـل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكـونون سفـاراً يحتكمون على الاسلام في الأمـوال المجلوبـه، وتقصر عنهم يـد الاحكام المرهـوبه، ومـا منهم إلاّ مـن هو الآن يجلب إلى بلـدنا آلة قتـاله وجهاده، ويتقـرب إلينا بـاهـداء طـرائف أعمالـه وتـلاده، وكلهـــم قـد قـرّرت معهـم المواصلـه، وانتظمت معهـم المسالمه، على ما نـريد ويكرهـون، وعلى ما نؤثـر وهم لا يؤثرون،ولما قضى الله سبحانه بالوفـاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغـزاة والعساكـر قـد تجهـزت والمضارب قـد بـرّزت، ونـزل الفرنـج على بانياس وأشرفوا على احتيـازها، ورأوها فرصة مدّوا يـد انتهازها، استصرخ بنـا صاحبهـا، فسرنـا مراحـل اتصـل بالعـدوّ أمـرها، وعـوجـل بالهدنـة الـدمشقية التـي لو لا مسيرنـا ما انتظـم حكمهـا، ثم عـدنا إلى البـلاد، وتوافت إلينا الاخبـار بها المملكة النورية عليه من تشعـب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمـور وتقطعها، وأن كـل قلعة قـد حصل فيهـا صاحـب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنـج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الاسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميه، وأمـراء الدولة النورية قد سجن كبارهـم وعوقبوا وصـودروا، والمماليك إلاّ عماد الـدين خلقوا لـلاطراف لا للصـدور، وجعلـوا للقيـام لا للقعـود في المجلـس المحضـور، قـد مـدّوا الأيدي والأعين والسيـوف، وسارت سيرتهم في الأمر بـالمنكر والنهـي عن المعـروف، وكل واحـد يتخـذ عنـد الفرنـج يـداً، ويجعلهـم لظهره سنـداً، وعلمنا أن البيـت المقدّس إن لم تتيسر الأسباب لـفتحه وأمـر الكفر إن لم نجرّد العزم في قلعه وإلا نبتـت عروقه، واتسعت على أهل الديـن خروقه، وكانت الحجـة لله قائمه، وهـم القادريـن بالقعود دائمة، وإنـا لا نتمكن بمصر منه مـع بعد المسـافة، وانقطـاع العمارة، وكلال الـدواب التي بها على الجهـاد القـوّه ، وإذا جاورنـاه كـانـت المصلحـة باديـه، والمنفعـة

جامعه، واليـد قادره، والبلاد قريبه، والغزوة ممكنـه، والميرة متسعه، والخيل مستريحه، والعساكـر كثيرة الجموع، والأوقـات مساعـده، وأصلحنا مـا في الشام مـن عقائد معتلـه، وأمور مختلـه، وأراء فاسـده، وأمراء متحـاسده، وأطماع غالبه، وعقول غـائبه، وحفظنا الولد القائم بعـد أبيه فما نابه أولى من قوم يـأكلون الدنيا باسمه، ويظهـرون الوفاء في خدمته وهـم عاملون بظلمه، والمراد الآن هـو كل مـا يقوّي الـدولة، ويـؤكد الـدعوة، ويجمـع الأمـة، ويحفظ الالفـه، ويضمـن الرأفـه، ويفتـح بقيـة البلاد، وأن يطبـق الاسم العبـاسي كل مـا تطبقه العهـاد، وهو تقليـد جامـع بمصر واليمن والمغـرب والشام، وكلما تشتمـل عليه الـولاية النـوريةوكـل ما يفتحـه الله للدولة العباسيـة بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمـه من أخ أو ولد من بعدنا تقليـداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعـوة تجديداً، مع ما ينعـم به من السمات التـي فيها الملـك، وبالجملـة فالشـام لا تنتظم أمـوره بمن فيـه، والبيت المقـدّس ليس له قرن يقـوم به ويكفيه، والفـرنج فهم يعرفـون منا خصماً لايمل الشر حتـى يملوا، وقـرنا لا يـزال محرم السيف حتـى يحلوا، وإذا شدّ رأينا حسن الرأي ضربنا بسيـف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كـل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً مـن المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده».

ومن كتـاب آخر فاضلي عـن السلطان إلى الديـوان في تعداد مالـه من الأيادي: « والـذي أجراه الله على يـد المملوك مـن الممالك التـي دوّخها، وسنن الضلال التـي نسخها، وعقود الالحاد التي فسخها، ومنابـر الباطل التي رحضها، وحجـج الزندقة التـي دحضها فلله عليه المنـة فيه إذ أهله لشرف مشهده، وما فعلـه إلا لوجهه، ويد الله كانت عـون يده، وإلا فقد قضـت الليـالي والأيام على تلـك الأمـور، ومـا تحركت للفلـك في قلعهـا نابضـه، وغيرت الأحوال على تلـك البدعـة وما ثـارت لأفراسهـا رابضه، فشكر يد الله تعـالى فيما أجراه على يده منهما أن يجتهد في أخـرى مثلها في الكفار، وقد عاد الاسلام إلى وطنه، وصوّحت من الكفر خضراء دمنه».

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه اعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه:« حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من الله في سخطه رضا، وجعل وجه لابسي السواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور».

ومن كتاب آخر: « قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الاعداء شفارها، وجمع عليها الدين وكان أديانا، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا».

ومن كتاب آخر: « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلاّ وعد كان العقد بينه وبين نور الدين رحمه الله في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمت الآراء الفاسدة، وفورقت المحاج القاصده، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزي المسلمين، والأمراء الذين كانوا للاسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرّق الكفار بالبناء في الحدود الاسلامية، ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الاقطار وسيروا الصليب، ومن كسى مذابحهم بقمامه، وهدّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامه، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونه ممن يسمونهم القدّيسين، وقالوا: إن وقعت أوقعت فيها لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والاساطيل القوية،

وللاسلام بأمير المؤمنين أعز نـاصر لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقا، وهو يعبد خالقاً، وهم يعبدون خلقاً».

فصل

قال العماد: وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية في نور الدين، فنظمت بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الـدين في ظلـم لغيبـة نـوره
والـدهـر في غمـم لفقـد أميره
فلينـدب الاسـلام حـامـي أهلـه
والشـام حـافـظ ملكـه وثغـوره
مـا أعظـم المقـدار في اخطـاره
إذ كـان هـذا الخطـب في مقـدوره
مـا أكثـر المتـأسفين لفقـد مـن
قـرّت نـواظـرهـم بفقـد نظيره
مـا أغـوص الانسـان في نسيـانـه
أو مـا كفـاه الموت في تـذكيره
مـن للمسـاجـد والمدارس بـانيـا
لله طـوعـا عـن خلـوص ضميره
مـن ينصر الاسـلام في غـزواتـه
فلقـد أصيـب بـركنـه وظهيره
مـن للفـرنـج ومـن لأسر ملـوكهـا
مـن للهـدى يبغـي فكـاك أسيره
مـن للخطـوب مـذلـلا لجماحهـا
مـن للـزمـان مسهـلا لـوعـوره
مـن كـاشـف للمعضـلات بـرأيـه
مـن مشرق في الـداجيـات بنـوره

من للكريم ومن لنعش عثاره
من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولاً أبكارها
يرواحه في غدوه وبكوره
من للعلى وعهودها من للندى
ووفوده من للحجى ووفوره
ما كنت أحسب نور دين محمد
يخبو وليل الشرك في ديجوره
أعزز عليّ بليث غاب للهدى
يخلو الشرا من زوره وزئيره
أعزز عليّ بأن آراه مغيباً
عن محفل متشرف بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنها
مذ غيبت غاض الندى ببحوره
ولقد أتى من كنت تجري رسمه
فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى من كنت تكشف كربه
فارفع ظلامته بنصر عشيره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه
وقع له بالأمن من محذوره
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه
فأدم له التقريب في تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه
فاركب لتبصره أوان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل
حتى سكنت اللحد في محفوره
كم قيصر للروم رمت بقسره
ارواء بيض الهند من تاموره
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر
بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدت في دار الفناء وأهلها
ورغبت في الخلد المقيم وحوره
أو ما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وطهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدى
وتقدّس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلاً فمن
عجب نهوضكم بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه انشقتم
من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامي بعده
هلا وفيت وسرت عند مسيره
حياك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الحيا بدروره
ولبست رضوان المهيمن ساحبا
أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأجوره

قال العماد: وجاء نجاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكسوة، وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الخطوة،

فهاجني الطرب لقصده لسابق معرفته وقديم ودّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسلطان على حلب، وكان العماد في عقابيل ألم فلما شفي وعاد السلطان إلى حمص قصده فيها، وقد تسلم قلعتها في شعبان في الحادي والعشرين منه، وقال: وكنت نظمت قصيدة في الشوق إلى دمشق والتأسف عليها، ثم جعلت مدح السلطان مخلصها وهي طويلة أوّلها:

أجيران جيرون مالي مجير
سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا
ومالي سوى طيفكم زائر
فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
يعز عليّ بأن الفؤاد
لديكم أسير وعنكم أسير
وما كنت أعلم أني أعيـ
ـش بعد الأحبة إني صبور
وفت أدمعي غير أن الكرى
وقلبي وصبري كل غدور
إلى ناس بانا س لي صبوة
لها الوجد داع وذكرى مثير
يزيد اشتياقي وينمو كما
يزيد يزيد وثورا يثور
ومن بردى برد قلبي المشوق
فها أنا من حره مستجير
وبالمرج مرجو عيشي الذي
على ذكره العذب عيشي مرير
فقدتكم ففقدت الحياة
ويوم اللقاء يكون النشور
تطاول لسؤلي عند القصير
فعن نيله اليوم باعي قصير
وكن لي بريداً بباب البريد
فأنت بأخبار شوقي خبير

متـــى تجدّ الـــري بـــا القــــريتين
خـــوامــــص أثـــــر فيهـــا الهجير
ونحـــو الجليجـــل أزجـــي المطـــي
لقـــــد جـــل هــــذا المرام الخطير
تــــراني أنيـــــخ بـــأدنـــــى ضمير
مطـــايـــا بــــراهـــا الـــوجـــا والضمـــور
وعنـــــد القطيفـــــة والمشتهـــــاة
قطـــوف بها الـــــلأمـــــاني سفـــــور
ومنهـــــا بكــــــوري نحـــــو القصير
ومنيــــــة عمـــــري ذاك البكــــــور
ويــــاطيــــب بشراي مـــن جلـــق
إذا جـــــاء في بـــــا النجـــاح البشير
ويستبشر الأصــــدقـــــاء الكـــــرام
هنـــالـــك بي وتـــوفى النـــذور
تـــرى بـــالســـلامـــة يـــومـــا يكـــون
ببــــاب الســـلامــــة منـــي عبــــور
وإن جـــــــوازي بيــــــاب الصغير
لعمـــري مـــــن العمــــر حــــظ كبير
ومـــــا جنـــــة الخلـــد إلا دمشـــق
وفي القلــــب شـــوق إليهــــا سعير
ميـــادينهـــا الخضر فيـــح الـــرحـــاب
وسلســـالها العــــذب صـــاف نمير
وجـــامعهـــا الــــرحـــب والقبـــة الــــــ
ـــــــمنيفة والفلـــك المستـــديـــر
وفي قبـــــــة النسر لي ســـــــادة
بهم للمكــــــــارم أفــــــــق منير
وبـــــاب الفـــــراديـــس فـــــردوسهـــا
وسكـــانها أحســـن النـــاس حـــور

والارزه فـــالسهـــم فـــالنيربـــان
فجنـــات مـــزتها فـــالكفـــور
كـــأن الجواســـق مـــأهـــولـــة
بـــروج تطلـــع منهـــا البـــدور
بنير بها تستبير الهمـــــــوم
بـــربـــوتها يتربـــى السرور
ومـــا غـــرّ في الـــربـــوة العاشقـــ
ـــين بـــالحسن إلا الـــربيـــب الغـــريـــر
وعنـــد المغـــارة يـــوم الخميـــس
أغـــار على القلـــب منـــي مغير
وعنـــد المنيـــع عين الحيـــاة
مـــدى الـــدهـــر نـــابغـــة مـــا تغـــور
بجسر ابـــن شـــواش ثـــم السكـــون
لنفسي بنفسي تلـــك الجســـور
ومـــا أنـــس لا أنـــس انـــس العبـــور
على جسر جسريـــن إني جســـور
وكـــم بـــت ألهو بقـــرب الحبيـــب
في بيـــت لهيـــا ونـــام الغيـــور
فـــأيـــن اغتبـــاطـــي بـــالغـــوطتين
وتلـــك الليـــالي وتلـــك العصـــور
وأشجـــار سطـــرا بـــدت كـــالسطـــو
ر نمقهـــن البليـــغ البصير
وأيـــن تـــأملـــت فلـــك يـــدور
وعين تفـــور و بحـــر يمـــور
وأيـــن نظـــرت نسيـــم يـــرق
وزهـــر يـــروق وروض نضير
إلام القســـاوة يـــا قـــاسيـــون
و بين السنـــــــا يتجلى سنير

ومنـــذ ثـــوى نـــور ديــــن الالـــه
لم يبـــق للـــديـــن والشـــام نـــور
وللنـــاس بـــا لملـــك النـــاصر الـــــ
ــــــــصلاح صـــلاح ونصر وخير
هـــو الشمـــس أفـــلاكـــه في البـــلاد
ومطلعـــــه سرجـــــه والسريـــــر
إذا مــــا سطـــا أو حبـــى واحتبـــى
فما الليـــث مـــا حـــاتـــم مـــا ثبير
بيـــوســـــف مصر وأيــــامــــه
تقـــر العيـــون وتشفـــى الصـــدور
ملكـــت فـــاسجـــح فما للبـــلاد
ســـــواك مجير ومــــــولى نصير
وفي معصـــم الملـــك للعـــز منـــــــ
ــــك سوار ومنك على الـــديـــن سـور
لـــك الله في كـــل مـــا تبتغيــــــ
ــــــه بحـــق ظهير ونعـــم الظهير
أمــــا المفســــدون بمصر عصـــوك
وهـــذي ديـــارهـــم اليـــوم قـــور
أمــــا الادعيــــاء بها إذ نشطـــت
لابعـــادهـــم زال منـــك الفتـــور
ويـــوم الفـــرنـــج إذا مــــا القـــوك
عبـــوس بـــرغمهـــم قمطـــريـــر
نهوضـــاً إلى القـــدس يشفـــي الغليـــــ
ـــــل بفتـــح الفتـــوح ومـــاذا عسير
ســـل الله تسهيـــل صعـــب الخطـــو
ب فهـــو على كـــل شيء قـــديـــر
إليـــك هجـــرت ملـــوك الـــزمـــان
فما لــــك والله فيهـــم نظير

وفجـرك فيـه القـرى والقـرآن
جميعـاً وفجـر الجميـع الفجـور
وأنـت تـريـق دمـاء الفـرنـج
وعنـدهـم لا تـراق الخمـور

فصل

في فتح بعلبك

قال العماد: ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك فتسلمها في رابع شهر رمضان

قال ابن أبي طي: وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

قال العماد: وهنأته بأبيات منها :

بفتـوح عصرك يفخـر الاسـلام
وبنـور نصرك تشرق الايـام
وبفتـح قلعـة بعلبـك تهذبـت
هـذي الممالـك واستقـام الشـام
ويبكـي الحسـود دمـا وثغـر الثغـر مـن
فـرح بنصرك للهـدى بسـام
فتـح تسنـى في الصيـام كـأننـا
شكـراً لما منـح الإلـه صيـام
مـن ذا رأى في الصـوم عيـد سعـادة
حلـت لنـا والفطـر فيـه حـرام

أسدى صلاح الدين والدنيا يدا
بنوالها سوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام
دم للعلى حتى يدوم نظامها
واسلم يعز بنصرك الاسلام

قال: ولزمت خدمته أرحل برحيله، وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على أن الشعراء المحدّثين ما منهم إلاّ من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعري وابن أبي حصينة والأرجاني والصالح ابن رزيك، وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعري: (١٤٥)

«لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا»

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها:

عفا الله عنكم مالكم أيها الرهط
قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم
خيانتكم ما هكذا الود والشرط
جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم
محطاً فعنه ثقل همكم حطوا
ملكتم فأنكرتم قديم مودّتي
كأن لم يكن في البين معرفة قسط

فـدت مهجتـي مـن لا يـذم لمهجتـي
إذا حـاكمتـه وهـو في الحكـم مشتـط

ومـا كنـت أدري قبـل سطـوة طـرفـه
بـأن ضعيفـاً فـاتـراً مثلـه يسطـو

وأهيـف لـلاشفـاق مـن ضعـف خصره
يحل نطـاقـاً للقلـوب بـه ربـط

يـلازم قلبـي في الهوى القبـض مثلما
يـلازم كـف الناصر الملـك البسـط

مليـك حـوى الملـك العقيـم بضبطـه
كـريـم ومـا للمال في يـده ضبـط

إذا لثمـت أيـدي الملـوك فعنـده
مـدى الـدهـر إجـلالاً لـه تلثم البسـط

عنـالـك طـوعـاً نيـل مصر ودجلـة الـ
ـعراق ودان الغـرب والعجـم والقبـط

وللنيـل شـط ينتهـي سيبـه بـه
ونيلـك للـراجين نيـل ولا شـط

عـدوّك مثـل الشمـع في نـار حقـده
لـه عنـق اصـلاح فـاسـده القسـط

وهي ثمانية وثمانون بيتاً، ولسعادة الأعمى قصيدة طائية في السلطان سيأتي ذكرها.

قال العماد: ولما وصلت إلى السلطان ورغبت منه في الاحسان وجدته لأمري مغفلاً، ولشغلي مهملاً، ثم عرفت أن حسادي قالوا له: متى أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعث سره، فلما عرفت هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يعني، فقام بأمري، ونوّه بقدري وأراح سري وشدّ أزري.

- ٨١٨٨ -

فصل

فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد: ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أن الرجل قد استفحل أمره، وعظم شأنه، وعلت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقر قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه، فجهز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً، وقدّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً و ساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد، فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، و إنضم إليه من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جمع عظيم، ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماه وراسلهم وراسلوه، واجتهد أن يصالحهم فما صالحوه، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماه في تاسع عشر شهر رمضان، ثم سار عقيب انكسارهم، ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وبارين.

قال العماد: لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص، وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل إلى حلب نجدة، ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماه فحصروها وراسلوا في الصلح فقدم السلطان في خف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمي وغيرهما، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا وأن يرد عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردّ كل ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه، وهو في عسكر خفيف قالوا: ما خبره

صحيح فشرعوا في الاشتطاط، فطلبوا الرحبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكيف ألحق به في رضاكم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصاف، وعزم الانتصاف، فعبر السلطان إلى سفح قرون حماه خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه، ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدّمين، منهم: فرخشاه وأخوه تقي الدين، والتقوا فهزمهم السلطان ونزل في منزلتهم.

قال العماد: ومما نظمت في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة، فقد كان له فيها غناء وبلاء حسن منها:

ولقد ألفت نفارها وهويتها
إذ ليس ينكر للظباء نفار

يا جارة للقلب جائرة دعي
ظلمي وإلا قلت جار الجار

قلبي كطرفك ما يفيق افاقة
سكران ما دارت عليه عقار

صب بصب الدمع محترق الحشا
خطرت ببال بلائه الاخطار

لم يخش من خطر الهوى حتى حمى
ذاك القوام شبيهه الخفار

يذري الدموع كأنهن عوارف
لابن الملك شيركوه غزار

من آل شاذي الشائدين بنا العلى
أركانهن لهادم وشفار

حسنت بهم للدولة الأيام والـ
ـأعمال والأحوال والآثار

قد حاز ملك الشام يوسف الذي
في مصر تغبط عصره الاعصار

نصر الهدى فتــــوطـــد الاســـلام في
أيـــامــــه وتضعضـــع الكفـــار

ومنها :

لما لقيـــت جموعهـــم منظـــومـــة
صيرت ذاك النظـــم وهـــو نثـــار

ومنها:

في حـــالتـــي جـــود و بـــأس لم يـــزل
للتبر والأعـــداء منـــك تبـــار
تهب الألـــوف ولا تهاب ألـــوفهـــم
هـــان العـــدوّ عليـــك والـــدينـــار
لما جـــرى العـــاصي هنـــالـــك طـــائعـــا
بدمائهم فجرت به الأنهار
وتحطمـــت عنـــد القـــرون قـــرونهم
بـــل كلـــت الأنيـــاب والأظفـــار
عبروا المعـــرة مـــالكين معـــرة
والعـــار يملـــك تـــارة و يعـــار
أو مـــا كفـــاهـــم يـــوم حمص وكفهـــم
في بعلبـــك بمثـــاهـــا الانـــذار

قال: وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة منها:

لا تفـــن مـــن فـــرق الفـــراق الأدمعـــا
فهـــي الشهـــود على الغـــرام المدّعـــى
واستبـــق صبرك مـــا استطعـــت فـــإنـــه
عـــون لقلبـــك إن هما ائتمـــا معـــا

قلـــب أصـــابتـــه العيـــون ولم يـــزل
مـــن مسهـــا بـــالها جســـات مـــروّعـــا
مـــا بـــالـــه قـــد صـــدّ عنـــد صـــدودهـــم
عنـــي ولما ودّعـــوني ودّعـــا
ومـــن التحير أنني أبصرتـــه
في ظعنهـــم وســـألـــت عنـــه الأضلعـــا
أصبحـــت إذ شيعتهـــم لثـــلاثـــة
صبري وغمضي والفـــؤاد مشيعـــا

ومنها:
أو مـــا اتقيتـــم حين رعتـــم سربـــه
فيـــه تقـــي الـــديـــن ذاك الأروعـــا
عمـــر بـــن شـــاهنشـــاه مـــن هـــو عـــامـــر
أركـــان ملـــك الشـــام حين تضعضعـــا
خضـــع العـــدوّ وذل بعـــد تعـــزز
لكـــم وحـــق عـــدوّكـــم أن يخضعـــا
مـــن معشر غـــريـــرون جميـــع مـــا
لم يبـــذلـــوه في السماح مضيعـــا
في مصر واليمـــن اجتلينـــا منهـــم
في عصرنـــا تبعـــاً ليـــوســـف تبعـــا
الحاويـــان بملـــك مصر ومكـــة
والشـــام واليمـــن الحظـــايـــا الأربعـــا
لما عصـــى الأعـــداء بـــالعـــاصي جـــرى
بـــدمـــائهـــم طـــوعـــا سيـــولا دفعـــا

وقال ابـن أبي طي: لما تسلم السلطـان بعلبك، وأزاح عللهـا، عاد إلى حمص ونزل بها، فـاتصل بـه ورود عز الديـن مسعود أخـي سيف الـدين صاحب الموصل نجدة للملك الصـالح، وكان سبب وروده أن جماعة من أمـراء حلب لما كـان السلطان نـازلاً على حلـب أجمعوا آراءهـم، وكاتبـوا

سيف الـدين وألـزموه نجـدة ابن عمـه، وأخبروه أن السلطان متـى ملك حلـب لم يكن لـه قصد إلا الموصـل، وأرسلوا بـذلك أمين الـدين هـاشما خطيب حلب، وقطب الدين ينال بـن حسان، وغرس الدين قليج، وكان سيف الـدين منازلاً لسنجـار، وفيها أخـوه عماد الدين زنكـي، وكان عماد الدين قـد أظهر الانتماء إلى السلطان فأنجده السلطان بقطعـة من جيشه فكسرهم ونهبهـم عماد الدين بهم وبعسكـره، فلما وصلت رسـالة الحلبيين إلى سيف الدين صـالح أخاه عماد الدين، وحشد عسكـره، وأنفذ يجيبهـم مع أخيـه عز الـدين مسعود، فـورد حلب بعـد رحيل السلطـان عنها إلى بعلبك، فاغتنـم الحلبيون بعد السلطان عنهـم، فاحتشدوا وخرجـوا جميعاً حتـى خيموا على حماه، وأخـذوا في حصارهـا، واتصل بـالسلطان ذلـك، فرحل من بعلبك إلى حمص ، وبلغ عز الـدين، فعاد عن حماه، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريـب من شيزر، وراسل النائب بحماه علي بـن أبي الفـوارس يقـول لـه: إنما وصلـت في إصـلاح الحال، ووضـع أوزار القتال، وسـأله مكـاتبـة السلطان فيما يجمـع الكلمة،ويلـم شعب الفـرقه، فكتب ابـن أبي الفوارس بـذلك إلى السلطان، وحسـن له الصلح، وتلطف في ذلك غـاية التلطف، وقدم أبو صالـح ابن العجمي، وسعد الـدين كمشتكين لطلـب الصلح فـأجابهما السلطـان إلى ما أرادوا وتقـرر الأمر على أنـه يردّ إليهـم جميع الحصـون والبلاد، ويقنـع بدمشـق وحدهـا، ويكون نـائباً للملك الصـالح، فلما عـاين سعد الـدين اجـابة السلطان إلى الصلح والنـزول عن جميع الحصون التـي أخذها حمص وحماه وبعلبـك طمـع في جـانــب السلطـان وتجاوز الحدّ في الإقتراح، وطلـب الرحبـة وأعمالها فقال: هي لابـن عمي ولا سبيـل إلى أخذها، فقـام سعد الدين من بين يـديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالـح ابن العجمي لأنه كان معـه فاجتهد السلطان بـه أن يرجع فلـم يفعل وخرج إلى عز الـدين مسعـود، وكان بعـد نـازلاً على حماه وحدّثـه مـا دار بينه وبين السلطـان، وهـون عليـه أبـو صـالـح أمر السلطـان، وأخبره بقلـة مـن معـه، وكـان

السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خف من أصحابه فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره، فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماه، وأخذ في مدافعة الأيام، حتى يقدم عليه باقي عسكره، وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها تسويفاً للأوقات، وتقطيعا للزمان حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد، فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحداً وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر، وضري عسكر حلب والعسكر الموصلي على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام السعادة للسلطان، فإنه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس في الكر والضرب الهبر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم، وكان السلطان في هذه المدّة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه وحمل إليهم الأموال وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره وإلا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة، فلما اشتدّ القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان، بل كانوا مثبطين مخوّفين لمن قرب منهم، ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه أن لا يوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ولا يذففوا على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم، ثم سار من وقته مجدا حتى نزل بمرج قرا حصار، ولم يزل هناك حتى عيد عيد

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة، وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماه، فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرّة وكفر طاب فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وأن لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السكة باسمه، ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه، عاد السلطان قاصداً دمشق، فلما وصل إلى حماه وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:

يا أيها الملك الغزير فضله
لقد غدوت بالعلى مليا

كفى أمير المؤمنين شرفا
أنك أصبحت له وليا

طارحك الودّ على شحط النوى
فكنت ذاك الصادق الوفيا

أولاك من لباسه زخرفة
لم يولها قبلك آدميا

ناسبت الروض سنا وبهجة
حتى حكته رونقا وريا

قال: ورحل السلطان من حماه إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام، وتطارح عليه وخدمه، وظنّ أن السلطان يقدّمه على عساكره فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

- ٥٩١٨ -

وقال العماد: نـزل السلطان قـرا حصار بنيـة الحصار، فجـاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقـالوا: اقنعوا بها أخذتموه إلى حماه ولا تشتموا بنا العـداه فاستـزدنا عليهم كفـر طاب والمعـرّة، واستوفينـا عليهم الأيمان المستقرّة، وسـألهم في المعتقلين أخوة مجد الدين، فـأجابوا وأفرجـوا عنهم، وتم الصلـح، وعم النجـح، ورحلنا ظـاهريـن ظافـرين، ونـزلنا حماه يـوم الاثنين ثـاني عشر شـوّال، وبها وصلـت إليـه رسـل الـديـوان العـزيـز بـالتشريفـات والتقليـد بها أراد مـن الولايـات، وأفـاضـوا على السلطـان وأقاربه الخلـع وخص ناصر الديـن محمد بن شيركوه بمـزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنـه رعاية لحق والده أسد الديـن رحمه الله، ثم تسلم السلطـان حصـن بعـريـن، وكـان بيد الأمير فخـر الـديـن مسعـود ابـن الزعفـراني، وهو مـن أكابـر أمراء نـور الديـن ، وذلك في أواخـر شوّال، وأقطع مدينة حماه لابـن خاله وصهره الأمير شهاب الديـن محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين

قـال العماد: وأذكـر أنـا عبرنـا نهر العاصي عـائديـن، وقـد انكسفـت الشمس وادلهم النهـار، وغلب على القلوب الاستشعـار وطاحـت الأنوار وخفيـت الرسـوم وظهرت النجـوم، وجئنـا حمص، ثم بعلبـك ثم البقـاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكـر ما قرره حسادي في خاطر السلطـان، وقالوا: شغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفـاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضـل، وهذا تصرّفـه برفـد جزيـل، ووجه جميـل، والسلطان مـع شدة رغبته، متـوقف، وإلى ظهـور وجه النجـاح في أمري متشـوّف، وكنت قـد أنست مدّة مقـامي بالعسكر بـذي المجد والمفخر ومورد الكـرم والمصدر الأمير نجم الدين بن مصال، وهـو ذو فضل وأفضال، وقبول واقبال، وله

من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إلى فضله ونباهته ونبله، وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرداً بسؤدده ومجده، وكان من أهل السنة والجماعة، والتقى والورع والعفاف والطاعة، وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الاحسان والبرّ لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصوراً، وكان احسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً، فلما ملك أحبه، واختار قربه، فلزمت له التودد وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشعراً، فمن ذلك ما كتبته إليه:

لعل نجم الدين ذا الفضل
يذكر الفاضل في شغلي
إن أجل الناس قدراً فتى
بفضله يتعب من أجلي
ومثله من يعتني بالعلى
ويستديم الحمد من مثلي

قال: وأوّل ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان منها:

عاينت طود سكينة ورأيت شمـ
ـس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
ببيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قسا في الفصاحة معجزا
فعرفت أني في فهاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل

وجميـــع مـــا في الأرض سبعـــة أبحـــر
وبحـــوره تسمـــى بعشر أنـــامـــل
في كفـــه قلـــم يعجـــل جـــريـــه
مـــا كـــان مـــن أجـــل ورزق آجـــل
يجري ولا جـــري الحســـام إذا جـــرى
حـــداه بـــل جـــري القضـــاء النـــازل
نـــابـــت كتـــابتـــه مغـــاب كتيبـــة
كفلـــت بهزم كتـــائب وجحـــافـــل
فعـــدوّه في عـــدوه ووليـــه
في عـــدلـــه أكـــرم بعـــادعـــادل
ريـــان مـــن مـــاء التقـــى صـــاد إلى
كســب المحـــامـــد وهـــي خير منـــاهـــل
يـــا واحـــد العصر الـــذي بـــذ الـــورى
فضـــلاً بغير مشـــابـــه ومشـــاكـــل
مـــالي وجـــاه الجاهلين فـــأغننـــي
عنهـــم كفيتهـــم وجـــد بـــالجاه لي
أرجـــوك معتنيـــا لـــدى السلطـــان بي
كـــرمـــا فمثلـــك يعتنـــي بـــأمـــاثلي
قـــرّر لي الشغـــل المبجـــل مخليـــا
بـــالي مـــن الهم المقيـــم الشـــاغـــل

قال: فدخـل الفاضل إلى السلطان وعـرّفه أنه فيّ راغب، وقـال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغـداً تكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات، وحل التراجم، والعماد يفي بذلك، ولك اختاره وقد عـرف في الدولة النورية مقداره، وأخـذ لي خط السلطان بما قرره لي من شغلي، وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلي.

قال وخـدمت أمير المؤمنين المستضيء بـالله في ذي القعدة مـع الرسـل بهذه القصيدة:

- ٥٩٨ -

أصح عقود الغانيات مريضها
وأفتك ألحاظ الحسان غضيضها

يقول في مديحها:

ومن عجب صلت لقبلة بأسهم
رؤوس أعاد من ظباهم محيضها

قال ابن أبي طي: وظهر في مشغرا قرية من قرى دمشق رجل ادّعى النبوّة، وكان من أهل المغرب، وأظهر من التخاييل والتمويهات ما فتن به الناس واتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى افساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل، وهوى امرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوّة.

قال: وفيها توفى شهاب الدين الياس الارتقي، صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

- ٨١٩٩ -

ثم دخلت سنة احدى وسبعين

قال العماد: والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جدبا، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد، ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يريشاً
فنسأل رب العلى أن تعيشا

من الناس بالبر صدت الكرا
م وبالبأس في البر صدت الوحوشا

وكم سرت من مصر نحو العريـ
ـش فهدّمت للمشركين العروشا

سرايـاك تبعث قدّامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا

ويوم حماة تركت العدا
ة كما طيرت بالفلا الريح ريشا

قال: ومدحت مستهل ربيع الأول تقي الدين بقصيدة موسومة، وكان قد فوّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما، ولم أسبق إليهما وهما:

يفيد العاقل اليقظ التغابي
ليدرك في الغنى حظ الغبيّ

ولم تصب السهام على اعتدال
بها لو لا اعوجاج في القسيّ

فقل للدهر يقصر عن عنادي
أما هو يتقي بأس التقيّ

حلفت بـــرب مكـــة والمصلى
وثـــاوي تـــرب طيبـــه والغـــريّ (١٤٦)
لأنتـــم يـــا بنـــي أيـــوب خير الـــ
ـــورى بعـــد الامـــام المستضيّ

قال: وفي أوّل هـذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد لموافقة قطب الدين قايماز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان والاحتراز، وكان قايماز هذا محكماً في الدولة الامامية، من أوّل الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافه ورام اتلافه حتى استعاذ منه برباط صدر الدين شيخ الشيوخ فسلم به، ثم إن قايماز خالف الخليفة، وشق العصى وعنّ له حصار الدار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لما احيط بداره إلاّ بفتح باب في جداره، وانهزم فوصل إلى الحله في أوائل ذي القعدة سنة سبعين وهو في موسم الحج فجمع رجاله وتوجه إلى الموصل وخانه أخوانه وخذله أصحابه فتوفي في بعض قرى الموصل، وتفرّق أصحابه في البلاد، فمنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى الشام منهم: حسام الدين تمريك، وعز الدين اقبودي بن ازغش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كريماً، فأقطعه في الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخليص ماله، واستقامة حاله، وكان ذا خزائن مملوّه، وخيل مسومه، فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصفح، وكان اقبودي زوج أخت السلطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فرخشاه ابن أخي السلطان.

قلت: وفي بعض الكتب المحررة عن السلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضلي: « وما نحسب أنا مع الموالاة المتناصرة المستظهرة والمساعي التي كانت لثارات هذه الدولة بالغة ولأعدائهم دافعة، ولمنازعيهم الأمر

قاصمه، ولمجاذيبهم الحق واقمة، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه، وكوننا ما أعنا منهم بنجدة من رجال ولا بمادة من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال، يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذي قربى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالاجبار عندنا واسعه، والأعواض لدينا غير متعذره، والولايات التي نفوّضها إليه عن كفايته غير مستغنيّه، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولآثر غير سلطانه سلطانا، وله إعذار لا بأس أن نعيره فيها لسانا وبيانا»، ثم ذكرها، ثم قال: «وهذا الأمير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصيا وبألسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا، وعن بقية الجماعة، فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للاسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول ندب في أمر هذا الأمير، والله وليّ التدبير».

وقال العماد في الخريدة: كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً و يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين:

سلطانها الملك ابن أيوب الذي
كفاه لا ينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحاً لما
نجيت يوم نداه من طوفانها
سمح يروح إلى الندى براحة
قد أعشب المعروف بين بنانها
وفتى إذا زخرت بحار نواله
غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه
أمضى على الأيام من حدثانها

ملك إذا جليت عرائس ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها
فأسلم صلاح الدين وابق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض إلى فتح السواحل نهضة
قادت لك الأعداء بعد حرانها

وهي طويلة.

قال: وقام اليوم الذي يليه وقد جلس السلطان للعدل، فأنشده قصيدة منها:

هل بعد جلق إلا أن ترى حلبا
وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائعة
وقد عنا لك منها الحصن والبلد

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أوّل مملكة الملك الناصر، فمدحه بقصيدة طائيه فأعطاه ألف دينار، فمنها يصف غارته على غزه، وعوده من ذلك الغزو بالعزه:

فتى مذ غزا بالخيل والرجل غزة
نأى عن نواحيها الرضى ودنا السخط
رماها بأسد ما لهنّ مرابض
ولا أجم إلاّ الذي تنبت الخط
وعاث ضواحيها ضحى بكتائب
من الترك لا نوب طعام ولا قبط

وله في السلطان قصائد (١٤٧) أخرى

قال: وقام البهاء السنجاري وأنشد الملك الناصر قصيدة في دار

العدل بدمشق سنة احدى وسبعين في شعبان منها:

يا ظبية الهرمين من مصر على الـ
ـربيع السلام إذا تقوّض أو عفا
اصبو إلى عصر تقادم عهده
فأزيد من وله عليه تلهفا
أحبابنا بالقصر لو قصرتم الـ
ـهجران ما شمت الحسود ولا اشتفى
أشكو إلى الوادي فيحنو بانه
من رقة الشكوى عليّ تعطفا

ومنها:

وجرى بي الأمل الطموح فأم بي
سلطان أرض الله طرا يوسفا
الناهب الأرواح في طلب العلى
والواهب الآجال في حسن الوفا (١٤٨)

فصل

فيما تجدد للمواصلة والحلبيين

قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والحلبيين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبوهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طريق الحزم، فحملوهم على النقض والنكث، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده، فلما خلا به، طالبه السلطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لهم وناولها إياه، فتأملها وأخفى سرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه

وردهـا إليه، وقـال: لعلها قـد تبدلـت، فعرف الـرسول أنـه قد غلـط ولم يمكنه تلافي ما فرط وقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهـم لنا واستئذانهم، وعرف مـن ذلك اليـوم أن العهـد منقوض، والـوفاء مـرفـوض، وشاع الخبر عـن المواصلـة بالخروج في الـربيـع، فكتب السلطـان إلى أخيـه العادل، وهـو نائبه بمصر يعلمـه بذلك، ويأمره أن يـأمر العساكر بـالاستعداد للخروج في شعبان

قلت: وفي كتاب طويل فاضلي جليل إلى بغداد عن السلطان « يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعـوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنـا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات إلى الكفر، وعرضنـا عليهم الأمانة فحملوهـا، والأيمان فبذلوها، وسـار رسولنا وحلـف صاحـب الموصل بمحضر مـن فقهـاء بلده وأمراء مشهده يمينـا جعل الله فيها حكما، وضيـق في نكثها المجال على من كـان حنيفاً مسلماً، وعاد رسـوله ليسمـع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختهـا أومى بيـده ليخرجها، فـأخرج نسخة يمين كانـت بين الموصليين والحلبيين، مضمونها الاتفاق على حـزبنا، والتـداعي إلى حـربنا، والتسـاعد على إزالـة خطبنا، والإستنفـار لمن هو على بعـدنا وقـربنـا، وقد حلـف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضـت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنـا هـذه يمين عـن الايمان خارجـه، وأردت عمـراً وأراد الله خـارجـه، وانصرف الرسول عـن بابنا وقد نـزهنا الله أن يكون اسمه معـرّضاً للحنث العظيم، والنكث الذميم، وعلمنا أن النـاقد بصير، والأخذ قدير، والمواقف الشريفـة النبويـة أعلاهـا الله مستخـرجة الأوامـر إلى الموصلي إما بكتـاب مؤكـد بأن لا ينقـض عهد الله مـن بعد ميثـاقه، و إمـا أن تكون الفسحـة واقعة لنا في تضييق خناقة».

ثم ذكر أمـر الفرنج ثم قـال:« والمملوك بين عدوّ اسلام يشـاركونه في

هذا الاسم لفظا ولا ينوون لما استحفظوا حفظاً، وعدوّ كفر فما يجاورهم إلا بلاده ولا يقارعهم إلا أجناده»، ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الاطراف « أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وأن يمتثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أن يكونوا بنيانا، فيعضدوها إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدّس الذي طابت النفوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرّته، فإن قعدت بهم العزائم وأخذتهم في الله لومة لائم، فلا أقل من أن لا يكونوا أعوانا عليه، يلقنونه عن قصده، حريصين على اتصال المكروه إليه»

قال ابن شدّاد: لما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخوله في طاعته، وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الدين، واعتصم بذلك، واشتدّ سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشدّ أمره ويقوي جأشه، فراسله في الصلح فصالحه، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر، والانفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقرّ قاعدة يصل عليها إليهم، فوصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كبيرة عزم فيها على العود مراراً حتى استقرّ اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب، وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه وضمه إليه وبكى، ثم أمره بالعود إلى القلعة، فعاد إليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدّة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم، وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزاً، ونزل وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعه جمع كبير وأهل ديار

بكر، والسلطان رحمه الله قد أنفذ في طلب العساكر من مصر، وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون أن التأخير تدمير، حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك، ووجهوا من كشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان ، وتفرق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا وتعبوا تعبئة القتال، وأصبح القوم على مصاف، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوّال، فالتقى العسكران وتصادما، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب، فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاه.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبرنا العاصي لله طائعين، وإلى المسار مسارعين، فما عرجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد، ونزلنا الغسولة، وجزنا حماه وخيمنا في مرج بوقبيس، وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم وماوراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوّة وشدّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس، فرتب السلطان عسكره، وقوّى بقوّة قلبه قلبه، وأمدّ الله بحزب ملائكته حزبه

ولما وصل المواصلة إلى حلب أطلقوا من كان في الأسر من ملوك

الفرنج منهم أرناط ابرنس الكرك، وجوسلين خال الملك، وقرّروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدرك، فلما عيدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبرنا العاصي عند شيزر، ورتبنا العسكر وأعدنا الائتمال إلى حماه.

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مثيهم وآلافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بمائهم، ووكل بسرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدّاه، ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدّمين، ثم منّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماه، وأطلقهم ثم نزل في السرادق السيفي، فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسي عزه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك، أسدي الجود، وفرقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود، ورأى في بيت الشراب، بل في السرادق الخاص طيوراً من القماري والبلابل والهزاز والببغا في الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فآنسه وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه، وسلم منا عليه، وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب، فلم يقف بعضهم على بعض، وظنوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض، فتبعجت خيولهم، وتموّجت سيولهم، وما صدّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلقون أبوابها، ويسكنون اضطرابها، وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تل السلطان إلى بزاعه، وجاوز في سوقه الاستطاعه، وفرق وفارق الجماعة

وفي كتاب ابن أبي طي ان ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرك إلى جانبها ليكون ردءا لها ومدداً فظنّ باقي العسكر أنه قد انهزم، فانهزموا

فحقق ما كان وهماً، فسار على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً، وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم، ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب، وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسير جواريه وحظاياه إلى حلب وأرسل إليه بالأقفاص، وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها الذمن مقاساة الحرب، ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره، واستعاذ من هذه البلية، وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماه، ثم ردّهم وخلع عليهم، وأرسلهم إلى حلب، وهنأ العماد للسلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي افضاله
حلو الجنى عالي السنا وضاحه
عاد العدوّ بظلمة من ظلمه
في ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه

حمل السلاح إلى القتال وما درى
أن الذي يجني عليه سلاحه
أضحى يريد مواصليه صدوده
وغدا يجيد رثاءه مداحه
إن أفسد الدين الغلاة بحنثهم
فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للإله مصمما
فيهم فلاح كما رأيت فلاحه

وكــأنني بـالســاحـل الأقصـى وقـد
سـاحـت بنحـر دم الفـرنجـة سـاحـه

فـاعبر إلى القـوم الفـرات ليشربـوا الـ
ـموت الأجـاج فقـد طمـى طفـاحـه

لتفـك مـن أيـديهم رهـن الـرهـا
عجـلا ويـدرك ليلهـا إصبـاحـه

وابغـوا الحران الخلاص فكـم بها
حـرّان قلـب نحـوكـم ملتـاحـه

نجـوا البـلاد مـن البـلاء بعـدلكـم
فـالظلـم بـاد في الجميـع صراحـه

واستفتحـوا مـا كـان مـن مستغلـق
فيهـا فـربكـم لكـم فتـاحـه

أنتم رجـال الـدهـر بـل فـرسـانـه
ولـدى الحلـوم الطـائشـات رجـاحـه

فتـاكـه نسـاكـه ضراره
نفـاعـه منـاعـه منـاحـه

وأبـو المظفـر يـوسـف مطعـامـه
مطعـانـه مقـدامـه جحجـاحـه

وإذا انتـدى في محفـل فحميـه
وإذا غـدا في جحفـل فـوقـاحـه

قال: وكـان لعز الـدين فرخشـاه في هذه الوقعـة يد بيضـاء وهو محب للفضل وأهلـه، باعث للخـواطر على مدحه ببـذله، فنظمت فيـه قصيدة منها:

نصر أنـار للكـم بـرهـانـه
وعـلا لـذلـة شـانئيكـم شـانـه

مـا أسعـد الاسـلام وهـو مظفـر
وأبـو المظفـر يـوسـف سلطـانـه

الملـــك مـــرفـــوع لكـــم مقـــداره
والعـــدل مـــوضـــوع بكـــم ميـــزانـــه
والـــدهـــر لا يـــأتي بغير مـــرادكـــم
فهـــل القضـــاء لأجلكـــم جـــريـــانـــه
وكـــأنما لله في أحكـــــامـــــه
فلـــك على إيثـــاركـــم دورانـــه
فخـــراً بنـــي أيـــوب إن فخـــاركـــم
بـــذّا الملـــوك الســـابقين رهـــانـــه
يكفـــي حســـودكـــم اعتقـــالاهمه
فكـــأنما أشجـــانـــه أشجـــانـــه
الـــديـــن عـــز الـــديـــن عـــز بنصركـــم
والكفـــر ذل بعـــونكـــم أعـــوانـــه
قـــد كـــان جيشكـــم كبحـــر زاخـــر
والـــلابســـون جـــواشنـــا حيتـــانـــه
فطما لهلكهـــم عليهـــم بحـــركـــم
بـــأســـا وغـــرق فلككـــم طـــوفـــانـــه
فضـــل الملـــوك الأكـــرمين بفضلـــه
فعـــلا زمـــانهم البهيـــج زمـــانـــه
في فضلـــه في عـــدلـــه في حلمـــه
صـــدّيقـــه فـــاروقـــه عثمانـــه
هـــو في السماح وفي اللقـــاء عليـــه
هـــو في العفـــاف وفي التقـــى سلمانـــه

مـــن آل شـــاذي الشـــائديـــن لمجده
ببنيـــه بيتـــا عـــاليـــا بنيـــانـــه
بيـــت مـــن العليـــاء ســـام شـــاهـــق
يبنـــي على كيـــوانها أيـــوانـــه
يـــا ســـالـــب التيجـــان مـــن أربـــابها
ومـــن الثنـــاء مصـــوغـــة تيجـــانـــه

والحمد مال أنتم بذاله
والمال حمد أنتم خزانه

قال: ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته، وواصل لذته، و الحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسقط في أيديهم حين أفرطوا في تعدّيهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدّوا وتلدّدوا، وتجادلوا ثم تجلدوا، وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة يهنيء بها السلطان بهذه الكسره:

وما شك قوم حين قمت عليهم
غداة التقى الجمعان أنك غالب
ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى
لنفسك في نفس العدّو مقانب

قال ابن أبي طي: وأما سيف الدين فإنه امتدّت به الهزيمة إلى بزاعة، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل، وصار باقي عسكر حلب إلى حلب في سابع شوّال في أقبح حال وأسوئه،عراة حفاة فقراء يتلاومون على نقض الأيمان والعهود، وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان وخيم عليها أياما، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والمعاقل والقلاع،فنفتحها فإنا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها فصوّبوا رأيه، فنزلوا على بزاعة فتسلمها بالأمان وولاها عز الدين خشترين الكردي.

-٨٢١٢-

فصل

في فتح جملة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه في الثاني والعشرين من شوّال، ثم فتح منبج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان، والسلطان لا ينال به احسان، بل كان في جر عسكر الموصل إليه أقوى سبب، ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره فسلم القلعة بما فيها، وقوّم ما كان سلمه ثلاثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات، وسامه على أن يخدم فأبى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره، وذهب ما جمعه، ومضى إلى صاحب الموصل فاقطعه الرقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين، قال العماد:

نـــــزولـــــك في منبـــــج
على الظفـــــــر المبهـــــــج

ونجحـــــــــك في المرتجى
وفتحـــــك للمـــــرتـــــج

دليـــــل على نجـــــح مـــــا
تحاول أو تـــــــــــرتجي

أمـــــــورك فيما تـــــــرو
م واضحـــــــة المنهـــــــج

وشـــــأنيـــــك دامـــــي الشـــــؤو
ن منـــــك شقـــــي شجـــــي

ومـــــن كـــــان في حصنـــــه
ومـــــن قبـــــل لم يخرج

يقـــــال لـــــه ليـــــس ذا
بعشـــــك قـــــم فـــــادرج

فـــــرأيـــــك يستنـــــزل الـــــ
ـــــنجوم مـــــن الأبـــــرج

فعجـــــل عبـــــور الفــــرا
ت وأسر وسر وأدلــــــــــــــــج
وعـــج نحـــو تلـــك البـــلا
د وعـــن غيرهـــا عـــرج
فحـــران والـــرقتـــا
ن تـــاليتـــا منبـــج
وجـــل عـــن المسلمـــــــ
ـــين ليلهـــم المدّجـــي

قال ابن أبي طـيّ : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصـن صعد إليه وجلـس يستعرض أمـوال ابـن حسان وذخـائره، فكـان في جملـة أموالـه، ثلاثمائة ألف دينـار، ومن الفضة والآنية الـذهبية والأسلحة والذخـائر ما يناهـز ألفي ألف دينـار، فحان من السلطـان التفانة فـرأى على الأكياس والآنية مكتوبـا يوسف، فسأل عن هـذا الاسم، فقيل له ولد يحبـه ويؤثره اسمه يوسف كان يدّخر هذه الأمـوال له، فقال السلطان أنا يوسف، وقد أخذت ما خبيء لي فتعجب الناس من ذلك.

قـال: ولما فرغ مـن منبج نـزل على عـزاز، ونصب عليهـا عدّة مجانيـق، وجدّ في القتال، وبذل الأموال.

قـال العماد: ثم نـزل السلطـان على حصـن عزاز، وقطـع بين الحلبيين وبين الفرنـج الجواز، وهو حصن منيع رفيـع فحاصره ثمانية وثلاثين يـوماً، وكان السلطـان قد أشفق على هـذا الحصن مـن موافقة الحلبيين للفـرنج فإن الغيـظ حملهم على مهادنة الفـرنج واطلاق ملـوكهم الذين تعـب نور الـديـن رحمه الله في أسرهـم، فـرجـى السلطـان أن يحتـاط على المعـاقـل ويصـونها صـون العقـائل، فتسلمها حـادي عشر ذي الحجـة بعـد مـدّة حصارها المذكورة، وقال العماد قصيدة منها:

أعطـــــاه رب العـــــالمين دولـــــة
عــزة أهـــل الـــديــن في اعــزازهـــا
حـــــاز العلى ببـــأســـه وجـــوده
وهـــو أحـــق الخلـــق بـــاحتيـــازهـــا
بحـــدّه أفنـــى كنـــوزاً أفنـــي الـــ
ـــملوك في الجدّ على اكتنـــازهـــا
مهلـــك أهـــل الشرك طـــرارومهـــا
أرمنهـــا أفـــرنجهـــا أبخـــازهـــا
تفـــاخـــر الاســلام مـــن سلطـــانــه
تفـــاخـــر الفـــرس بـــأبـــراوازهـــا
تهن مـــــن فتـــــح عـــــزاز نصرة
أوقعـــت العـــداة في اهتـــزازهـــا
واليـــوم ذلـــت حلـــب فـــإنها
كـــانـــت تنـــال العـــز مـــن عـــزازهـــا
وحلـــب تنفـــي كمشتكينهـــا
كما انتفـــت بغـــداد مـــن قيمازهـــا
بـــرزت في نصر الهدى بحجـــة
وضـــوح نهج الحق في ابـــرازهـــا
كـــم حـــامـــل للـــرمـــح عـــاد مبـــديـــا
عجـــز عجـــوز الحيّ عـــن عكـــازهـــا
ارفـــع حظـــوظـــي مـــن حضيـــض نقصهـــا
وعـــدّ عـــن همازهـــا لمازهـــا
والشعـــر لا بـــدّ لـــه مـــن بـــاعـــث
كحـــاجـــة الخيـــل إلى مهمازهـــا

قـال: وأغـار عسكر حلـب على عسكـرنـا في مـدّة مقامنـا على عـزاز فأخذوا على غرة وغفلـة ما تعجلوه وعادوا، فركب أصحـابنا في طلبهم فما أدركوا إلاّ فارسـا واحداً، فأمر السلطـان بقطع يده، بحكم جـرده، فقلت للمـأمور وذلـك بمسمـع مـن السلطان: تمهـل سـاعـة لعله يقبـل منـي

شفاعه، ثم قلت: هذا لا يحل، وقدرك بـل دينك عن هذا يجل، وما زلت أكـرر عليه الحديـث حتى تبسـم، وعادت عـاطفته ورحـم وأمر بحبسـه، وسرني سلامـة نفسه، ودخل ناصر الـدين بن أسـد الدين وقال: مـا هذا الفشـل والونـا وإن سكتـم أنتم فما أسكـت أنـا، ودمدم وزمجر، وغضـب وزأر، وقـال: لم لا يقتـل هـذا الـرجـل، ولماذا اعتقـل،فـوعظـه السلطـان واستعطفه، وسكن غضبه وتعطفه، وتـلا عليه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (١٤٩) وأطلق سراحه وتم في نجاته نجاحه.

فصل

في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز وكانت الأولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشيـة على السلطان ليلة الأحد، وهو نازل على عزاز وكان لـلأمير جاولي الأسدي خيمة قريبة مـن المنجنيقات، وكـان السلطـان يحضر فيها كـل يـوم لمشاهـدة الآلات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث على القتـال، وهو بار ببث أياديه، قار على الدهـر بكف عواديه، والحشيشية في زي الاجناد وقـوف والرجال عنده صفـوف، إذ قفز واحـد منهم فضرب رأسه بسكينـة فعاقتـه صفائح الحديد المدفـونة في لمته عـن تمكينه ولفحت المديـة خدّه فخدشتـه، فقوى السلطان قلبـه، وحاش رأس الحشيشي إليـه وجذبـه، ووقع عليـه وركبه، وأدركه سيـف الديـن يازكوج فـأخذ حشـاشة الحشيشي وبضعـة وقطعه، وجاء آخـر فاعترضه الأمير داود بـن منكلان فمنعه، وجـرحه الحشيشي في جنبـه فمات بعـد أيام، وجـاء آخـر فعـانقه الأمير علي بـن أبي الفـوارس وضمـه من تحت ابطيـه، وبقيـت يـد الحشيشي من ورائه لا يتمكـن مـن

الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه مـن الكرب فنادى، اقتلوني معه فقد قتلنـي وأذهب قـوّتي وأذهلني، فطعنـه ناصر الـدين بـن شيركوه بسيفـه، وخرج آخـر من الخيمـة منهزما، وعلى الفتـك بمن يعارضـه مقدمـا، فثار عليه أهل السوق فقطعوه، وأما السلطان فـإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث، وفزعه الكارث، وصوته جهوري، وزئيره قسوري، ودم خده سائل، وعطـف روعه مائل، وطوق كـزاغنده بتلك الضربـة مفكوك ونهج سلامتـه مسلوك، وكان سـلا سلامته ، وأقام القـوم قيامته ، ومـن بعد ذلـك رعب ورهـب واحترز واحتجب، وضرب حـول سرادقه على مثـل خشـب الخركاه تـأزيرا، ووقفـه تحجيرا، وجلس في بيـت الخشب، وبـرز للناس كالمحتجب وما صرف إلامن عرفـه، ومن لم يعرفه صرفه،وإذا ركـب وأبصر من لايعرفه في مـوكبه أبعده، ثم سأل عنه فـإن كان مستشفعـا أو مستسعدا أسعفـه واسعـده، ومـن كتاب فـاضلي الى العـادل: « السـلامـة شاملـة، والراحة بحمـد الله للجسم الشريـف الناصري حاصلـه، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خـدش قطرت منه قطرات دم خفيفـة، انقطعت لـوقتها، وانـدملت لسـاعتها والـركوب على رسمـه ، والحصار لعـزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا، ولا ما يشغل سراً».

وقال ابـن أبي طي: لما فتـح السلطان حصـن بزاعـة ومنبج أيقـن من بحلب بخـروج ما في أيديهم من المعـاقل والقلاع، فعـادوا إلى عادتهم في نصب الحبـائل للسلطان، فكـاتبوا سنـانا صـاحب الحشيشيـة مرة ثـانية ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على انفاذ مـن يفتك بالسلطان، فأرسل لعنه الله جماعـة من أصحـابه فجـاؤوا بزي الأجنـاد ودخلوا بين المقـاتلة، وباشروا الحرب، وأبلـوا فيها أحسن البلاء، وامتـزجوا بأصحـاب السلطان لعلهـم يجدون فـرصة ينتهـزونها، فبينما السلطـان يـومـاً جالسـاً في خيمـة جـاولي، والحرب قائمـة، والسلطـان مشغول بـالنظـر إلى القتال إذ وثـب عليـه أحـد الحشيشيـة وضربه بسكينـة على رأسـه، وكـان رحمه الله محترزاً خائفـاً من الحشيشية لا ينـزع الزردية عن بـدنه، ولا صفائح الحديـد عن

رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فمدّ يده بالسكينة إلى خدّ السلطان فجرحه، وجرى الدم على وجهه فتتعتع السلطان لذلك، ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعه على الأرض وركبه لينحره، وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل إنه كان حاضراً، فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله، وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان، ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام، وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح علي اقتلوه واقتلوني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركروه فطعن بطن الباطني بسيفه وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً فلقيه الأمير شهاب الدين محمود خال السلطان، فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف، وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب، كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلاّ من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر، وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها، وسألوا الأمان فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، وصعد إليها واصلح ما تهدّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر، وكانت عزاز أوّلاً للجفينة غلام نور الدين،

فلما ملك السلطان منبج أخـذها منه الملك الصالح وقـوّاها لعله يحفظها من الملك الناصر فلـم يبلغ ذلك، ولما فرغ السلطان من أمـر عزاز حقد على من بحلـب لما فعلوه من أمر الحشيشيـة، فسار حتى نـزل على حلب خامـس عشر ذي الحجة، وضربت خيمتـه على رأس الياروقية فـوق جبل جـوشن وجبـى أموالها، وأقطـع ضيـاعها، وضيـق على أهلها، ولم يفسـح لعسكره في مقـاتلتها، بـل كان يمنع أن يـدخل إليهـا شيء أو يخرج منها أحد، وكان سعد الـدين كمشتكين في حارم، وكانت اقطاعـه في يد نوابه، وكـان انتزعهـا من يـد أولاد الـداية بعـد أن عصـى نائبهـا، وكان سبـب خـروجه إليهـا أن السلطان لما نـزل على عـزاز خاف كمشتكين أن ينتقـل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نـزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونـه خارجـاً في حارم، وخـاف أن يجري بين السلطان وبين الأمـراء الحلبيين صلح فـلا يكون له فيه ذكـر ولا اسم، فراسل السلطـان يتلطف معـه الحال ويقـول : لـو فسـح لي في الدخـول إلى حلـب لسـارعـت في الخدمـة وأصلحت الأمـر على ما يـرومـه السلطان، وراسـل أيضاً الملـك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلـت خارجاً، وقد بلغتني أمور ولا بـدّ من طلبـي مـن الملك النـاصر ليـأذن لي في الصيرورة إليكم فـإن الذي قـد حصل عنـدي لايمكنني الكـلام فيه، فـراسل الملـك الصالـح السلطان في الإذن له في الدخول إلى حلب، فـأذن له، وطلبوا الرهائن منه فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمـس الدين بن أبي المضا الخطيب، والعماد كـاتب الانشـاء وأنفذوا مـن حلب إلى السلطـان رهينة نصرة الـدين بـن زنكي.

وحكـى العماد الكاتـب قـال: لما حصلنا داخـل حلـب أخـذنا بـرأي العـدل ابن العجمـي وجعلنـا في بيت، ومنـع منـا غلماننا، ولم يحضر لنـا طعام ولا مصباح، وبتنا في أنكد عيـش، وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلـب فلما أصبحـوا أحضرت أنـا وابن أبي المضـا إلى مجلـس الملـك الصالح، وكـان عنده ابن عمه عز الـدين مسعود بن مـودود، وجماعة من

أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدّث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويضرب صفحاً عني ويوهم الجماعة أني وأني

وما درى الغمر بأني أمرؤ
أميز التبر من الترب
قد عارك الأهوال حتى غدا
بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدهر فلو أمه
بخطبه ماريع للخطب

قال: وعرضت نسخة اليمين علينا، وصرفنا، ولم يلتفت إلينا، فلما صارا إلى السلطان وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب، فأطلق نصرة الدين، وقاتل أهل حلب، ولم يزل منازلا لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

فصل

في بواقي حوادث هذه السنة ودخول قراقوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوّال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق، وذكر ابن شداد أنه قدم في ذي الحجة.

قلت: ولما سمع السلطان بقدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوّله: «أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا»، وقال في آخره: «ولقد أحسن عدنان المبشر إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه، وغرس في القلوب ما يسرّنا ويسرّه حتى غرسه»

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها، وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال.

قال: وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس، وكا صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الأتاوة والرشوة يبق لكم، واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلا على حصن يعرف بالخضرا يحاصره، فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خطك وعلامتك، قال:كأنه هو، قال: بأي شيء استحققت منك هذا، وقد قرّبت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل اقليمك، وأراه الكتاب، فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ولا يعرفه ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره، فلم يصدّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل بين يديه صبراً، فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة، ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن، وتوجه إلى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون وكان مقامه بشبام، واستمرّ الكردي بها مدّة، ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد، واستقام أمره، وولى شمس الدولة ثغر تعز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولى قلعة تعكر مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة

وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر، وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيها قتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد، قتله ابن أخيه وملك بعده بصرى وصرخد شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على مايريده من اقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجوه التأويل، فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوّل عليه شمس الدولة في اليمين، وقبضه ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أن قتله.

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين، فأنفذ إليه من حلب عسكراً فحاصروه أياماً وسلم الحصن وصلحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه، فأخبر أن قلعة أزبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عمرت وسكنها أجناد أقوياء شجعان ملكت برقة، وإذا ملكت برقة ملك ما وراءها، فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش، وقدّمه على جماعة من أجناده ومماليكه، فصار إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها، واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدّثه عن بلاد الجريد وفزان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغبه في الدخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرّم من هذه السنة فكان

يكمـن النهار ويسير الليـل مـدّة خمسة أيـام وأشرف على مـدينة أوجلـة، فلقيه صـاحبها وأكرمه واحترمـه، وسأله المقـام عنده ليعتضد به ويـزوّجه بنته ويحفـظ البلاد مـن العرب وله ثلـث ارتفاعها، ففعـل قراقـوش ذلك فحصـل له مـن ثلـث الارتفـاع ثلاثـون ألـف دينـار، فأخـذ عشرة آلاف لنفسه، وفرق على رجاله عشرين ألفاً، وكـان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلـغ أهلها صنيـع قراقـوش في أوجلة وأنـه حرس غـلالهم، فصـاروا إليه ووصفـوا لـه بلدهـم وكثرة خيره وطيـب هوائه، ورغبـوه في المصير إليهم على أنهم يملكـونه عليهـم، فأجـاب على ذلك واستخلـف على أوجلة رجـلا من أصحـابه يقال لـه صباح، ومعـه تسعة فـوارس من أصحابـه فحصل لقراقوش أمـوال كثيرة، واتفق أن صاحب أوجلـة مات فقتـل أهل أوجلـة أصحاب قـراقوش، فجـاء قـراقوش وحـاصرها حتـى افتتحها عنـوة وقتل من أهلها سبعمائة رجـل، وغنم أصحابه منهـا غنيمة عظيمـة، واستولى على البلـد، ثم إن أصحـابه رغبـوا في الرجـوع إلى مصر وخشي قراقوش أن يقيم وحده، فرجـع معهم، فلما حصل بمصر طاب له المقـام، وثقل عليـه العود، وزوّجـه تقي الـدين بـاحدى جـواريه، وكـان استناب بـأوجلة وقـال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجـديد رجـال وأعود إليكم.

قال ابـن الاثير: وفيها في ربيـع الآخر استـوزر سيف الـدين صـاحب الموصل جـلال الدين أبـا الحسن علي بـن جمال الدين الـوزير رحمهما الله تعالى، وقد مكنه في ولايتـه، فظهرت منه كفاية لم يظنها النـاس، وبدا منه معرفـة بقواعـد الدول وأوضـاع الدواويـن وتقريـر الأمور، والاطـلاع على دقـائق الحسبانـات والعلم بصنـاعة الكتـابة الحسـابية، والانشـاء حيرت العقول، ووضـع في كتابـة الانشاء وضعا لم يعـرفوه، وكـان عمره حين ولي الـوزارة خمسـا وعشريـن سنـة، ثـم قبـض عليـه في شعبـان سنـة ثـلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الـدين بن نيسان وزيـر صاحب آمد، وكـان قد زوّجه بنتـه، فأطلق وسار إليـه وبقي بآمد يسيراً مـريضاً، ثم فارقهـا وتوفي

بدنيسر سنة أربع وسبعين، وحمل إلى الموصل فدفن بها، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، رحمه الله تعالى.

قال: ثم إن سيف الدين استناب دزداراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، وردّ إليه أزمة الأمور في الحل والعقد والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي لقبه أيضا زين الدين، فكان البلد لولد زين الدين اسما لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى

قلت: وفيها في حادي عشر رجب توفي حافظ الشام أبو القاسم علي ابن الحسن بن عساكر، صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التنوخي الجماهري الصوفي بن الصوفي، ذكره العماد في الخريدة، وقال: كان صديقي وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدين، وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد، وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها في الحقائق وأنشدها في مجلسه:

يا مالكاً مهجتي يا منتهى أملي
يا حاضراً شاهداً في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه
حتى إذا صرت تمثالاً من الصور
أجريت في قالبي روحا منوّرة
تمر فيه كجري الماء في الشجر
جمعت بين صفا روح منوّرة
وهيكل صغته من معدن كدر

- ٨٢٢٤ -

إن غبت فيك فيا فخري ويا شرفي
وإن حضرت فيا سمعي ويا بصري
أو احتجبت فسري منك في وله
وإن خطرت فقلبي منك في خطر
تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتها
وإن تغيبت عني عشت بالأثر

ثم دخلت سنة إثنتين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أن العقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلل، ولاذوا بالتوسل، وخاطبوا في التفضل، وطلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعف، وكفى وكف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها، واستقرأ كل عثرة لهم وأقالها، وأراد له الاعزاز فردّ عليه عزاز.

وقال ابن شدّاد: أخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة، سألت منه عزاز، فوهبها إياها .

قال ابن أبي طي: لما تم الصلح وانعقدت الأيمان، عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بانفاذ أخته، وكانت صغيرة فأخرجت إليه، فأكرمها السلطان إكراما عظيما، وقدّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة، وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل، فدخلت عليه، فقام قائماً وقبل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يردّ عليهم عزاز فقال: سمعاً وطاعة، فأعطاها إياها، وقدّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن له من حماه وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد: وحلفوا له على كل ما شرطه، واعتذروا عن كل ما اسخطه، وكان الصلح عاماً لهم، وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت في نسخة اليمين: أنه إذا غدر منهم واحد وخالف، ولم يف بها عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة حتى يفىء إلى الوفاء

والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق، فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عند الاسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البلية، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أنفارهم، وخرب ديارهم وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وهو متولي بعلبك ومقطع أعمالها، ومدبر أحوالها، والمتحكم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث.

قال ابن أبي طي: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان، وخروجه من بلاد الاسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدّة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، ووصل السلطان إلى حماه، وقد استكمل الظفر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الأخوان في المخيم بالميدان، وتحدّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجم

المصري أوّلها:

الشـوق أولـع بـالقلـوب وأوجـع
فعـلام أدفـع منـه مـالا يـدفـع

ومنها

وحملـت مـن وجـد الأحبـة مفـرداً
مـا ليـس تحملـه الأحبـة أجمع

لا يستقـر بي النـوى في مـوضـع
الا تقـاضـاني الترحـل مـوضـع

فـإلى صلاح الـديـن أشكـو أننـي
مـن بعـده مضنـى الجوانـح مـوجـع

جـزعـاً لبعـد الـدار منـه ولم أكـن
لـولا هـواه لبعـد دار أجـزع

فـلأركبـن إليـه متـن عـزائمـي
ويخب بي ركـب الغـرام ويـوضـع

حتـى أشـاهـد منـه أسعـد طلعـة
مـن أفقهـا صبـح السعـادة يطلـع

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها، فقلت: فذكر قصيدة منها:

مـولاي شمـس الـدولـة الملـك الـذي
شمـس السيـادة مـن سنـاه تطلـع

مـالي سـواك مـن الحوادث ملجـأ
مـالي سـواك مـن النـوائب مفـزع

ولأنـت فخـر الـديـن فخـري في العلى
ومـلاذ آمـالي وركنـي الأرفـع

الا بخـدمتـك المجلـة مـوقعـي
والله مـا للملـك عنـدي مـوقـع

وبغير قــــربــــك كلما أرجــــوه مــــن
درك المنــــى متعــــذر متمنــــع
للنصر إن أقبلــــت نحــــوي مقبــــل
واليمــــن إن أسرعــــت نحــــوي مسرع

قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم إلى مصر السفر.

فصل

في ذكر جماعة من الاعيان تجدّد لهم ما اقتضى ذكره في هذه السنة

قال العماد: في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين إذذاك يتولى الشحنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنكية إلى الملك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فرمنه فات وقت تلافيه، فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولم يؤاخذه بجرمه، واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه، وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك

إرادته بادارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفر حظه من الذهب، وملكه داراً بالقاهرة نفيسة جميله جلية جليله، ورتب له وظائف، وخصه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشام وأمره جار على النظام، ولما اشتدّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جوهره العرض، أراد أن يبقى القضاء في ذويه، فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الديّن ابن أخيه علما منه بأن السلطان يمضي حكمه لأجل سوالفه، ويجعله عنده من عوائد عوارفه، ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله، باراً بالأبرار، مختاراً للاخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام، وقد قوّاه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه، وسدّد مرامي مرامه، وهو الذي سن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق ومدارسها والبيمارستان، فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان، وتوفي ونحن بحلب محاصرون، وذكر العماد في الخريدة لابنه محيي الدين قصيدة في مرثيته منها

ألموا بسفحي قاسيون فسلموا
على جدث بادي السنا وترحموا

وبالرغم مني أن أناجيه بالمنى
وأسأل مع بعد المدى من يسلم

لقد عدمت منك البرية والداً
أحسن من الأم الرؤوف وأرحم

ولا سيما أخوان صدق بجلق
هم في سماء المجد والجود أنجم

نشرت لواء العدل فوق رؤوسهم
فما كان فيهم من يُضام ويظلم

لقيت من الرحمن عفواً ورحمة
كما كنت تعفو ما حييت وترحم (١٥٠)

قال العماد: وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن احسانه، وأبقى نواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه، وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السلطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الاحسان، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه والأقوم بالفتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا، والسلطان يؤثر أن يفوّض إليه منصب القضاء ولا يرى عزل الضياء، فأفضى بسر مراده إلى الأجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفاء ففعل فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الاملاك.

قال العماد: وأوّل ما اشتريت منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان، وكنت قد احتكرتها في الايام النورية، فملكتها في الأيام الصلاحية.

قلت: قد خربت هذه الاماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار، واستمر خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفي خارج باب الفرج ماراً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلاّ فقيه يعرف بالأوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي، وكان ينوب عن كمال الدين في أمره فأمره السلطان أن يجري على رسمه ويتصرف في حكمه، وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز عدته مناج، ففوّض إليه القضاء والحكم والانفاذ والامضاء على أن يتولى محيي الدين أبو

المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد قاضيين في دمشق يحكمان وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضاء منفرداً بالحكم والامضاء سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السلطان الملك المعظم فخر الدين، فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره، وأنه لا يقوم في القضاء بورده وصدره، ففوّض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه، واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صرف واستقل به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوّض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين ابن الزكي فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولاها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفيها في صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدّسي رحمه الله، وعلى من هو مدرسهم بهذا الموضع، من أصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النسابوري رحمه الله، ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله « الحمد لله وبه توفيقي»

قال العماد: وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ونحن في طريق الوصول إلى دمشق توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق وهو أوّل خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية، وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء، ويحضره الكرماء فيكثر خلعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرب

ولـده وجبر بتربيته يتمـه، ثم تعين ضيـاء الـدين ابـن الشهرزوري بعـده للرسـالة إلى الديوان، وصـارت منصباً له ينـافس عليه، واستتبت لـه هذه السفارة إلى آخـر العهد السلطاني، وذلك بعـد المضي إلى مصر والعود إلى الشام فإنه بعـد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنـة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبه، وهو متودّد إليّ بصفاء المحبة.

وفيها في آخـر صفر تـزوّج السلطان بالخاتـون المنعوتـه عصمة الـدين بنت الأمير معين الـدين أنر، وكانـت في عصمة نور الـدين رحمه الله، فلما توفي أقـامت في منـزلها بقلعة دمشـق رفيعة القـدر مستقلة بـأمرهـا، كثيرة الصدقات، والأعمال الصـالحات، فأراد السلطان حفظ حرمتهـا وصيانتها وعصمتها، فـأحضر شرف الديـن ابن أبي عصرون وعدولـه وزوجه إيـاها بحضرتهم أخوهـا لأبيها الأمير سعد الديـن مسعود بن أنر، بـإذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها، وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكـر العماد بعد وفـاة ابن الشهـرزوري وابن أبي المضـاء الأمير مؤيـد الدولة أبـا الحارث أسامة بن مرشـد بن سديد الملـك أبي الحسن علي بن منقذ وعـوده إلى الشام عنـد علمه بـوصول السلطـان، فقال: هـذا مؤيـد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وقد متعه الله بـالعمر وطـول البقاء، وهو مـن المعدوديـن من شجعـان الشام وفـرسـان الاسلام، ولم يـزل بنـو منقـد مـلاك شيـزر وقد جمعـوا السيـادة والمفخر، ولما تفرّد بـالمعقل منهم من تـولاه لم يرد أن يكون معه فيـه سواه، فخرجـوا منه في سنة أربع وعشريـن وخمسمائة وسكنوا دمشق وغيرهـا من البلاد، وكلهم من الأجواد الأمجاد ومـا فيهم إلاّ ذو فضل وبذل، واحسان وعدل، وما منهم إلاّ مـن له نظم مطبوع، وشعر مصنوع ومـن له قصيدة، وله مقطـوع، وهذا مـؤيد الدولـة أعرقهم في الحسـب، وأعرفهـم بالأدب، وكـانت جـرت له نبـوة في أيام الـدمشقيين وسافـر إلى مصر وأقام هنـاك سنين في أيام المصريين، فتمـت نوبة قتـل المنعوت بـالظافر وقتـل عباس

وزيرهم أخـوته وإقامة المنعوت بـالفائز، وما ردف ذلك مـن الهزاهز، فعاد مؤيد الدولة إلى الشام وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها، ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال:

حمدت على طـــول عمـــري المشيبـــا
وإن كنـــت أكثـــرت فيـــه الـــذنـــوبـــا

لأني حييــــت إلى أن لقيــــت بعــــــــ
ـــــــد العـــدوّ صـــديقـــا حبيبـــا

قال: وكنت أسمـع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشبيبـه، وأنشدني له مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هـذين البيتين، وهما من مبتكرات معانيه في سنّ قلعها:

وصـــاحـــب لا أمـــل الـــدهـــر صحبتـــه
يشقـــى لنفعـــي ويسعـــى سعـــي مجتهـــد

لم ألقـــه مـــذ تصـــاحبنـــا فحين بـــدا
لنـــاظـــريّ افترقنـــا فـــرقـــة الأبـــد

قال: فلما لقيته بـدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسـه، مع كثير من شعره المبتكر من جنسه.

قلـت: ومـن عجيـب مـا اتفق أني وجـدت هـذيـن البيتين مـع بيتين آخـريـن، المجمـوع أربعـة أبيـات في ديـوان أبي الحسين أحمد بـن منير الاطرابلسي، ومات ابن منير سنـة ثمان وأربعين وخمسمائة، قرأت في ديوانه وقال في الضرس:

وصـــاحـــب لا أمـــل الـــدهـــر صحبتـــه
يسعـــى لنفعـــي وأجنـــي ضره بيـــدي

أدنـــى إلى القلـــب مـــن سمعـي ومـــن بصري
ومـــن تـــلادي ومـــن مـــالي ومـــن ولـــدي

أخلـــو بـبشـــي مـــن خـــال بـــوجنتـــه
مـــداده زائد التقصير للمـــــدد

ثم قال: « لم ألقـه مذ تصاحبنا «البيت، فالأشبـه أن ابن منير أخذهما، وزاد عليهما، ولهذا غير فيهما كلمات، وقـد وجدت هـذا البيـت الأوّل على صورة أخرى حسنة: « وصاحب نـاصح لي في معاملتي»، ويجوز أن يكون أسامـة أنشدهما متمثـلاً فنسبا إليـه لما كان مظنـة ذلك، ويجوز أن يكـون اتفاقا، والله اعلم.

قال العماد: وشـاهدت ولـده عضد الـدين أبـا الفوارس مـرهفاً، وهـو جليس صلاح الـدين وأنيسه، وقد كتـب ديوان شعر أبيه لصـلاح الدين وهـو لشغفه بـه يفضله على جميـع الـدواوين ولم يـزل هذا الأمير العضـد مرهـف مصاحبـاً له بمصر والشـام وإلى آخر عصره، وتـوطن بمصر، فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملكه من أعمال المعـرة ضيعـة زعـم أنها كـانت قـديماً تجري في أمـلاكـه، وأعطـاه بدمشق داراً وإدراراً، وإذا كـان بدمشق جالسـه وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسـه، وكان ذا رأي وتجربـه وحنكة مهـذبة، فهـو يستشيره في نوائبـه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواتـه كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاتـه، واستخرج رأيه في كشف مهماتـه، وحل مشكلاته، وبلـغ عمره ستا وتسعين سنة فـإن مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتـوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدم مـن أخباره في قتل الأسد في شبيبته أيام كـونه بشيزر، وذكرت أيضا له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق.

- ٨٢٣٥ -

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأوّل

قال العماد: لما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمحلت من بعده من جود جود السحاب، وتقدّمه الأمراء والملوك، وخرج بكرة الجمعة ونزل بمرج الصفر، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي، فما نزلت منزلاً إلاّ نظمت أبياتاً فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره:

أقول لركب بالخيارة نزل
أثيروا فما لي في المقام خيار
هم رحلوا عنك الغداة وما دروا
بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يحبه
وفي القلب من نار الغرام أوار
أجيروا من البلوى فؤادي فعندكم
ذمام له يا سادتي وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع

رأيتني بالفقيع منفردا
أضيع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غرر
مني فيا غبن صفقة البائع
صبري والقلب عاصيان وما
غير همومي وأدمعي طائعي

وقلت بالفوار:

تحدّر بالفوار دمعي على الفور
فقلت لجيراني أجيروا من الجور
وأصعب ما لاقيت أني قانع
من الطيف مذ بنتم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء:

ولم أنس بالزرقاء يوم وداعنا
أناملُ تدمي حيرة للتندّم
أعدّتك يا زرقاء حمراء إنني
بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبي عندهم متخلفا
وخالفتهم في عزمتي والتقدّم
فياليت شعري هل أعود إليهم
وهل ليت شعري نافع للمتيم

قال: وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك، وفيها تختطف الأفرنج القاصدين إلى مصر

طريق مصر ضيق المسلك
سالكه لا شك في مهلك
وحب مصر صار حبا لمن
أوقعه في شبك الشوبك
لكنها من دونها كعبة
محجوجة مبرورة المنسك
بها صلاح الدين يشكي الذي
إليه من أيامه يشتكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب، واتفق أن السلطان سير إلى مصر

الملك المظفر تقي الدين وكان لا يستدعي من شاديه إلا إنش
ناديه، ويطرب لسماعها ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله
كما فارقت بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي، وهي هذه:

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر
ولكن لمقدور أتيح من الأ
وأعلم أني مخطيء في فراقكم
وعذري في ذنبي وذنبي في ع
أرى نوب الدهر تحصى ولا أرى
أشدّ من الهجران في ثوب الد
بعيني إلى لقياسواكم غشاوة
وسمعي عن نجوى سواكم لذو
وقلبي وصبري فارقاني لبعدكم
فلا صبر في قلبي ولا قلب في ص
وإني على العهد الذي تعهدونه
وسري لكم سري وجهري لكم جه
تجرعت صرف الهم من كاس شوقكم
وها أنا في صحوي نزيف من الس
وإن زمانا ليس يعمر موطني
بسكناكم فيه فليس من العم
وأقسم لو لم يقسم البين بيننا
جوى الهم ما أمسيت مقتسم الف
أسير لإلى مصر وقلبي أسيركم
ومن عجب أسري وقلبي في
أخلائي قد شط المزار فأرسلوا الـ
ـخيال وزوروا في الكرى واربحوا أج
تذكرت أحبابي بجلق بعدما
ترحلت والمشتاق يأنس بالذ
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
فأسبلت دمعي للبكاء على ص

ولما قصدنا من دمشق غباغبا
وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا
موارد من ماء الدموع التي تجري
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت
فواقع من فيض المدامع في الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعي
ففاضت وباحت بالمكتم من سري
سرينا إلى الزرقاء منها ومن يصب
أواماً يسر حتى يرى الورد أو يسري
تذكرت حمام القصير وأهله
وقد جزت بالحمام في البلد القفر
وبالقريتين القريتين وأين من
مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
غشينا الغواشي وهي يابسة الثرى
بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثمد الحصى
ومن يرتجي ريا من الثمد النزر
فقلت اشرحي بالخمس صدراً مطيتي
بصدر وإلا جادك النيل للعشر
رأينا بها عين المواساة أننا
إلى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عيني على فيض عبرة
أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا إلى أرض السدير وجنة
هنالك من طلح نضيد ومن سدر

وجبنـــا الفـــلا حتـــى أصبنـــا مبـــاركـــا
على بـــركـــة الجب المبشر بـــالقصر
ولما بـــدا الفسطـــاط بشرت رفقتـــي
بمـــن يتلقـــى الـــوفـــد بـــالـــوفـــر والبشر
بكـــت أم عمـــرو مـــن وشيـــك تـــرحلي
فيـــا خجلتـــي مـــن أم عمـــرو ومـــن عمـــرو
تقـــول إلى مصر تصير تعجبـــا
ومـــاذا الـــذي تبغـــي ومـــن لـــك في مصر
فقلـــت: مـــلاذي النـــاصر الملـــك الـــذي
حصلـــت بجـــدواه على الملـــك والنصر
فقـــالـــت أقـــم لا تعـــدم الخير عنـــدنـــا
فقلـــت وهـــل تغنـــي الســـواقـــي عـــن البحـــر
ثقـــي بـــرجـــوع يضمـــن الله نجحـــه
ولا يقتضي أن نبـــدل العسر بـــاليسر
عطيّتـــه قـــد ضـــاعفـــت منـــه الـــرجـــا
ونعمتـــه قـــد أضعفـــت منـــة الشكـــر

قال: وكـان الدخول إلى القاهـرة يوم السبت سـادس عشر ربيع الأوّل بالزي الأجمل، والعـز الأكمل، وتلقى السلطان أخوه ونائبـه الملك العادل سيف الـدين إلى صـدر، وعبر إلينا عنـد بحر القلـزم الجسر وتلقانـا حيز مصر ، ووصلت إلينا ثمراتها، وجليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها

وزاد اغتباطها، ودخـل السلطان داره، ووفق الله في جميع الأمـور ايراده واصداره، وكانت قـد صعبت عليّ مفارقة دمشق وأهلها لقلـة الوثوق بأني أحصل بمثلهـا، فنظمت يوم خـروجي منها أبياتـاً إلى ناصر الديـن محمد ابن شيركوه منها:

بمهجتـــي خنـــت العطـــ
ـــف مستلـــذ الـــدلال

يقول لي بانكسار
ورقة واعتلال
معاتبا بحديث
أصفى من السلسال
ما مصر مثل دمشق
بعت الهدى بالضلال
فقلت عنت أمور
عجيبة الأشكال
أسير في طلب ال
عز مثل سير الهلال
لم يبلغ البدر لولا ال
مسير أوج الكمال
وكيف أترك شغلي
وإنه رأس مالي
صلاح حالي صلاح ال
دين الغزير النوال
مالي أفارق ملكا
ملكته أمالي
يا ناصر الدين قلبي
عليه في بلبال

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة وسيدهم المولى الأجل الفاضل، وقد مدحه بقصيدة منها:

كيف لا يغتدي لي الدهر عبداً
وأنا عبد عبد عبد الرحيم
بدوام الأجل سيدنا الفا
ضل يا دولة الأفاضل دومي
إذ أراه ينوب عني لدى الم
لك مناب الأرواح عند الجسوم

مــــالـــك الحل في المهالـــك والعقـــــــ
ـــــد وحكـم التحليـــل والتحـريــــم
معمــــل للنفـــــاذ في كـــــل قطـــــر
قلماً حــــــاكما على اقليـــــــم
يتلقـــــى الملـــــوك في كـــــل أرض
كتبـــه القـــادمـــات بـــالتعظيـــم
نـــاحـــل الجســم ذو خطـاب بــه يصـــ
ـــــغر الـــدهـــر كـــل خطــب جسيـــم

ثم ذكر الأخويـن تقي الدين عمر، وعز الدين فـرخشاه، وهما ابنا أخي السلطان، وهـو شاهنشاه بـن أيوب، وهمام الـدين بزغـش الشنباشي والي القاهرة، ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة منها:

شـــادن كـــالقضيـــب لـــدن المهـــزه
سلبـــت مقلتـــاه قلبـــي بغمـــزه
كلما رمـــت وصلـــه رام هجـــري
وإذا زدت ذلـــــة زاد عـــــزه
للصبـــا مـــن عـــذاره نســـج حســـن
رقـــم المســـك في الشقـــائق طـــرزه
وعـــزيـــز عليّ أن اصطبـــاري
فيـــه قـــد عـــزه الغـــرام وبـــزه
مـــا رأى مـــا رأيـــت مجنـــون ليلى
في هـــــواه ولا كثير عـــــزه
مـــا ذكـــرنـــا الفسطـــاط إلاّ نسينـــا
مـــا رأينـــا بـــالنيربين والارزه
فمهـــا الجيـــزة الجوازي لها الميـــ
ـــزة حسنـــا على ظبـــاء المزه
ونصيري عليـــه نـــائل عـــز الـــديـــن
ذي الفضـــل خلـــد الله عـــزه

ومنها

فــرّغ الكنـــز مـــن ذخـــائر مـــال
مـــالـثـــامـــن نفـــائس الحمـــد كنـــزه
همة مستهـــامـــة بـــالمعـــالي
للـــدنـــايـــا أبيـــة مشمئـــزه

قال العماد: وتـوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغـاني، والتنزه في الجزيـرة والجيزه، والأمـاكن العـزيزة، ومنـازل العز والـروضة، ودار الملـك والنيل والمقياس ومرامي السفن ومجاري الفلـك، والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الاحاديث النبويـة، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

قال: واقترحنـا على القاضي ضياء الديـن ابن الشهروزوري أن يفـرجنا في الاهـرام، فقد شغفنـا بـأخبـارها في الشـام، فخـرج بنـا إليها ودار بنـا حواليهـا ودرنا تلك البرابي والبراري والـرمال والصحاري، وأحمدنـا المقار والمقـاري، وهــالنـا أبـو الهول، وضــاق في وصفـه مجال القــول، ورأينـا العجـائب، ورويـنـا الغـرائب، واستصغـرنـا في جنـب الهرمين كـل مـا استعظمناه، وتداولنـا الحديث في الهرم ومن بناه، فكـل يأتي في وصفهما بما نقله لا بما عقله، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يـوجد من توقله، وحارت العقول في عقـوده، وطارت الأفكـار عن توهـم حدوده، فيالـه من مـولود للدهـر قبل الطوفان، انقـرضت القرون الخالية على آبـائه وجدوده، وسمار الأخبار بـذكر حديـث أجداث عاده وثمـوده، ويدل إحكامـه وعلوه على همة بـانيـه في بـأسـه وجـوده، وأن في الأرض الهرمين، كما أن في السماء الفـرقديـن وهما كـالطوديـن الراسخين، وكـالجبلين الشـامخين، قد فنيـت الدهور، وهما بـاقيان، وتقاصرت القصور، وهما راقيـان، وكأنهما لأم الأرض ثـديان، وعلى تـرائب التراب نهدان، ولسلطان العـالم علمان، وإلى مراقـي الأملاك سلمان، وهما لليل والنهـار رقيبان، ولرضوى ولشمام نسيبـان، ومن

زحل والمريخ قريبان، ولعوادي الخطوب خطيبان، ولثور الفلك روقان، ولشخص الكرة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والأعيان، فذكر منهم الناصح مؤدّب أولاد السلطان، وله دار مشرفة على النيل، وذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دار أيضاً على شاطىء النيل برسم ضيافة من نزل به، قال: ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده وانتقل بعد سنين إلى النعيم وخلده.

فصل

في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف، مفهرسة بالمعروف، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر، والحال والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث، وتساوى سمينها والغث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب، ولا دربة له بأسفار الأدب، وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها، ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغربت من مساكنها، وخربت أوكارها، وذهبت أنوارها، وشتت شملها، وبت حبلها، واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزأ مجلداً، إذا فقد منها جزؤ لا يخلف أبداً، فاختلطت واختبطت، فكان الدلال يخرج عشرة

عشرة من كل فن كتباً مبترة، فتسام بـالدون، وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدّة، وما فيها من عدّة، ويعلم أن عنـده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفق كتابـاً قد تقوّم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

قال: فلما رأيـت الأمر حضرت القصر، واشتريت كما اشتروا، ومـريت الأطباء كما مـروا، واستكثرت من المتاع المبتـاع، وحويت نفـائس الأنواع، ولما عـرف السلطان مـا ابتعته وكـان بمئين أنعم علي بها وأبـرأ ذمتي مـن ذهبها، ثـم وهب لي أيضـاً من خزانـة القصر ما عينـت عليه مـن كتبها، ودخلت عليه يـوماً وبين يديه مجلدات كثيرة، انتقيت لـه من القصر، وهو ينظر في بعضهـا، وبسط يـدي لقبضها، قال: وكنـت طلبت كتباً عينتها فقـال: وهـل في هـذه شيء منهـا؟ فقلـت: كلهـا ومـا استغنـي عنهـا، فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال.

قال:وكان السلطـان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكـل واحدة منهما سور لا يمنعهـا، فقال: إن أفـردت كل واحـدة بسور احتـاجت إلى جند مفـرد يحميها، وإني أرى أن أديـر عليهما سوراً واحـداً من الشـاطىء إلى الشاطىء ، وأمـر ببناء قلعة في الوسـط عند مسجد سعد الـدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهـر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظـم، ووجدت في عهد السلطان بيتـاً رفعه النواب وتكمل فيه الحساب، ومبلغه وهـو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيـه من سـاحـل البحـر والقلعة بـالجبـل تسعـة وعشرون ألفاً وثـلاثمائة وذراعان، من ذلـك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيـل والبرج بالكوم الأحمر بساحـل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بـالمقسم إلى حائط القلعـة بالجبل بمسجـد سعد الـدولة ثمانية آلاف وثـلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومـن جانب حائط القلعـة من جهة مسجد سعـد الدولة إلى البرج بـالكـوم الأحمر سبعـة آلاف ومـائتـا ذراع، ودائر القلعـة بجبـل

مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع القاسمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقها من إحكام العمل، وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة،ووظائف نفقاتها مستدرة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها بفرط الألمعية، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستانا للمرضى، وأستغفر الله بذلك واسترضى، ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهب إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأدّاها.

- ٨٢٤٦ -

فصل

في خروج السلطان إلى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفضل علياً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط، وكان له بها سبي كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلد يومين، ووهب لي منه جارية، ثم وصلنا إلى ثغر الاسكندرية، وتردّدنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر، وشاهدنا ما استجدّه السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقلت في معنى تنقلي في البلاد:

يوماً بحيٍّ ويوماً في دمشق وبالـ
ـفسطاط يوماً ويوماً بالعراقين
كأن جسمي وقلبي الصب ما خلقا
إلا ليقتسما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة:

يا باخلاً عند الوداع بوقفة
لو سامني روحي بها لم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل
ترك الفؤاد بدائه في المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته
مقدار إطفاء الحريق المشعل
إن أسر مرتحلاً ففي أسر الهوى
قلبي لديك مقيداً لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادي المبتلى
إذ كنت أنت معذبي والمبتلي

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود:

نزلت بأرض المنيتين ومنيتي
لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي
سأبلى ولا تبلى سريرة ودّكم
وتؤنسني إن مت في وحشة اللحد

قال: وعدنا من الاسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة، والسلطان متوفر في ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره، وإفاضة الجود واغزاره، وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره، وإشاعه العلم والإعلان بأسراره وإبداء شعار الشرع وإظهاره وابقاء المعروف على قراره، وإفناء أعلام الباطل وإنكاره.

وقال: ومن مدائحي في السلطان ما أنشدته إياه سادس شوّال:

فـــديتـــك مـــــن ظـــالم منصـــف
ونـــاهيـــك مـــن بـــاخـــل مسرف

ومنها:

أيبلـــغ دهـــري قصـــدي وقـــد
قصـــدت بمصر ذرا يـــــوســـــف

ويـــــوســـــف مصر بغير التقـــــى
وبـــذل الصنـــائع لم يـــوصـــف

فسر وافتـــح القـــدس واسفـــك بـــه
دمـــــاء متـــى تجرهـــــا ينظـــــف

وإهـــــد إلى الاسبتـــــار البتـــــا
روهـــــدّ السقـــوف على الأسقـــف

وخلـــص مـــن الكفـــر تلـــك البـــلا
د يخلصلـــــك الله في الموقـــــف

وفيها وصل رسل المواصلة، وصاحبي الحصن وماردين إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طي: وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، وأكرمه السلطان واحترمه، وقدم بعده رسول نور الدين قر ا أ رسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج فأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قراقوش إلى أوجلة وتلك البلاد، فجمع أموالاً ورجع إلى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزان باسرها.

- ٨٢٤٩ -

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لإرهاب العدوّ، وهو يركب للصيد والقنص والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص، واقترح عليّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحجة فقلت:

مولاي عز الدين فرخشه
الدهر من برجك لا يخشه

ومنها:

تلقاه سمح الكف دفاقها
طلق المحيا كرما بشه
إن شئت فوتا بالردى فالقه
أو شئت فوزاً بالعلى فاغشه
يديم بالأيدي وبالأيد في
حزي لهاه والعدى بطشه
كم ملك عاداكم لم يبت
إلا جعلتم عرشه نعشه
خوّفتم الشرك فلا قمصه
أمنتم يوما ولا فنشه
أورثك السؤدد يابن العلى
والدك السيد شاهنشه

وقال في الخريدة: كنا مخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدّة من وصل في قيد الاسار، فحضر ابن رواحة منشداً مهنئاً بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضاً بها وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد قصيدة منها:

لقد خبر التجارب منه حزم
وقلب دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل براً
وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجواري بالجواري
يمدن بكل قد مرجحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً
فمريان يبوح على مرن
زهت اسكندرية يوم سيقوا
ودمياط إلى المينا بغين
يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فأمسى
مناهم لو تبيتهم بأمن
تملك حولهم شرقاً وغرباً
فصاروا الاقتناص تحت رهن
أقام بآل أيوب رباطا
رأت منه الفرنجة ضيق سجن
رجا أقصى الملوك السلم منهم
ولم ير جهده في البأس يغني (١٥١)

وفيها أبطل السلطان المكس الذي كان بمكة على الحاج، وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين - يعني - قايماز دزدار قلعة الموصل في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان، وكلاهما متجاوران، قال: وتوفي في شهر ربيع الأوّل من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية،

وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع و ثمانين وأعيد إلى ولايتها بعد الافراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصله من أعمال شبختان، وأخذ منها وهو طفل، وكان عاقلاً خيراً ديناً فاضلا، تعلم الفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصوم، وله ورد يصليه كل ليلة، ويكثر الصدقة وبنى عدّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عدّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في الخريدة: تنزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد، وعرض الأجناد، فكتب الأسعد بن مماتي إليّ قصيدة في الملك الناصر، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كريم الخيم في الخيم
أهيف كالريم ذو شمم

عجبي للشمس إذا طلعت
منه في داج من الظلم

كيف لا تصمي لواحظه
ورماة الطرف في العجم

لا تصد قلب المحب لكم
لا يحل الصيد في الحرم

يا صلاح الدين يا ملكا
مذ براه الله للأمم

أضحت الكفار في نقم
وغدا الاسلام في نعم

إن يك الشطرنج مشغلة
لعليّ القدر والهمم

فهـــي في نـــاديـــك تـــذكـــرة
لأمـــــور الحرب والكـــــرم
فلكـــم ضـــاعفـــت عـــدّتها
بـــالعطـــاء الجسـم لا القلـــم
ونصبـــــت الحرب نصبتهـــــا
فـــانثنـــت كفـــاك بـــالقمـــم
فـــابـــق لـــلاقـــدار تـــرفعهـــا
وأمـــر الاقـــدار كـــالخدم(١٥٢)

وفيها تـوفي بالاسكندرية القـاضي الشريف أبو محمـد عبد الله العثماني الديبـاجي، مـن ولد الـديباج محمد بـن عبد الله بـن عمرو بـن عثمان بن عفان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي اليـاس، من بيت القضاء والعلم، وكان واسع الباع في علم الأحاديـث، كثير الرواية قيما بالأدب، متصرفاً في النظم والنثـر إلا أنه مقل من النظـم، أوحد عصره في علم الشروط وقـوله المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في الخريدة.(١٥٣)

-٨٢٥٣-

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسلطان مخيم بمرج فاقوس، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميمية في منتصف المحرم، وخدمه بها هناك في المخيم أوّلها:

ريم هضيم يروم هضمي
من سقم عينيه عين سقمي

إن رمت باعاذلي صلاحي
فخلني والهوى وزعمي

لو مسك يذكي الغرام قل لي
أنت نصحي أم أنت خصمي

أيا زماني الغشوم أقصر
إنك لا تستطيع غشمي

عبد الرحيم أضحى
عوني على خطبك الملم

الفاضل الأفضل الأجل
المفضل الأشرف الأشم

غيث غياث وجود جود
وبحر علم وطود حلم

يراعه في اليمين منه
تستخرج الدرّ من خضم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرم علم الدين الشاتاني، وهو من أدباء الموصل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر وأهدى النظم والنثر، واصطنعه عز الدين فرخشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رفده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها:

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى (١٥٤)

قلت: لم يـذكر العماد من هذه القصيـدة غير هذا البيت، وإنـه لقائم مقام قصائد كثيرة، والشـاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيـد، له ترجمة في تاريخ دمشق، وذكره العماد في الخريدة وذكر فيها من هذه القصيدة

يمينـــك فيهـــا اليمـــن واليسر في اليسرى
فبشرى لمن يـــرجـــو النـــدى منهما بشرى

قال العماد: وكانت الاعلام السلطانية صفراء لا يفارق نشرها نصراً

قلت:وفيها يقول بعض الفضلاء:

وأســـود خطـــب دونـــه الموت أحمر
أتـت بـالأيـادي البيـض أعـلامـه الصفـر
فمـذ ظهـــرت منصـوبـة جـزمـت بها
ظهـور العـدى مـن رفعهـا انخفـض الكفـر
واضحـــت تجوز الأرض شرقـا ومغـــربـــا
ولله في إعـــــــلاء رتبتـــــــه سرّ

وقال العماد: عـاد السلطان إلى القـاهرة، وأقام بها ثـم اهتمت بـالغزاة همتـه إلى غـزة وعسقلان، فخـرج يـوم الجمعـة ثالـث جمادى الأولى بعـد الصلاة، وخيـم بظاهـر بلبيس في خـامسه بخميسـه، ثم تقـدّمنا منـه إلى السـديـر، وخيمنا بـالمبرز ثـم نـودي خـذوا زاد عشرة أيام أخـرى زيـادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار.

قال العماد: فـركبت إلى سـوق العسكر لـلابتياع، وقـد أخذ السعـر في الارتفاع، فقلـت لغلامـي قد بدا لي وقـد خطر الرجـوع من الخطـر ببالي، فـاعرض للبيـع أجمالي وأثقـالي، وانتهـز فرصـة هـذا السعـر الغالي، وأنـا صاحب قلـم لا صاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هـذه الغزوة من عاقبـة ندم، والمدى بعيد، والخطـب شديد، وهذه نـوبة السيوف لا نـوبة الأقـلام، وفي سلامتنـا سلامـة الاسلام، والـواجب على كـل منا أن يلـزم

شغلـه، ولا يتعدّى حـدّه ولا يتجـاوز محله، لا سيما ونـواب الـديوان قـد استـأذنوا في العـودة، وأظهـروا قلة العـدّة، وأظهـرت سري للمولى الأجـل الفاضل، فسره ذلك اشفـاقا علي واحسانا إليّ، وكان السلطان أيضـاً يؤثر ايثـاري، ويختار اختيـاري فقال لي: أنـت معنـا أو عزمـت أن تدعنـا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمـر للمولى، وما يختاره لي فهو أولى، فقال: تعـود وتدعو لنـا وتسأل الله أن يبلغنـا من النصر سـؤلنا، وكنـت قد كتبـت أبياتـا إلى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز في العشرين من الشهر:

قيـل في مصر نـائل عـدد الرمـــل ووفـر كنيلهـا الموفـور
فـاغتررنـا بهاوسرنـا إليهـا ووقعنـا كما تـرى في الغـرور
وحظينـا بـالـرمـل والسير فيـه ومنعنـا مـن نيلهـا الميسـور
وبـرزنـا إلى المبرز نشكـو سـدرا مـن نـزولنـا بـالسـديـر
قيـل لي سر إلى الجهـاد ومـاذا بـالـغ في الجهـاد جهـد مسيري
ليـس يقـوى في الجيـش جـأشي ولاقـو سي يـرى مـوتـوراً إلى مـوتـور
أنـا للكتـب لا الكتـائب إقـدا مـي وللصحـف لا الصفـاح حضـوري
كـاد فضلي يضيـع لـو لا اهتمام الـفاضل الفـائض النـدى بـأمـوري
فـأنـا منـه في مـلابـس جـاه رافـلاً منـه في حبير حبـوري
فهـو رقـى مـن الحضيـض حظـوظـي وسما بي إلى سريـر السرور

وقال: ومـا انقطعت عـن السلطان في غزواتـه إلا في هذه الغـزوة، وقد

عظم الله فيها من النبوة، وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة، والسعادات فيها مجدّدة، وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت وتشوّقت إلى أصدقائي وتشوّشت، وكتبت من المخيم ببلبيس إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، وقد أقام بالقاهرة وكان صاحباً لي من الأيام النورية، واستشرته في التأخر عن السلطان، فكتب في الجواب: رافقه ولا تفارقه، فكرهت رأيه فكتبت إليه:

إذا رضيتم بمكروهي فذاك رضا
لا أبتغي غير ما تبغون لي غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب في مرضي
فإنني مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبي فصرت له
متعذباً استلذ الهم والمضضا
أصبحت ممتعظاً من أجل أني لا
أرى صديقاً لما ألقاه ممتعضا
إن رمتم عوضاً بي في محبتكم
فحاش لله أن أبغي بكم عوضا
لله عيش تقضى عندكم ومضى
وكان مثل سحاب برقه ومضا
العيش دان جناه الغض عندكم
والقلب محترق مني بجمر غضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
حسبت أن ودادي عندكم رفضا
قد أظلم الأفق في عيني لغيبتكم
فإن أذنت لشخصي في الحضور أضا
ولست أوّل صب من أحبته
لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بما شئتم من محنة وأذى
فقد رأيت امتثال الأمر مفترضا

طوبى لكم مصر والدار التي قضيت
فيها المآرب والعيش الذي خفضا
بعيشكم إن خلوتم بانبساطكم
تذكروا ضجراً بالعيش منقبضا
رضيتم سفري عنكم واعهدكم
بسفرتي عنكم لا تظهرون رضا
هلا تكلفتم قولاً أسر به
هيهات جوهركم قد عادلي عرضا
تفضلوا واشرحوا صدري بقربكم
أو فاشرحوا لي ذا المعنى الذي غمضا

فكتب إلي في جوابها أبياتا منها:

لا تنسبوني إلى ايثار بعدكم
فلست أرضى إذا فارقتكم عوضا
ولي وداد تولى الصدق عقدته
فما تراه على الأيام منتقضا
يلقاك قلبي على سبل العتاب له
بصحة ليس يخشى بعدها مرضا
صرت كالدهر يجني أهله أسفا
ويلتقي من عتاب المذنب المضضا

قال: ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت

فصل

في نوبة كسرة الرمله وكانت على المسلمين بالجملةوذلك يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه

ورحل السلطان بعساكره، فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر وكسب وكسر، وجمع هناك من كان معه من الأسارى، فضرب أعناقهم، وتفرق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا، وتوسط السلطان البلاد، واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرملة راحلاً لقصد بعض المعاقل، فاعترضه نهر عليه تل الصافيه، فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافيه، فما شعروا إلاّ بالفرنج طالبة بأطلابها، حازبة باحزابها، ذابة بذئابها، عاوية بكلابها، وقد نفر نفيرهم وزفر زفيرهم، وسرايا المسلمين في الضياع مغيره، ولرحى الحرب عليهم في دورهم مديره، فوقف الملك المظفر تقي الدين وتلقاهم وباشرهم ببيضه وسمره، فاستشهد من أصحابه عدّة من الكرام، انتقلوا إلى نعيم دار المقام، وهلك من الفرنج أضعافها، وكان لتقي الدين ولد يقال له أحمد أوّل ماطر شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع في أسر الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه، وقال له تجيء إلى الملك وهو يعطيك الملك، وزورّ له كتابا فسكن إلى صدقه، وخرج معه فلما تفرد به شدّ وثاقه وغله وقيده وحمله إلى الداوية، وأخذ به مالاً، وجدّد عندهم حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير، وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير، فغلظ القلب التقوي على ذلك الولد جر هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه، قال: ولو أن لتقي الدين رداء لأردى القوم، لكن

الناس تفرقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم وصوب العدوّ بجملتهم حملتهم على السلطان، فثبت ووقف على تقدمة من تخلف، وسمعته يوما يصف تلك النوبة، ويشكر من جماعته الصحبة، ويقول: رأيت فارساً يحث نحوى حصانه، وقد صوّب إلى نحري سنانه، فكاد يبلغني طعانه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر، وشجعان المعشر، واتفق لسعادة السلطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه، وما فارقوه وقارعوا العدوّ دونه وضايقوه، فما زال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن أنه يتخلف، ودخل الليل، وسلك الرمل، ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل، وتعسفوا السلوك في تلك الرمال والأوعاث والأوعار، وبقوا أياما وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار، وآذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الأصحاب، وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر، وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير، ومن كان في صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقرب الأعداء فأكمنو في مغاره وانتظروا من يدلهم من بلد الاسلام على عماره، فدل عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم وسعى في أسرهم وعطبهم، فأسروا وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلاّ بعد سنين بستين أو سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكفار.

قال: وما اشتدّت هذه النوبة بكسره ولا عدم نصره، فإن النكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها وأدركت كل نفس مؤمنة مشتهاها، لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل، وأوعر السهل، وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل، وبما قدره الله تعالى من أسباب السلامة، والهداية إلى الاستقامة أن الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الاعداء باستصحاب الكنانية والأدلاء وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء فلما وقعت

الواقعة خرج بـدوابه وغلمانه وأصحابه وأدلائه وأثقالـه، وبث أصحابه في تلك الرمـال والوهاد والتلال، حتى أخذ خبر السلطـان، وقصده وأوضح بأدلائه جـدده، وفرّق ما كـان معه مـن الأزواد على المنقطعين، وجمعهم في خدمـة السلطان أجمعين، فسهل ذلـك الوعر وأنـس بعد الوحشـة القفر، وجبر الكسر، وكـان الناس في مبـدأ توجـه السلطـان إلى الجهاد، ودخـول الأجل الفـاضل معه إلى البـلاد، ربما تحدّثوا وقالـوا: لو قعد وتخلـف كان أولى بـه، فـإن الحرب ليست مـن دأبـه، ثـم عـرف أن السلامـة والبركـة والنجاة كـانت في استصحابه، وجـاء الخبر إلى القاهرة مع نجـابين فخلع عليهم وأركبـوا وأشيع بأن السلطـان نصره الله، وأن الفرنـج كسروا وغلبوا، فـركبت لأسمـع حديـث النجـابين، وكيف نصر الله المسلمين، وإذا هـم يقـولون :أبشروا فـإن السلطـان وأهله سـالمون، وإنهم واصلـون غانمـون، فقلت لرفيقي: مـا بشر بسلامة السلطان إلاّ وقد تمت كره، ومـا ثم سوى سلامته نصره، ولما قرب خـرجنا لتلقيه، وشكرنا الله على ما يسرّه مـن ترقيه وتوقيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصـف الشهر، ونابت سلامته مناب الـدهـر، وسيرنا بها البشـائر، وأنهضنـا ببطـاقـاتها الطائر لإخـراس ألسنـة الأراجيف، وإبـدال التأمين مـن التخويـف، فقد كـانت نـوبتها هـائلة، ووقعتها غائله.

قال القـاضي ابن شـدّاد: خرج السلطـان يطلب السـاحل حتـى وافى الفـرنج على الـرملة، وذلـك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقـدّم الفرنـج البرنـس أرناط، وكـان قد بيـع بحلب فـإنـه كان أسيراً بها مـن زمن نـور الديـن رحمه الله، وجرى خلـل في ذلك اليـوم على المسلمين، ولقد حكـى السلطـان قـدّس الله روحـه صـورة الكسرة في ذلـك اليـوم، وذلـك أن المسلمين كـانـوا قـد تعبّـوا تعبيـة الحرب فلما قـارب العـدوّ رأى بعـض الجماعـة تغيير الميمنـة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهـة القلـب ليكـون حال اللقـاء وراء ظهورهم تل معـروف بأرض الرملـة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفـرنج، وقدّر الله كسرهم، فـانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن

لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق، وتبدّدوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى، وكان وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين، فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها:

سقى الله العراق وساكنيه
وحياه حيا الغيث الهتون
وجيرانا أمنت الجور منهم
وما فيهم سوى واف أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدما
وفوا بالعهد في الزمن الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك منهم
بحلية سؤدد وتقى ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا
لخير رعية في خير دين
أسانيد السيادة عن علاهم
معنعنة مصححة المتون
بنو أيوب مثل قريش مجداً
وأنت لها كأنزعها البطين
أخفت الشرك حتى الذعر منهم
يرى قبل الولادة في الجنين
ويوم الرملة المرهوب بأسا
تركت الشرك منزعج القطين
وكنت لعسكر الاسلام كهفا
أوى منه إلى حصن حصين

وقـــد عـــرف الفـــرنـــج سطـــاك لما
رأوا آثـــــارهـــــا عين اليقين
وأنـــت ثبـــت دون الـــديـــن تحمـــي
حماه أوان ولى كـــل ديـــن

قـال: واهتم السلطـان بعـد ذلـك بإفـاضـة الجود، وتفـريق الموجـود، وانتقاد النـاس بالنقـود، والسنايـا الصادقـة الوعـود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد وتكثير المدد، وتعـويض ما نفق مـن الدواب، فسلوا ما نابهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طي: وقال ابن سعدان الحلبي يمدح السلطان: ويذكر ما فعله على عسقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة :

قـــربـــت مـــن عسقـــلان كـــل نـــائبـــة
بـــاتـــت تقـــل بـــوكـــاف مـــن الاســـل
فـــاض النجيـــع عليهـــا وهـــي ممحلـــة
فـــأصبحـــت مـــرتعـــا للخيـــل والإبـــل
قـــل للفـــرنجيـــة الخذلى رويـــدكـــم
بـــالثـــار أو تخرج الشعـــرى مـــن الحمـــل
تـــرقبـــوهـــا مـــن الفـــوار طـــالعـــة
خـــوارق الأرض تمحـــو رونـــق الاصـــل
كـــأننـــي بنـــواصيهـــن يقـــدمهـــا
كـــأس مـــن الجود عـــريـــان مـــن البخـــل
حسب العـــدا يا صلاح الـــديـــن حسبهـم
أن يقـــرفـــوك بجـــرح غير منـــدمـــل
وهـــل يخاف لســـان النحـــل ملتمـــس
مـــرت على أصبعيـــه لـــذة العســـل

-٨٢٦٣-

فصل

في وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي، وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدّم العسكر وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر، فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلاّ كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان، وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فمازالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم، وأوقعوا به لأجلها العظائم، فكتب إلى نوابه بها فنبوا وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوفوه بالصرعة فلما طال أمره قصر عمره، واستبد الصغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجرد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك .

وقال ابن الاثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه فعلق منكوسا ودخن تحت أذنه فمات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم أنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شدّاد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع

الفرنج بقتله نـزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخـرة، وقاتل عسكر الملـك الصالح العسـاكر الفرنجيـة، ولما رأى أهل القلعة خطـرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان، ولما عـرف الفرنـج بذلك رحلـوا عن حارم طـالبين بلادهـم، ثم عاد الصالـح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على اختـلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان قدّس الله روحه.

قـال العماد: ووصل في هـذه السنة إلى السـاحل مـن البحر كنـد كبير يقال لـه اقلندس أكبر طواغيـت الكفر، واعتقـد خلو الشام مـن ناصري الاسلام، ومن جملـة شروط هدنة الفرنـج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير مالهم في دفعـة تدبير أنهم يعاونـونه ولا يباينونـه، ويحالفونه ولا يخالفـونه، فإذا عاد عادت الهدنـة كما كانت ، وهانت الشدّة ولا نـت، وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجنـدوا الجنود، ونزلوا على حماه في العشريـن من جمادى الأولى، وصاحبهـا شهاب الـدين محمـود الحارمي مـريض ونـائب السلطان بـدمشق يومئـذ أخوه الأكبر تورانشـاه، وهو والأمراء مشغـولون بلـذاتهم، وكان سيـف الديـن علي بن أحمد المشطـوب بالقـرب فدخلهـا وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب، وجرت ضروب من الحروب، وكادت الفرنـج تهجم البلد فأخرجوهـم من الدروب، ونصر الله أهل الاسـلام بعد حصارهم لهم أربعـة أيام، فانهزم الملاعين، ونـزلوا على حصن حـارم كما تقدّم ذكـره، فرحلهـم عنه الملـك الصالـح بعد حصـار أربعة أشهر.

ومـن كتـاب فـاضلي إلى بغـداد: « خرج الكفـار إلى البـلاد الشـاميـة فاسخين لعقد كـان محكماً، غادرين غدراً صريحاً، مقـدّرين أن يجهزوا على الشام لما كـان بالجدب جريحاً، ونـزلوا على ظاهـر حماه يوم الاثنين الحادي والعشريـن مـن جمادى الأولى، وزحفـوا إليهـا في ثـانيـه، فخـرج إليهـم أصحابنا، وتضمـن كتاب سيف الديـن — يعني المشطوب — أن القتلى

من الفـرنج تزيـد على ألف رجل مـا بين فارس وراجل، شفـى الله منهم الصـدور، ورزق عليهـم النصر والظهـور، ثـم انصرفـوا مجمـوعـاً لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الأصلاب، مفرقـة أحزابهم عن المدينة المحروسة، كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب» .

قـال العماد: وتسامـع الحلبيـون بيوم رحيلنـا مـن مصر، لقصد الشـام، لنصرة الاسلام، وقالـوا: أوّل ما يصل صلاح الـدين نسلم حارم، فـراسلوا الفرنج وقاربـوهم، وأرغبوهم وأرهبوهم، وقالوا لهم: صـلاح الدين واصل، ومالكـم بعد حصولـه عندكم حـاصل، فرحـل الفرنج بقطيعـة من المال أخذوهـا، وعدّة من الأسـارى خلصوها، ثـم توفي خال السلطـان شهاب الدين محمـود بن تكش الحارمي في جمادى الآخرة، وتوفي ولـده تكش ابن خـال السلطان قبلـه بثـلاثـة أيام، وذلـك أوان وقعـة الـرملة، ولما سمـع السلطـان بنـزول الفـرنـج على حـارم رحل مـن البركـة يـوم عيـد الفطـر بعسـاكره، ووصـل إيلة في عـاشر الشهر، واستنـاب بمصر أخاه العـادل، وأقـام بها أيضاً القـاضي الفـاضل بنيـة الحج في السنـة القـابلة، ووصـل السلطان إلى دمشـق في الرابع والعشريـن من شوّال، وممـا نظمه العماد في التشوق إلى مصر قوله:

سـاكنـي مصر هنـاكـم طيبهـا
إن عيشي بعـدكـم لم يطـب
لاعـدمتـم راحـة مـن قـربها
فـأنـا مـن بعـدهـا في تعـب
بعـد العهـد بـأخبـاركـم
فـابعثـوا أخبـاركـم في الكتـب
ليـت مصرا عـرفـت أني وإن
غبـت عنهـا فـالهوى لم يغـب

ومن ذلك قوله

تـــــذكـــــرت في جلــــق داركـــــم
بمصر ويـــا بعـــد مــــا بيننـــا
ومـــا أتمنـــى ســـوى قـــربكـــم
وذلـــــك والله كـــــل المنـــــى
لكـــم بــــالجنــــان وطيــــب المقــــا
م وحســـــن النعيـــــم بمصر الهنـــــا

ومن ذلك أيضا

يـــا ســـاكنـــي مصر قـــد فقتـــم بفضلكـــم
ذوي الفضـــائل مـــن سكـــان أمصـــار
لله دركـــم مــــن عصبـــة كـــرمـــت
ودر مصركـــــم الغنـــــاء مـــــن دار

ومن ذلك أيضا

يــــا حبـــــذا مصر وبـــــر
كتهـــا وصـــدر والعـــريـــش
فهنــــاك أمــــلاكــــي الذيـــــــ
ــــــن سمـــت بعـــزهـــم العـــروش

قال: ووصل كتاب مـن الفاضل يذكر فيه أن العـدوّ خذله الله نهض، ووصـل إلى صدر، وقـاتل القلعـة ولم يتم لـه أمر، فصرف الله شره، وكفـى أمره، ووصل من الفـرنج مستأمن، وذكر أنهم يريـدون الغارة على فاقوس، فاستقلوا أنفسهـم، وعرجوا وذكر أنهم مضوا بنية تجديـد الحشد، ومعاودة القصد.

قال: وأما نوبـة العدوّ في الرملة، فقد كانت عثرة علينـا ظاهرها، وعلى الكفار باطنها، ولزمنا ما نسي من اسمهـا، ولزمهم ما بقي من عزمها، ولا دليل أدل على القـوة من المسير بعد شهريـن من تاريخ وقعتهـا إلى الشام

- ٨٢٦٧ -

نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة، والحشود الكبيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور.

قال العماد: ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة، وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر العطار، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الايراد والاصدار، وقد توفر على محبة السلطان، وتربية رجائه، وتلبية دعائه، ووصل كتابه ورسوله بكل ما سر السرائر ونوّر البصائر.

- ٨٢٦٨ -

فصل

في ذكر أولاد السلطان

قال العماد: وفي هذه السنة ولـد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود، وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه بـه ويقول: «إنه ولد لسبع بقين من ذي القعدة، وهـذا الولـد المبارك هـو الموفي لاثني عشر ولـداً بل لاثنـي عشر نجما متوقداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجـم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المولى يقظة، ورأى تلـك الأنجم حلما، ورآهم ساجديـن له، ورأينا الخلق له سجـودا، وهو قادر سبحانـه أن يزيد جدود المولى إلى أن يـراهم أباء وجدوداً».

قـال العماد: وكنت في بعـض الليـالي عنـد السلطان في آخـر عهـده، وجرى ذكـر أولاده، واعتضاده بهم واعتـداده، فقلت لـه: لو عـرفت أيـام مواليدهـم في أعوامها لأنشأت رسالـة على نظامها، فذكـر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم:

-- الملك الأفضـل نور الـدين أبو الحسـن علي، ولد بمصر ليلـة عيد الفطر عند العصر، سنة خمس وستين وخمسمائة.

-- العـزيز أبـو الفتـح عثمان، عماد الديـن، ولـد بمصر ثامـن جمادى الأولى سنة سبع وستين.

-- الظافـر أبو العبـاس خضر مظفر الـدين، ولـد بمصر في خامـس شعبان سنة ثمان وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه

--الظـاهـر أبو منصـور غـازي غيـاث الـدين، ولـد بمصر منتصـف رمضان سنة ثمان وستين.

— المعز أبـو يعقوب اسحـاق فتح الـدين، ولـد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبعين.

— المؤيد أبـو الفتح مسعود نجم الـدين، ولد بدمشـق في ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه.

— الأعز أبو يـوسف يعقوب شرف الدين، ولـد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو أخو العزيز لأمه.

— الزاهر أبو سليمان داود مجير الديـن، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين، وهو أخو الظاهر لأمه.

—المفضل أبو موسى قطب الديـن، ثم نعت بالمظفر، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الأفضل لأمه.

—الأشرف أبـو عبد الله محمـد عزيـز الديـن، ولد بـالشام سنـة خمس وسبعين وخمسمائة.

— المحسن أبـو العباس أحمد ظهير الدين، ولـد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين وهو لأم الأشرف.

— المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين، ولد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين.

قلت: ومـات سنة ثمان وخمسين، وهـي السنة التـي أخرب العـدوّ من التتار خذلهم الله تعالى مدينة حلب وغيرها والله أعلم.

— الجواد أبو سعيـد أيوب ركن الـدين، ولد في ربيـع الأوّل سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعز.

— الغالب أبـو الفتح ملكشاه نصير الديـن، مولده بالشـام في رجب سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعظم.

—المنصور أبـو بكر، وهو أيضـاً أخو المعظم لأبـويه، ولد بحـران بعد وفاة السلطان.

قلت: فهـذه خمسة عشر ولداً ذكـرهم العماد في هذا الموضـع، وقال في آخـر كتاب الفتـح القـدسي، على ما سنـذكـره في آخـر هذا الكتـاب أن السلطان، لما توفي خلف سبعة عشر ولداً وابنـة صغيرة، فقد فاته هنا ذكر اثنين وهما عماد الدين شـاذي لأم ولد، ونصرة الدين مـروان لأم ولد، وأما البنت فهي مـؤنسة خاتون تزوّجهـا الملك الكامل محمد على مـا سنذكره، وهو ابـن عمها الملـك العادل أبي بكر بـن أيوب، وللسلطـان غير هؤلاء الأولاد ممـن درج في حياتـه كـالملك المنصـور حسن وسيـأتي ذكـر وفاتـه والأمير أحمد وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هــلال كسفـا
وأي غصــن قصفـا
كــان سراجـا قـد طفـى
على الــورى ثـم انطفـا
لم يـركـب الخيـل ولم
يقلـدوه مـرهفـا
قـل للنحـاة ويحكـم
أحمد لم قد صرفا
صبرا صـلاح الـديـن يـا
رب السماح والـوفـا(١٥٥)

قال العماد: وورد من الفـاضل كتاب تاريخه منتصـف ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين ، يذكـر فيه فصولا متعدّدة منها: للمـولى أولاد وقد صاروا رجالاً، ويجب أن يستجيد للقلاع رجـالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً،

وقيل القلاع أنوف من حلها شمخ بها «ما في الرجال على النساء أمين»
ومنها أبيات في ذكر السلام:

مملوك مولانا ومملوك ابنه
وأخيه وابن أخيه والجيران
طي الكتاب إليه منه إجابة
لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام وإنه
يجزي بأحسن منه في القرآن
وغريبة قد جئت فيها أوّلا
ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
فرسولي السلطان في أرسالها
والناس رسلهم إلى السلطان

قلت: وقد وصف الفاضل الملك المؤيد في كتاب آخر فقال: « وقد تمطت به السنّ وامتدّت، وتأهبت السعادة لخطبته واعتدّت، ولا حظته العيون بالوقار، وطرفت دون جلالته وارتدّت».

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: « إعزازه لأهل الفضل دليل على فضله، وإن الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله، وما أبهجنا إذ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعالي كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العلم والعلم».

ومن كتاب آخر في المعنى: « فلقد زادت هذه المنقبة في مناقبه، ونظمت عقود سؤدد في ترائبه».

فما ترجم الانسان عن سر فضله
بأفضل من تقريبه لأولي الفضل

قال العماد: وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة نحو قارا، فشكوت ضرسي، وعدمت أنسي، فرجعت مع عز الدين فرخشاه لحمى عرته فشكا منها لا تزور إلاّ نهاراً جهاراً، ولا يفارق العرق بالضد من الحمى التي وصفها أبو الطيب المتنبي فنظمت فيه كلمة طويلة أوّلها:

يمينك دأبها بذل اليسار
وكفك صوبها بدر النضار
وإنك من ملوك الأرض طرّاً
بمنزلة اليمين من اليسار
وأنت البحر في بث العطايا
وأنت الطود في بادي الوقار

ومنها في وصف الحمى

وزائرة وليس بها حياء
فليس تزور إلا في النهار
ولو رهبت لدى الاقدام جوري
لما رغبت جهاراً في جواري
أتت والقلب في وهج اشتياق
ليظهر ما أواري من أواري
ولو عرفت لظى سطوات عزمي
لكانت من سطاي على حذار
تقيم فحين تبصر من أتاني
ثبات الطود تسرع في الفرار
تفارقني على غير اغتسال
فلم أحلل لزورتها إزاري

ومنها:

أيا شمس الملوك بقيت شمساً
تنير على الممالك والديار

ومنها:

أحماك استعـــارت لفـــح نـــار
لعـــزمـــك لم تـــزل ذات استعـــار

فصل

قال العماد: وفي العشر الأوّل من ذي القعدة قتل عضد الدين رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد على أيدي الملاحدة، وكان قد توجه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفْتا (١٥٦) غربي دجلة كهل في يده قصة يزعم إنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأومأ ليوصل قصته فانتهز فيه فرصته فقتله، وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقطع الملاحدة وأحرقوا واستقل ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدنا مصافيا.

قلت: وابن العطار هذا، هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين.

قال ابن الاثير: وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج، فعبر عضد الدين دجلة في شبارة، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل تقدّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا أحداً عنه، فتقدّم إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي فتوفي بها.

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها: « (وماربك بظلام للعبيد (١٥٧)) فقد كان عفا الله عنه قتل ولدي الوزير ابن هبيرة، وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى.

مـــــــن ذا يسر بـــــــذنبـــــــه
والـــــــدهـــــــر لا يغتر بـــــــه

وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق في القتل، وجده هو المقتول بيد البساسيري في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر، فهو من ذرّية لم تزل قاتلة مقتوله، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال دريد:

أبى الموت إلا آل صمة (١٥٨)

والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة، وقد ختمت له السعادة، بما ختمت به له الشهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله قال الله سبحانه: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (١٥٩)

إن المســـــاءة قـــــد تسر وربما
كـــان السرور بما كـــرهـــت جـــديـــرا
إن الـــوزيـــر وزيـــر آل محمـــد
أودى فمـــن يشنـــاك كـــان وزيـــرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سلمة الخلال أوّل وزير لبني العباس».

قلت: وبلغني أن الفاضل قال في ذلك:

وأحســـن مـــن نيـــل الـــوزارة للفتـــى
حيـــاة تـــريـــه مصرع الـــوزراء

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشهرزوري قد سار في الرسالة إلى بغداد، وتوقف في الموصل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه:

يـــــــدلى ابـــــــــن عشرون في لحده
والتسعـــــون صـــــاحبهـــــارا تـــــع

اغتبـط الولـد مـع نضارة الشبـاب المقتبـل، وعمر الـوالـد مع ذبـول المشيب المشتمـل، ليعلم أن الشيـب ليس بمسلـم، وأن الشباب الغـض ليس بمانع، وليكون العبد حذراً مـن بغتات الآجال في كل الأحوال، والله يطيل للمـولى العمر كما أطـال له في القدر، ويسمـع منه، ولا يسمـع فيه ويبقيه سنداً للدين الحنيفي فإن بقاءه يكفيه .

آخر الجزء الأول مـن الأصل المنقـول منه، الـذي هو بخـط المؤلف . ويتلوه في الجزء الثاني — إن شاء الله تعالى: ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة. والحمد لله وحده، وصلى الله على من لانبي بعده.

على يد العبد الضعيـف، المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف، محمـد بن أحمد البودري المغربي الأزهري، لطف الله به وبالمسلمين أجمعين.

وذلك في غـرة ربيع الأول مـن شهور ألـف ومائة وعشرون مـن الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصـلاة والسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

آخر الجزء الأول مـن الروضتين بـأخبار الـدولتين النوريـة والصلاحيـة لأبي شامة رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

ثم دخلت
سنة أربع وسبعين وخمسمائة

قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء وهو السابق إلى مكاتبة السلطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشام، وتدارك أمر الاسلام، وكان السلطان عند تسلم بعلبك أنعم بها عليه، ورد أمورها إليه، فأقام بها مستقرا ولأخلاف أعمالها مستدرا، ولما وصل السلطان في هذه النوبة إلى الشام، لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام، فإنه كان ينمي إليه أن الملك المعظم مجد الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طلبها من أخيه، وأنه لايمكنه الرد فخاف من الحضور أن تتم الأمور، وروجع في ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له أن يعوض عنها، ماهو أوفى منها، فأبى إلا الاباء وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء وشمس الدولة لايقبل عذرا، ولايرى عما طلبه صبرا، ثم استأذن أخاه في التوجه إليها فأذن له، وتوجه عز الدين فرخشاه إلى حوران لحفظ الثغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازما على الجهاد.

ووردت من الفاضل كتب من بعـض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى ماأمر بـه المولى شرع فيه، وظهر العمل وطلـع البناء، وسلكت به الطـريق المؤدية إلى الساحل بـالمقسم، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقـا مستديرا على البلـديـن وسـورا بـل سـوارا يكـون بـه الاسـلام محلى اليـديـن، محلاً الضديـن، والأمير بهاء الدين قراقـوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجـاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله.

ومنها في حـق نقل القضاء مـن شرف الدين بـن أبي عصرون لما ذهب بصره إلى ولـده: لـن يخلـو الأمـر مـن قسمين، واللـه يختـار للمـولى خيرة الأقسام، ولاينسى لـه هذا التحرج الذي لايبلغه ملك مـن ملوك الاسلام إما ابقـاء الأمر باسـم الوالد بحيـث يبقى رأيه ومشـاورته وفتياه وبـركته، ويتولى ولده النيـابة ويشترط عليهما المجازاة لأول زله، وتـرك الإقالة لأول عثرة، فطـالما بعـث حـب المنـافسـة الـراجحـة على إكتسـاب الأخـلاق الصالحة، وأما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الـدين، فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب، ولايجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه.

ومنها في إقامة عـذر التأخر عن الجهاد: وأما تـأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلـة من الفريضـة التي خـرج من بيته لأجلهـا، وتجدد العوائق التـي لايوصـل إلى آخـر حبلها، فللمـولى نية رشـده، وأليـس الله العـالم بعبده، وهو سبحـانه لايسأل الفاعـل عن تمام فعله لأنه غير مقـدور له، ولكـن عن النيـة لأنها محل تكليف الطـاعة، وعـن مقدور صـاحبها مـن الفعـل بحسـب الاستطـاعـة، وإذا كـان المولى آخـذا في أسبـاب الجهـاد وتنظيف الطرق إلى المراد، فهو في طـاعة قد امتن الله عليه بطـول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعـدها، والثواب على قدر مشقته وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعـد شقته، ولو أن المولى فتح الفتـوح العظام في أقل

الأيام، وفصل القضية بين أهل الاسلام وأعـداء الاسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت.

ومنهـا في ذكر أولاد السلطـان: وقبـل الإجـابة عـن الفصـول فنبشر بما جـرت العادة بـه لاقطـع الله تلـك العـادة مـن سلامـة وصحـة وعافيـة شملت مـوالينا وأولاده السـادة، أطاب اللـه الخبر إليهم عـن المولى، وإلى المولى عنهم، وعجل لقاءه لهم ولقـاءهم له، فإنهم من يلق منهـم، بل كل منهم ملك دسته برجه، وفارس مهده سرجـه، فهـم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها، وريحانة الحياة وزهرتها، وإن فؤادا وسـع فراقهم لواسع، وإن قلبا قنع بـأخبارهم لقـانع، وإن طرفا نـام على البعد عنهم لهاجـع، وإن ملكا ملك تصبره عنهـم لحازم، وإن نعمة اللـه فيهم لنعمـة بها العيش نـاعم، أما يشتـاق جيد المولى أن يتطوق بـدررهم، أما تظمـى عينه إلى أن تتروى بنظرهم، أمـا يحن قلبه على قلبه، أما يلتقـط هذا الطائر بتقبيلهم مـاخرج من حبه، وللمولى أبقاه الله تعالى أن يقول:

ومـــا مثـــل هـــذا الشـــوق تحمـــل مضغـــة
ولكــــــن قلبـــــي في الهوى متقلـــــب

وفي أخرى: والملـوك الأولاد في كفالـة العافية لارفعـت عنهم كفـالتها، وعليهـم جلالـة السلطنـة لافارقتهـم جلالتهـا، وكـل من الموالي السـادة الأمراء الأولاد والقـادة كلهم جـوهر، وكلهـم المقدم، وليـس فيهم بحمـد الله من يـؤخر على ماعود الله من صحـة وسلامه، وكفاية ووقـاية، ولزوم المستقبل منهـم لمشهد الكتـاب، ولموقف الأمـاج(١) ومخائل الخفر فيهـم مـن تحت ليل الصبـا أنور دلالـة مـن ضوء السراج، واللـه تعالى يمـد في عمر المولى إلى أن يرى مـن ظهورهم مارأى جدهم رحمه اللـه في أهل بيته مـن البطن الـرابع، فـوارس الحرب الرائعـة، وملوك الاسـلام التي منهـم لـلاسم أكـاسرةوتبابعـة، ومافيهـم عند العـلا صغير، وصغير أبناء الكبـار

كبار، نجوم الأرض،(وذرية بعضها من بعض)(٢) والخلف الصالح المحض،وهم في الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقى في يوم الحرب ويوم العرض.

ومنها في ذم ماء دمشق ووخمها: عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان، والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم توقد في قلوب الأولياء الأثر العظيم، وقليل قذاة العين غير قليل، وماذا يقول في بلد لو صحت الحمية من مائة، لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى، وشفائه، فإنه ماء يؤكل، وبقية المياه تشرب، ويجد وخامته من ينصف ولايتعصب.

ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتة من عصمه، وتطهير كل موسومة بوصمه، فالله يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيه بغضبه، وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه.

ثم أورد العماد فصولا كثيرة، وقال: إنما أودرت الفصول الفاضلية لأن في كل فصل منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة.

فصل

قال العماد: ومن جملة ما أغفلته ذكر ماأسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج، وتعويض أميرها بجلاب غلة إليه في كل سنة، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ماينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه، ويفك بما يطلبونه منه نفسه، وإذا كان فقيرا لايملك، فهو يحبس ولايترك وتفوته الوقفة بعرفة ولايدرك، فقال السلطان: نريد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعا استوعبها، ارتفاعا وانتفاعا، فلا يكون لأهل مكة فيها نصيب، فقرر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جده، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للإنتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدولة بدوام إحسانها، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومن هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفا، وخلد بها إلى قيام الساعة معروفا، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البشر وزال العبوس، واستمرت النعمى، وزال البؤس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لاعهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولاعهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها، انقطاع المكاسين عن جدة، وعن بقية السواحل، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله في الحج، فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ماأجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وماأولاه بأن يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قدر فيهما على خير

فأضاع فرضيته، بترك البدار، وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا، ومركبا وظهرا، وسلما وحربا، وبعدا وقربا، وتوافيهم على حماسه، وهو أنف في وجه الاسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام،ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال، والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولا وفعلا، والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة، وبفسحة وضع المكس خلق لايحصى، والمولى شريك في أجرهم، فليهنه إن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وإن المولى عمر بيت الله، فمن كرمه سبحانه أن يعمر بيت المولى، وماأشد خجل الملوك من النبي صلى الله عليه وسلم في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وماهكذا أوصى ابن اللمطي ولكن للغائب حجته.

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي، من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتي فيما بعد، أخبرني بها ثقة نقلها من خطه:

رفعت مغارم مكس الحجا
زبانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا
دفهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر

وكــم بــالــدعــاء لكــم كــل عــا
م بمكـــة مــن معلــن جــاهــر
وقـــد بقيـــت حسبـــة في فـــلا
ن وتلــك الــذخيرة للــذاخــر
يعنــف حجــاج بيــت الالــه
ويسطـــو بهم سطـــوة الجابـــر
ويكشـــف عما بـــأيـــديهم
ونــاهيــك مــن مــوقــف صــاغــر
وقـــد وقفـــوا بعـــد مـــا كشفـــوا
كـــأنهم في يــــد الآسر
ويلـــزمهـــم حلفـــا بـــاطـــلا
وعقبـــى اليمين على الفـــاخـــر
وإن عـــرضـــت بينهـــم حـــرمـــة
فليـــس لها عنـــه مـــن ســـاتـــر
أليـــس على حـــرم المسلميـــ
ـــن بتلــك المشــاهــد مــن غــائر
ألا حـــاضر نـــافـــع زجـــره
فيـــا ذلـــة الشـــاهـــد الحاضر
ألا نـــاصـــح مبلـــغ نصحـــه
إلى الملـــك النـــاصر الظـــافـــر
ظلـــوم تضمـــن مـــال الـــزكـــا
ة لقـــد تعســـت صفقـــة الخاسر
يسر الخيـــانـــة في بـــاطـــن
ويبـــدي النصيحـــة في الظـــاهـــر
فـــأوقـــع بـــه حـــادثـــا إنـــه
يقبـــح أحـــدوثـــة الـــذاكـــر
فما للمنـــاكير مـــن زاجـــر
ســـواك وبـــالعـــرف مـــن آمـــر

وحاشاك إن لم تزل رسمها
فما لك في الناس من عاذر

ورفعك أمثالها موسع
رداء فخارك للناشر

وآثارك الغر تبقى لها
وتلك المآثر للآثر

نذرت النصيحة في حقكم
وحق الوفاء على الناذر

وحبك أنطقني بالقريض
وما ابتغي صلة الشاعر

ولا كان فيما مضى مكسبي
وبئس البضاعة للتاجر

إذا الشعر صار شعار الفتى
بما حاز من ذكرك العاطر

قال العماد: وفي المحرم من هذه السنة توفي الحكيم مهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى، المعروف بابن النقاش البغدادي بدمشق، وكان كنعته مهذبا، ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا، وهو مبرز في فنه، حتى أن من شذا شيئا من الطب تنجح بأنه قرأ عليه، وتردد لاستفادته إليه، وقدراضته العلوم الرياضية، وأحكمت أخلاقه المعارف الحكمية

وفي الثاني عشر من جمادي الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مصال بمصر، وجاءنا نعية ونحن بحمص، فجاوز اغتمام السلطان برزئه حده، وجلس في بيت الخشب مستوحشا وحده، وقال: لايخلف الدهر لي صديقا مثله بعده، وأجرى ماكان له جميعه لولده، وحفظ عهده، وكان لجماعة من الأعيان والشعراء والأماثل والأدباء بعنايته ووساطته من السلطان رزق أبقاه عليهم، كأنه عليه مستحق.

وفي العشر الأول من ربيع الآخر أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب حصن بوقبيس فأسر المقدمين، وسفك بسيفه دم الباقين، وجاء إلى الخدمة السلطانية بظاهر حمص، وساق معه الأسارى، فأمر السلطان بضرب أعناقهم، وأن يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين ، فتقدم إمامه الضياء الطبري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي ثم الأمير ايطغان بن ياروق، واستدعى العماد وأمر بذلك، فلم يفعل وطلب أن يملكه السلطان منهم صغيرا فعوض عنه.

ثم رحل السلطان على طريق الزراعة إلى بعلبك فنازلها محاصرا من غير قتال، فطال أمرها ولم يسمح بها صاحبها، ودخل فصل الشتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طغرل الجاندار، ودخل إلى دمشق في العشر الأواخر من رجب، وتمادى الأمر إلى أن رضي ابن المقدم بحصن بعرين وأعماله، وببلد كفر طاب وأعيان نواحي وقرى من بلد المعرة، وسلم بتسليم بعلبك من المضرة والمعرة، وكان الذي أخذه أكثر وأنفع مما خلاه، وماخطر له ولاترجاه ولاتمناه.

- ٨٢٨٥ -

فصل

كالذي قبله في حوادث متفرقة

قال العماد: كتب النواب بدمشق إلى السلطان أن الأموال ضائعة، وأن الأطماع فيها رائعة، وأن في أرباب الصدقات أغنياء لايستحقونها، وما لهم رقبة من الله يتقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي أفراد جهات لما تسنح من مهمات، وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولاتكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلت: أما أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لابل نزهني عن هذه الأشياء، فبقيت تلك الرسوم دارة، والآمال بها سارة.

قال: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولي المقياس بمصر، ففوض السلطان منصبه إلى أخيه، قال :وهذا المقياس موضع مبني من عهد خلفاء بني العباس، ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس، وهناك عمود في الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع في مسجد ينوب في الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاه من العهد القديم متول من ولد أبي الرداد، ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب دار ورسم وقرار.

قلت: بلغني أن أبا الرداد هذا كان معلما من أهل الصدق والصلاح، رتبه جعفر المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده.

وقرأت في تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر لأبي سعيد بن يونس، قال: عبد الله بن عبد السلام بن الرداد العمي، بصري قدم مصر

وحدث بها، وكان قد جعل على قياسة النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين ومائتين، وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضا، وقال فيه: ولد هو وأبوه بمصر.

قال ابن الأثير: وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر وديار بكر، وديار الجزيرة، والشام وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى سنة خمس وسبعين، وخرج الناس في البلاد يستسقون فلم يسقوا، ثم إن الله تعالى رحم عباده، ولطف بهم، وأنزل الغيث، وأرخص الأسعار، ومن عجيب مارأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، فأقبل انسان تركماني قد أثر فيه الجوع، وكأنه قد أخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرقة، وضج الناس، ثم جاء الخبز فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشى، واشتد المطر، ودام من تلك الساعة، فرخصت الأسعار ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير، وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو برسام فمات فيه من كل بلد أمم لايحصون كثرة، ولقي الناس منه ماأعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رفعه في سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقد ضعضع العالم.

-٨٢٨٧-

فصل

في عمالة حصن بيت الأحزان ووقعة الهنفري

قال العماد: وفي مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها، انتهز الفرنج الفرصة فبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحتزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن، تحكم من الثغر الاسلامي الوهن، وغلق الرهن، فيقول إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرسوم الأدراس، فكان الأمر بعد سنة على ماجرى لفظه من عدة حسنه، فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه، وقصد حصاره من عزمه، وكان العام مجدبا والجدب عاما، وقيل للسلطان ليس هذه سنة جهاد فإن استمنحوك السلامة فامنح، (وإن جنحوا للسلم فاجنح)(٣) فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله.

قال: ووصل في هذه السنة رسول دار الخلافة، وهو الخادم فاضل، وكان من أفضل الخدم، ندب بأفضل الخدم، وفرح السلطان به واستصحبه معه إلى الغزاة، ووقف به على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي، وتخطف من حوله من الفرنج جماعة، وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعة، وعاد وقد عرف مايعزم عليه من أمر فتحه.

قال: وفي مستهل ذي القعدة، كانت وقعة هنفري ومقتله،وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة، فقدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثغر ففعل، وأمره إن علم بخروجهم

أن ينفذ إلى السلطان يعلمه بـذلك، ولايلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد، فلـم تشعر طلائع فـرخشاه إلا وقد خالطـوهم على غرة، فـوقعت الوقعة، فقتل صاحب الناصرة وجماعـة من مقدميهم، وطلب الملك فطرح حصانـه، وجرح فرسـانه، وجاء الهنفـري ليحميه، فـوقعت فيه جـراحات أحدهـا نشابـة وقعت في مـارنه فجـدعته ونفـذت إلى فيه ومـرت بضرسه فقلعتـه، وخرجـت من تحت فكـه، وقتلـت عدة مـن الـرجالـة والخيالـة، ورجعـت الفـرنج بخـزي عظيـم، ليس فيهـم إلا مجروح، وكل يـوم تـرد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته.

ووردت بطـاقة الطير في ذلـك اليـوم إلى دمشـق فخرج السلطـان فما وصـل إلى الكسـوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهـم قـد جـيء بها، فرجـع مظفـرا منصـورا، وذلـت الفـرنـج بعدهـا، وانكسرت بمـوت الهنفـري،ثـم سـار السلطان إلى الحصن الـذي بنوه فأزعجهم وذعرهم، وعـاد على عزم العود إليه.

قال: ثم وجه السلطان أخاه الأكبر تـورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضعـف من الأجنـاد لأجل محل البـلاد، فرتـب في بعلبك نـوابه، وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك في أواخر ذي القعدة ، ومر على بصرى ، ومنهـا إلى الأزرق، ومنه إلى الجفـر إلى إيلة إلى صـدر، ووصـل معه خلـق كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال.

- ٨٢٨٩ -

فصل

قال العماد: وسافر الفاضل إلى الحج في هذه السنة، وركب البحر، فكتبت إليه كتابا فيه: طوبي للحجر والحجون من ذي الحجر والحجى، منيل الجدا ومنير الدجى، ولندي الكعبة من كعب الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم، ومتى رئي هرم في الحرم وحاتم مائح زمزم ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر لقد عاد قس إلى عكاظة، وعاد قيس بحفاظه، ويا عجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي عند عوده من الحج بقصيدة حسنة منها:

علم البحر أنك الخلق وافا
فأمسى حشاه يخفق رعبا
وغدا دره لديه حقيرا
اذ رأى الدر منك ينشأ سحبا
ولو احتاز قطره منك يا بحـ
ـر لأضحى أجاجه الملح عذبا
هائج لم يزل دعاؤك حتى
هون الله منه ما كان صعبا
ولقد نام اذ ركبت وللر
يح هبوب وحيث أرسيت هبا
حبذا ما اصنعته من جياد
عاد جدب الحجاز منهن خصبا
رمت كتما نهافذاعت وهل يقـ
ـدر غيث يخفى عن الارض سكبا
قد رأت منك كعبة الله لما
جئتها حاتما وإن شئت كعبا

بـــــل رأى منـــــك بيتــــــه بيـــــت مجد
أحـــــرم الجود حـــــولـــــه ثـــــم لبـــى
وزهـــــت زمـــــزم بشرب ــــك منهـــــا
وعجيـــــب ان يظهـــــر الماء عجبـــــا
وتـــــوجهـــت للمـــــدينـــــة عـــــن مكـــــ
ـــــة لما تشـــــاء وكـــــافيـــــك حسبـــــا
وأتيـــــت الشـــــأم تلـــــو فتـــــوح
ســـــار شرقـــــا بـــــه الهنـــــاء وغـــــربـــــا
ان تكـــــن غبـــــت عنـــــه والله يبقيـــــ
ـــــك لامثـــــالـــــه فما غبـــــت قلبـــــا
سرت والـــــرأي فيـــــه منـــــك مقيـــــم
وبعثـــــت الـــــدعـــــاء في الليـــــل كتبـــــا

وقد وقفت على الرقعة التي كتبها القاضي الفاضل رحمه الله بخطه إلى السلطان يلتمس منه الإذن في سفر الحج فأحببت نقلها هنا، وماكتب السلطان رحمه الله عليها، وماكتب بسببها إلى بعض نوابه، نقلت من خط الفاضل رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب المملوك هذه الرقعة بعد أن استخار الله سبحانه من مستهل رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه الساعة وهو ينهي أنه قد شارف الأربعين ومايدري لعلها عقبة اللقاء، وفرض الله في الحج قد تعين، ووعد المولى به قد سبق عند إيلة، ومدة الغيبة قصيرة والنائب ينفذ مايحتاج إليه في السفر والحضر، والثقة به حاصلة في المرادين من الكاتب وهما: الكتمان والمعرفة، وحظ المولى في حجه ولله أضعاف حظه في مقامه لأنه إن كان ينفع بها في الدنيا فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم يكن أهلا لأن يستجاب منه فالله أهل لأن يجيب في المولى والمملوك، فما ثقل قط في سؤال، وليس لأن المولى لايقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن السؤال

فيها، وهذه حاجة الدنيا والآخرة وبعدها ينشد:

متـى يـأت هـذا الموت لايلـف حـاجـة
لنفسي الا قـد قضيـت قضـاهـا

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، ومـا يريد إلا دستورا عن نفس طيبة ورضى ظاهر وباطن ولايـريد خلاف الغرض، فما يفي له بقضاء المفترض، والله المعين برحمته.

الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه

وعلى رأس الـرقعـة في سطـر البسملـة بخـط السلطـان رحمه اللـه ماصورته: على خيرة الله تعالى، ياليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما.

نقلتـه من خطـه، ونقلت مـن خط بعـض الكتـاب مانقلـه من خـط السلطان رحمه الله إلى بعض النواب:

فصل مـن كتاب كريـم بالخط العالي النـاصري أعلاه الله ورد بتـاريخ السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمم على الحج، الله يجعلـه مبارك ميمـون، ولكـن لاأفسح لـه فيـه إلا بعـد ثنتين:واحدة أنـه لايركـب بحرا يسير مـن العسكر إلى إيلـة، ومنها يتـوجه ويقيـم العسكر على إيلة ليلة وعلى إرم ليلة، ودون إرم ليلة، وقاطع إرم ليلة، فيكون هو قد بعد ومـايبقى عليـه خوف إن شـاء الله تعالى، وثـانية تـأخذ يـده وتحلفه برأسي أنه لايجاور، وثالثة تعطيه مـن مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار، وتقول لـه لابـد أن يخرج هـذا عنـي لاعنك في المجـاوريـن بمكـة والمدينـة وفي أهلها، هذا أمر لابـد منه فإن الناس لابد لهم من الطلـب، ولابد لك من العطـاء وإن قال إن الشيء قليـل فـأنت تقـرضني مثـل هـذا المبلغ مـن

مـالك، وتعطيـه إياه فـلابد وإلا فـلا إذن له في الـرواح إلى الحج إلا على هذه الشروط التي قد شرطتهـا، وأما مجيئه فيجيء إلى الشام فأنـا مابقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج(وهو خير الحاكمين)(٤).

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكـة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز، وحيا كعبته، وياطول ماترشقني سهـام الشوق الذي أصبح الذكر جعبته، آها على تلك المواقـف وتبا لمن رضي أن يكون مع الخوالف، فـرعيا ونعمى وحسنـة وحسنى لمجـاوري ذاك الحرم، ولعامـري ايـامه التـي هي الأيـام لأيام ذي سلـم، فيالهف الصـدور، وطول ظمأهـا إلى ورود ماء زمـزمها، وطوبى لمن استضـاء في مضال الظلم بعلمـه، ومهما نسيت فلا أنسـى برد الكبد بحر صيفها، وموسم الأنس بثلاث مناها وخيفها:

آهـــا عليهـــا ليـــال مــــا تــــركـــن لنـــا
إلا الأســــى وعـــــلالات مـــــن الحلــــم
عســـى الــــريـــاح إذا ســــارت مبلغـــة
تـــوفي فقـــد غــــدر الأحبـــاب بـــالــذمــم

ثـم قال: فـأمـا الطريـق المبـاركـة فقد جـرى فيهـا خطوب وشـؤون، وأحاديـث كلها شجـون، وكانـت العقبى إلى سـلامة، ولما قـاربنا الكـرك نهض العدو ،فلـم يمكن الرجعـة ولا التعريج جانبـا، ثم من اللـه تعالى بانجلاء النوبـة، ووصلنا إلى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجـه، فلا عدمنا بشره، وذلك الفضل فلا فـارقت أعيننا فجره، ووجدناه في الغـزاة جاهدا، وللعدو مجاهدا، وأوقاته مستغرقة وعزماته محققة.

- ٨٢٩٣ -

فصل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السنة وأول الأخرى ووقعة مرج عيون

قال ابن أبي طي: كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا إنه لاسبيل إلى هدمه إلا ان تعطينا ماغرمنا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين، فاشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه، ففعل ذلك كما سنذكره.

قال العماد: ولما ودع السلطان أخاه ورجع أغار في طريقه على بلاد الفرنج وقصد الحصن الذي بنوه ورجع بالأسرى والغنائم وخيم السلطان بمروج الشعراء، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدود بلاد الكفرة، وأضرم عليهم لهب النيران المستعرة، وكان كل يوم يركب بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلاد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو، ومايبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالها موثقة بأثقالها، حتى جف زرع الكفار.

قال: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يرعبوا المسلمين في كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة، فغدر ابرنس أنطاكية، وأغار على شيزر، وغدر القمص بطرابلس بجماعة من التركمان بعد الأمان، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين

ابن المقدم وسيف الدين علي المشطوب، ورتب ابن عمه ناصر الدين في ثغر حمص في مقابلة القمص، وكتب السلطان إلى أخيه العادل وهو نائبه بمصر أن ينتخب له من عسكر مصر ألفا وخمسمائة فارس يتقوى بهم مع عسكر الشام على العدو.

- ٨٢٩٥ -

ثم دخلت

سنة خمس وسبعين

والسلطان نازل على تل القاضي ببانياس، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ويستوعبوا مابقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد ثم يرجعوا، فرحلوا صوب البقاع فنهضوا تلك الليلة وهي ليلة الأحد ثاني المحرم، فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجالتهم في أول اللقاء، فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جبيل، وابن القمصية، وابن بارزان صاحب الرملة، وصاحب جينين، وقسطلان يافا، وابن صاحب مرقية، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الأكابر، مازاد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم، ثم قدمت الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى.

قال العماد: وأنا جالس بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن ألطاف الله تعالى أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السكينة، وخصهم بالذلة المستكينة، وطلع الصباح، ورفع المصباح، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به العشاء، ثم عرض الباقون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين، فالتزم ادراكه وأن يؤدي من قطيعة المذكور القطيعة التي قرر بها فكاكه، وأما ابن القميصية فإنه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصورية، وأما أود مقدم الداوية فإنه

انتقل من سجنه إلى سجين، فطلبت جيفته فأخذ باطلاق أسير من مقدمي المؤمنين، وطال أسر الباقين فمنهم من هلك وهو عان ومنهم من خرج بقطيعة وأمان، وهذه هي وقعة مرج عيون، وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل وانهزم ملكهم مجروحا، وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة بلاء حسن، حكى حسام الدين تميرك بن يونس وكان مع عز الدين قال: كنا في أقل من ثلاثين فارسا قد تقدمنا العسكر، فشاهدنا خيل الفرنج في ستمائة فارس واقفين على جبل وبيننا وبينهم الماء، فأشار عز الدين بأن نعبر النهر إليهم، ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم، ومن أحسن ما اتفق أن في اليوم الذي كسرت فيه الفرنج بمرج عيون ظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد إلى الثغر مستصحبا ألف رأس من السبي، فما أقرب ما بين النصرين في المصرين، وما أعذب عذاب الفئتين وتجريعهما الأمرين الأمرين، لقد عم النصر، وتساوى فيه البر والبحر.

ومما مدح به السلطان في هذا الفتح مدحة سيرها من مصر إليه فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني أولها:

لك رب السماء خير معين ... وكفيل بما تحب ضمين
فله الحمد أي نصر عزيز ... قد حبانا به وفتح مبين
أدرك الثأر حين نازله المغوار حيف الكفار ليث العرين
المهام الغضنفر الملك الناصر مولى الورى صلاح الدين
يا مليكا أضحى الزمان يناجيه بلفظ المذلل المسكين
قذفت أهلها الحصون إلى بأسك حتى عوضتهم بالسجون

وأراهم رب السماء بأسيا ... فك ما لم يجل لهم في ظنون
لك قلب عند اللقاء مكين ... وله من تقاه ألف كمين
يامليكا يلقى الحروب بحول الله ... مستعصما وصدق اليقين
إن هذا الفتح المبين شفاء ... لصدور وقرة لعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين ... سهل الله نصره في الحزون

قال العماد: وكان تقي الدين غائبا عن هذه الوقعة، واشتغل عنها بغيرها، وذلك أن سلطان الروم قليج أرسلان طلب حصن رعبان، وادعى أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده، وأن الملك الصالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه، فلم يفعل السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم، فأرسل قليج أرسلان عسكرا مجمعا في عشرين ألفا لحصار الحصن فلقيهم تقي الدين، ومعه سيف الدين علي المشطوب في ألف مقاتل، فهزمهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصرة، فإنه هزم بآحاد ألوفا، وأرغم بأعداد من الأعداء أنوفا.

وقال ابن أبي طي: واتصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طمع في أخذ رعبان وكيسون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه، ويدعي أن نور الدين بن زنكي اغتصبها منه، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بها، فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه، فعاد الرسول وأخبر قليج أرسلانه فغضب وسير عسكرا إلى رعبان، فحاصرها وسمع السلطان، فندب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، فسار فلما قارب

رعبان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتي فارس، وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قليج أرسلان ليلا فرآهم قد سدوا الفضاء وهم قارون آمنون وادعون، فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ماترون من الطمأنينة والأمن والغفلة، وقد رأيت أن نحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرق في جوانب عسكرهم ونصيح فيهم فإنهم لايثبتون لنا، فأجابوه إلى ذلك فأنفذ واحدا من أصحابه إلى باقي عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلابا، وأن يجعل في كل طلب قطعة من الكوسات والبوقات، فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم، وجدوا في السير حتى يلحقوا به، ففعلوا ماأمرهم، ثم أنه حمل في عسكر قليج أرسلان، وصرخ أصحابه في جوانبه، وكان عدة عسكر قليج أرسلان ثلاثة آلاف فارس، فلما سمعوا الضجة، وحس الكوسات والبوقات وشدة وقع حوافر الخيل وجلبة الرجال واصطكاك أجرام الحديد هالهم ذلك، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيم، فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواثب خيولهم عريا وطلبوا النجاة، وأخذتهم السيوف، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها، وأكثر تقي الدين فيهم القتل والأسر، وحصل على جميع ماتركوه، فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكراعهم وسرحهم إلى بلادهم.

قال: وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل إلى السلطان في اليوم الذي كسر فيه السلطان الفرنج على مرج عيون، فتوافت البشارتان إلى البلاد.

قال : مدح ابن التعاويذي السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد يذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها:

كاد الأعادي أن يصيبك كيدها
لو لم تكدك برأيها المأفون
تخفي عداوتها وراء بشاشة
فتشف عن نظر لها مشفون

دفنت حبائل مكرها فرددتها
تدوي بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم
أفضت إليك بسرها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة
في الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم
بالنحس طائرهم بمرج عيون

قلت: هكذا أنشده، وهو حسن وقد كشفته في نسخة من ديوان ابن التعاويذي فوجدت آخر هذا البيت« طائر جدك الميمون» وأول القصيدة:

ان كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطي برملتي يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل:

ليت الضنين على المحب بوصله
لقن السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بذمامه
علقت بحبل في الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى
بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد
خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهزبر سطاه لم
يلجأ إلى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوها
مأوى الطريد وموئل المسكين

لــــك عفــــة في قـــدرة وتـــواضـــع
في عـــــزة وشراســـــة في لين

وأريتنــا بجميـــل صنعـــك مــاروى الـــ
ـــراوون عـــن أمـــم خلـــت وقـــرون

قال ابـن أبي طي: نـزل السلطان على تـل القاضي ببـانياس على المرج الذي يعرف بمرج عيـون، وأنفذ في ثاني المحرم قطعة من عسكـره مع عز الدين فـرخشاه لشن الغارة على بـلاد الفرنج، فلما أصبح ركـب يستوكف أخبار فرخشاه فما هـو إلا أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بـانياس قد أقبلت من المراعي هاجة على وجوههـا من الغياض والأودية، فقال: هذه غـارة، فأمـر بلبس السـلاح والاستعداد للحـرب، فـوصل بعـض الرعـاة فـأخبر أن الفرنـج قد عبروا وصـاروا قريبـا منه على هيئـة المتغفلة، فسـار حتـى أشرف على الفرنـج، فـإذا هم في ألـف رمـح، فـأخذتهم السيـوف والـدبابيـس حتى فـرشت الأرض منهـم، وألقـى جماعة منهـم سلاحهـم وسلموا أنفسهـم أسارى، ونجاملك الفرنـج هنفري هاربا، ويقال إنه وقع به فـرسه فحمله أحـد خيالته على ظهـره، ثم رجع السلطـان إلى معسكره وسيفه يقطر دما وجلس لاستعراض الأسارى فذكر نحو ماسبق.

وفي كتـاب الفاضـل إلى صـاحب لـه بمكة وقـد سبـق بعضه قـال:« وجـرت نوب منهـا قتل الهنفـري لعنه اللـه وتمام سبعين فارسـا من كبـار الخيالـة، وطرح ملك الفـرنج من على ظهـر دابته وتحامله بآخر رمـق مع بقية من نجـا من خيالته، ومنهـا نوبة وادي الحريق، وقـد جمع الله العدو فارسه وراجله، ومنهـا نصر الله الذي ماكان قبله لملـك من ملوك الأرض قتـل ابن بـارزان ومقدم الـداوية، وابـن صـاحب طبريـة، وأخو أسقـف صور، وصـاحب جبيـل، وأصحاب الحصون والقـلاع، ومقطعوا الأقـاليم والضيـاع، وحصل تحت اليـد الناصريـة أعلاهـا الله مـائة وستون كلهـم تثنـى عليهم الخنـاصر وتقطر بهم العسـاكـر، ومنها دخـول العساكـر إلى

-٨٣٠١-

عمل بيروت وصـور وغارتها على غرة من أهلهـا، وقطع شجرة مثمـرة من أصلها.

قال: وكـانت الأساطيـل المنصورة قـد تضاعفت عـدتها إلى أن بلغت ستين شينيا وعشريـن طريـدة، فسارت الشـواني خاصـة فدخلـت البلاد الرومية، ودوخت السواحـل الفرنجية، وأسرت ألف علج أحضرتهم أسرى في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار، وغنمـت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لاتعرف عين الدرهم ولاوجه الدينار».

- ٨٣٠٢ -

فصل

في تخريب حصن بيت الأحزان وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد: جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالـة والرجالة، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسـع عشر الشهر، والحصن مبني دونها من الغرب، فخيم منهـا بالقـرب وضاق ذلك المرج عـن العسكر، واحتـاج إلى نصب ستائر لأجـل المنجنيقات، فـركب السلطان بكـرة الأحد إلى ضيـاع صفد وكانت قلعـة صفد يومئذ للداويـة، وهو عش البلية، وأمر بقطـع كرومها وحمل أخشابها، فـأخذ كل مـااحتاج إليـه، ورجع بعد الظهـر وزحفوا إلى الحصن بعـد العصر، فما أمسى المسـاء إلا وهم قد استـولوا على البـاشورة وانتقلـوا بكليتهم إليهـا، وبـاتوا طـول الليل يحرسـون، وخـافوا ان يفتـح الفرنـج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة، وإذا بـالفرنج قد أوقـدوا خلف كـل باب نـارا ليأمنـوا من المسلمين اغترارا، فـاطمأن المسلمـون وقالـوا: مابقي إلا نقب البرج ففـرقه السلطان على الأمراء، فأخذ فـرخشاه الجانب القبلي، وأخذ السلطـان الجانب الشمالي، وقصد نـاصر الدين بـن شيركوه بقربه نقبا، وكذلك تقي الديـن، وكل كبير في الدولة جعل له قسما، وكان البرج محكـم البناء فصعـب نقبه لكـن ماانقضـى يوم الأحـد إلا وقد تـم نقب السلطـان، وعلق وحشي بالحطـب ليلة الاثنين وحرق، وكـان النقب في طول ثـلاثين ذراعا في عـرض ثلاثـة أذرع، وكان عـرض السور تسعـة أذرع، فما تأثـر بذلـك، فاحتـاج السلطان صبيحـة يوم الاثنين إلى إطفـاء النيران ليتم نقبه، وقال: مـن جاء بقربة ماء فله دينـار، قال العماد: فرأيت الناس للقـرب حاملين،ولأوعيـة الماء ناقلين، حتى أغـرقوا تلـك الثقوب، فخمدت فعاد نقابـوها وقد بردت فخرقوه وعمقـوه وفتحوه وفتقوه، وشقوا حجره وفلقوه، ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيـه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثـم أحـرقوه واشتـد الحرص عليه لأن الخبر أتـاهم بـأن الفرنـج قد اجتمعـوا

بطبرية في جمع كثير ، فلما أصبح يـوم الخميس الرابع والعشريـن من ربيع الأول وتعالى النهار انقـض الجدار، وتباشره الأبرار، وكان الفرنـج قد جمعوا وراء ذلـك الواقـع حطبـا، فلما وقع الجدار دخلـت الـريـاح فردت النـار عليهم وأحـرقت بيوتهم وطـائفة منهم، فـاجتمعوا إلى الجانب البعيـد من النار وطلبوا الأمان، فلما خمدت النيران دخـل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألـف قطعة مـن الحديد مـن جميع أنـواع الأسلحة، وشيئـا كثيرا من الأقوات وغيرها، وجـيء بالأسارى إلى السلطان فمن كان مـرتدا أو راميا ضربت عنقه، وأكثر مـن أسر قتله في الطريق الغزاة المطوعـة، وكان عدة الأسارى نحـو سبعمائة، وخلص من الأسر أكثـر من مائة مسلـم، وسيرنا في الأسارى إلى دمشـق، وأقام السلطان في منـزلته حتى هـدوا الحصن إلى الأساس، وطـم جب ماء معين كانـوا حفروه في وسطه، ورمـى فيه القتلى، وكان عنـد السلطان رسـول القمص معاف وهـو يشاهـد بلية أهـل ملته، وقـد كـان السلطان بـذل لهم في هـدمـه ستين ألـف دينار فلـم يفعلـوا، فزادهـم حتـى بلغ مائة ألف فـأبوا، وكان مدة المقـام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغـار عليها وأرجف قلوبهم بوصولـه إليها، ورجع السلطان إلى دمشق يـوم الأربعاء ومرض جماعة من ذلـك الوباء لأن الحر كان شديـدا، وأنتنت جيف القتلى، وطول السلطان المقام عليـه بعد فتحه لأجل تتميم هدمه، فتوفي أكثـر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبي كما كـان مزورا وبتكبير المسلمين وصـلاتهم معمورا، وهنـأ الشعراء السلطـان بفتـح هـذا الحصن فمـن ذلـك مـاأنشـده نشـو الدولـة أحمد بـن نقـادة الدمشقي من جملة مدائحه:

هـــلاك الفـــرنـــج أتـــى عـــاجـــلا
وقـــــدآن تكسير صلبـــــــانها
ولـــو لم يكـــن قـــد دنـــا حتفهـــا
لما عمـــــرت بيـــــت احـــــزانها

ولأبي الحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي الخراساني ثم الدمشقي من قصيدة أولها:

بجـــدك أعطـــاف القنـــا تتعطـــف
وطـــرف الأعـــادي دون مجدك يطـــرف
شهـاب هـــدى في ظلمـة الشـك ثـاقـب
وسيــف هـــدى في طـاعـة الله مـــرهــف
وقفـــت على حصـــن المخـــاض وانـــه
لموقـــف حـــق لا يـــوازيـــه مـــوقـــف
فلـم يبـــدو وجـــه الارض بـــل حـــال دونـــه
رجـــال كـــآســاد الشرى وهـــي تـــزحـــف
وجـــرداء سلهـــوب ودرع مضـــاعـــف
وابيـــض هنـــدي ولـــدن مثقـــف
ومـا رجعـت أعـــلامـك الصفـر ســاعـة
إلى أن غـدت أكبـادهـا السـود تـرجـف
كبـــامـــن أعـــاليـــه صليـــب وبيعـــة
وشـــاد بـــه ديـــن حنيـــف ومصحـــف
صليبـــة عبـــاد الصليـــب ومنـــزل الـــ
ـــنزال لقـــد غـادرتـــه وهـــو صفصـــف
أيسكـــن أوطـــان النبيين عصبـــة
تمين لـــدى أيما نها وهـــي تحلـــف
نصحتكـــم والـــديـــن في النصـــح واجـــب
ذروا بيـــت يعقـــوب فقـــد جـــاء يـوســف

ومن قصيدة لسعادة الضرير الحمصي:

حللـــت فكنـــت الألمعـــي المســـددا
وسرت فكنـــت الشمـــري المؤيـــدا
وقمـــت بـــأعبـــاء الممالـــك نـــاهضـــا
فـــأقعـــدت أعـــداء ولم تخش مقعـــدا

تعـودت ضرب السيـف والطعـن بـالقنـا
وكـل امـرىء مغـرى بما قـد تعـودا
نصرت الهدى لما تخاذل حـزبـه
فنـاداك حـزب الله يـا نـاصر الهدى
غضبت لـديـن أنـت حقـا صـلاحـه
فـأرضيـت لما ان غضبـت محمـدا
فيـا يـوسـف الخير الـذي في يمينـه
مـن الخير مـا قـد غـار فينـا وأنجـدا
وصلـت لـذي سلـم وصلـت لـدى وغـى
ففقـت جميـع النـاس بـالبـأس والنـدى
وقـدت إلى الأعـداء جيش عـرمـرمـا
إذا أبـرقـت فيـه الصـوارم أرعـدا
فلـم تبـق للطغيـان شمـلا مجمعـا
ولـم تبـق لـلايمان شمـلا مبـددا
فنـاهيـك مـن جيـش نهضـت بعبثـه
فـأقعـدت لما ان انهضـت بـه العـدى
حملـت ذبـالا في ذوابـل سمـره
فلما دجـى ليـل العجـاج تـوقـدا
وزرت بـه الحصـن الـذي لـو تحصنـت
فـوارسـه بـالنجـم أوردتـه الـردى
قصمـت بـه صلـب الصليـب ورعتـه
وشهـدتـه لما غفـا فتشهـدا
هبـت إليـه هبـة يـوسفيـة
تعيـد هبـاء كـل مكـان جلمـدا
وفـض بما قـد فضـه مـن سهـامـه
نـواجـذ ثغـر الهنفـري وقـددا

قال: ومنهـم الأمير نجم الديـن محمود بن الحسـن بن نبهان العـراقي من أهل الحلـة المزيدية، وكان حاضرا في نـوبة ابن بارزان لـه من قصيدة

- ٨٣٠٦ -

أولها:

هنيئاً صلاح الدين بالفتح والنصر
ونيل الأماني الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا
وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا
سمو أبي لا ينام على وتر
وصلت بها حبل المفاخر مثلما
قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم
وخضت بها سواد الليل وهو دم يجري
وقد عرف الافرنج بأسك في الوغى
وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا ابناء الحصن صوناً لملكهم
فأصبح بالشعراء منتهك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قطعت
أناملها إلا على صفقة الخسر
هي الفتكة الغراء لازلت قائماً
بأمثالها في الدين في السر والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها
وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة
فما خلقوا إلا على شيمة الغدر
وسروا ملك الأرض التي لو تركتها
لاغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقباً
بأخمصها تعلو على الأنجم الزهر
إذا عد أرباب الفخار فأنتم
ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر

وأنـــت الـــذي أصبحـــت بـــالبـــأس والتقـــى
وبـــذل اللهـــى عـــالي السنـــا عطـــر الـــذكـــر

ومن كتـاب فاضلي إلى بغداد في وصف الحصـن:« وقد عرض حـائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظـام الحجارة كل فص منهـا من سبعة أذرع إلى مـافوقها ومـادونها، وعدتها تـزيد على عشرين ألـف حجر لايستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيها بين الحائطين حشـو مـن الحجـارة الصـم المرغـم بها أنـوف الجبـال الشم، وقـد جعلت سقيتـه بالكلـس الذي إذا أحـاطت قبضتـه بـالحجـر مـازجه بمثـل جسمه، وصـاحبـه بأوثـق وأصلـب من جـرمه، وأوعـز إلى خصمه من الحديد بأن لايتعرض لهدمه».

ومنـه في وصـف النـار قال:« وبـات النـاس في ليلـة الجمعـة مطيفين بالحصـن والنار بـه مطيفة، وعليه مشتملـة، وعذبـات ألسنتها على تـاجه مسدلـه، ومن خلفه مسبلة، ونـارهم قد أطفأهـا الله بتلك النار الـواقدة، ومنعتهم قـد أذهبها اللـه بتلك الأبـرجة السـاجدة، وبنفسـج الظلماء قد استحال جلنـارا، والشفق قـد عم الليلة فلـم يختص آصـالا ولاأسحارا، ونفحـاتها حميمية(وقـودهـا الناس والحجـارة)(٦) والمنـادي ينادي بلسـان مصـابها إياك أعنـي،فاسمعـي ياجـارة فولجت النـار موالـج يضيق منهـا الفكر ويعجـز عنها الأبر، ونقلت النبـأ من العين إلى الأثر، وقـال الكفر(إنها لإحدى الكبر)(المدثر٣٥) وخولف المثل إن السعادة لتلحظ الحجر،وأغنى ضـوءهـا لسان كـل أمعـة أن يسـأل هـذا وهـذا ماالخبر، وقـذفـت بشرر كالجمالات الصفـر، وزفرت بغيظ تعفر لـه خدود الجبال الصعـر، وتلحقها بـالكثب العفـر، وبـات الليل والنهـار يثلـه، وكلما أغمـده الخمود جعـل الوقـود يسله، إلى أن بدا الصبـاح كأنـه منها إمتار الأنـوار، وانشق الشرق ومن عصفرهـا صبغ الإزار، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع بيـده الأحجار من

أسها، ومحا حروف البنيان من طرسها، وتبعه الجيش ورفاقه، وكافة من اشتمل عليه نطاقة».

وفي كتاب آخر:« وكان مبنيا على تل، وفيه صهريج لما فتح المسلمون الحصن رموا فيه مايناهز ألف قتيل ودابة محرقة بالنار، فما سدت عرضته، ولاملأت حفرته، وكان فيه نحو ألف زردية، والمقاتلة ثمانون فارسا بغلمانهم، وخمسة عشر مقدما للرجال، مع كل مقدم خمسون رجلا، هذا إلى الصناع مابين بناء ومعمار وحداد ونجار وصيقل وسيوفي، وصناع أنواع الأسلحة، وكان به من أسرى المسلمين مايزيد على مائة رجل، نزعت القيود من أرجلهم، وجعلت في أرجل الفرنج، وكانت فيه أقوات لعدة سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاع إلى حين، ولما قوتل أول يوم هجم حوشه، وفيه جماعة من المقاتلة فضربت رقابهم، وأخذت دوابهم، وفي الحال علقت النقوب على خمس جهات، وحشيت بالنيران، وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان، ولم تزل النار توقد، ثم تخرج ثم تشعل ثم تخمد، إلى أن تمكنت النقوب وحشيت بالأحطاب، وأطلقت فيها النيران في يوم الخميس، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية، وملك المسلمون الحصن بما فيه ومن فيه، واشتعلت النيران في أرجائه ونواحيه، وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد ماحل ببنيانه، ومانزل من البلاء بأصحابه وأعوانه، ولما وصلت النار إلى جهته ألقى نفسه في خندق نار صابرا على حرها، ففي الحال نقلته هذه النار إلى تلك النار، ولما أخذ أسارى الفرنج وهم عدة تزيد على سبعمائة بعد المقتولين، ومايقصر عدتهم عن مثلها، توفرت الهمة على هدم هذا الحصن وتعفية أثره، وإزالة ضرره، فألحقت أعاليه بقواعده، وصار أثرا بعد عين في مشاهدة عين، هذا والفرنج مجتمعون في طبرية يشاهدون الأمر عيانا، وينظرون إلى الحصن وقد ملىء نيرانا، وارتفع دخانا، وسارت العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فانثنت مغيرة فاستنارت كل

غامضة، ووصلـت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنـج لايسكن فيها إلا قلعة أو مدينـة، ولايقيم فيها إلا من نفسه لشـدة الخوف معتقلة في نفسه أو مشحونة».

ومن كتـاب آخر فـاضلي عن السلطـان إلى وزير بغـداد:« تأخـر فلان لضرورات منهـا أمـراض كـانـت قـد عمـت بها البلـوى، وكثـرت بها الشكوى، وكـان أكثرهـا خاصـا بالعائديـن من العسـاكر مـن نوبـة فتح الحصن، وكان خـادما المجلس السامي ابـن أخيه تقي الديـن، وابن عمه ناصر الدين قد جهد ا، وأثخنا وبلغا حد اليأس وامتحنا، وكادا يسقطان من ضمير المنـى، فمن الله تعالى بـالشفاء، وهذه البشرى بفتـح الحصن، وإن كانـت شريفة مـواقعها، عامـة منافعها، فقـد تجددت بعدهـا بشارة طلعت بشـارة رائقة، وجـاءت في مكان الـرديف لأخـرى لافرق بينهما إلا أن تلك سابقـة، وهذه لاحقة، وذلك أن الاسطول المصري غزا غـزوة ثانية غير الأولى، وتوجه عـن السواحل الاسلاميـة مرة أخرى من اللـه فيها منة أخرى، وكانت عدته في هذه السنة قد أضعفت وقويت، واستفرغت فيها عزائم بالجهاد واستقصيـت، واحتلت به الرجال الذيـن يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هـو معروف من المغاربة بغزو بـلاد الكفر، فسارت على سوار هي كنـائن إلا أنها تمرق مروق السهام، ورواكد هـي مدائن إلا أنها تمر مر السحـاب غير الجهام، فلا أعجب منهـا تسمى غربـانا وتنشر من ضلـوعها أجنحة الحمام، وتسمـى جواري وكـم بشر مجريها من النصر بغـلام، فطـرقـت في الأحد حـادي عشر جمادى الأولى مينـا عكـا، وهـي قسطنطينية الفـرنج، ودار كفـرهم أبدلها اللـه من الكفـر اسلامـا، وخلع عنهـا الشرك البالي وخلـع عليها مـن التوحيـد أعلامـا، وكانـت مفروسـة فـأصبحت مفترسة، وباتت جميع الفرنج محترسة، وغدت مترسة، فما هي إلا أن جـذفت والجة على المينا، وفيه المراكـب والبضائع فاستـولت على عدة مـن المراكب تحطيما وتكسيرا، ونطـاحا يقلقـل، ولو كـان ثبيرا، وادخلـت سـاحـل

الفرنـج بقتالها، وبـاشرت مثل الماء بنـزولها ونزالها، وهـذا مما لم يعهـد من الأسطـول الاسـلامـي مثلـه في سـالف الـدهـر، لافي حـالـة قـوة اسـلام ولاضعف كفـر، ومما سبيلـه أن تطرز السير الكريمـة بفخره كما طـرز الله الصحيفة الشريفـة بأجره، وقتـل على قلعة عكا ثلاثـة نفر بأليـم السهام، أبعد ماكانـوا وقفوا عنها، وآمن ماكانوا منهـا، فصرعتهم الأيدي والأفواه، وخروا سجـدا على الجباه، سجودا لايرفعـون منه الرؤوس، ولاينتقلـون منه إلى حالـة الجلوس، ولايرفـع فيما يرفع لهم مـن عمل، ولالهم فيه مـن قبلة ولالهم به من قبل، وأقامت المراكب يومين تقابلها، وتقاتلها وتناضلها.

-٨٣١١-

فصل
في باقي حوادث هذه السنة

منها حجة الفاضل الثانية،ووفاة الخليفة المستضيء بالله وغير ذلك، قال العماد: وفي العشر الأخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكة.

قلت: وقفت على نسخة كتاب الفاضل إلى الصفي بن القابض، يصف له مالقي في طريقه إلى مصر، وركوب البحر، وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة.قال:« خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام زاد تبسط المفسدين، وإسراف المسرفين، وظهر من هوان أمير الحاج العراقي، ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه، ماأطمع المفسد، وأخاف المصلح، ووصلنا إلى جدة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الريح إلى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمى دبادب، وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وآيسوا من الأنفس، وتمنوا معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أحيط بهم وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لاحيلة فيها، وصبرنا إلى أن فرج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لاماء يشرب، ولاجمل يركب، وانفذنا إلى البجاة النازلين على ساحل البحر فأحضروا جمالا ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثمن ماتحمله، فركبناها ووصلنا إلى عيذاب بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفا وتعبا وجوعا وعطشا، لأن الخلق كانوا كثيرا، والزاد يسيرا، وركبنا البرية من عيذاب إلى أسوان، فكانت الهمة قاصرة في المزاد، فكانت البلوى عظيمة في العطش، فأما الحزون والوعور فهي تزيد على مافي برية الشام

بكونها طريقا بين جبلين، كالدرب المتضايق، والزقاق المتقارب، وحر الشمس شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولطف الله إلى أن وصلنا مصر في السابع عشر من صفر».

قلت: وللوجيه بن الذروي في الفاضل:

لك الله إما حجة أو وفادة
فمن مشهد يرضي الإله وموسم
ترى تارة بين الصوارم والقنا
وطورا ترى بين الحطيم وزمزم
وكم لك يا عبد الرحيم مآثر
لها في سماء الفخر إشراق أنجم
كأنك لم تخلق لغير عبادة
وإظهار فضل في الورى وتكرم

قال العماد: وفي هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ابن السلطان، وكان أحب أولاده إليه وهو الذي قام بتدبير الملك بعده، وولد بمصر ثامن جمادي الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، كما سبق ذكره ، وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه إليه فاستقدمه، فقدم عليه عاشر رجب سنة إحدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند قدومه قصيدة منها.

يا أسدا يحمي عرين العلى
هنئت جمع الشمل بالشبل
عثمان ذي النورين بين الورى
من سؤدد سام ومن فضل
يحكيك أقداما وبأسا فما
أشبه هذا الفرع بالأصل
مخائل الرشد على بشره
شاهدة بالفضل والنبل

ملـــــك قضـــــى اولـــــه أنـــــه على ملـــــــــــوك الأرض يستعلي

بـــا الملـــك النـــاصر سلطـــاننـــا طـــالـــت يـــد الاحســـان والعـــدل

ثم لم يفارقه، واستصحبه إلى مصر في سنة اثنتين وسبعين، ثم عاد به معه إلى الشام في شوال سنة ثلاث وسبعين، واتخذ له معلما من مصر، وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور، فحصل من صحبته رزقا واسعا لاسيما في عام الطهور فإنه عم فيه السرور والحبور، وكان متولي الانفاق في الطهور صفي الدين بن القابض، لأنه كان متولي الخزانة والديوان، والأعمال بدمشق.

قال: وحج — يعني ابن القابض — سنة أربع وسبعين، وفيها حج الفاضل من مصر يعني حجته الأولى، وعاد إلى الشام ومعه ابن القابض.

قلت: فلما رجعا معا في حجة الفاضل الأولى إلى الشام، ثم انفرد الفاضل بالحج ثانيا من العام المقبل وهو سنة خمس وسبعين، وتم له في رجوعه ماتم كاتبه بالكتاب الذي سبق ذكره يصف له مالقي في رجوعه، وكانت حجة الفاضل الأولى من مصر، ورجع إلى الشام، وكانت الثانية من الشام ورجع إلى مصر.

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين، وقبره القبر القبلي من القبور الأربعة بالقبة التي فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النجمية بالعوينة ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيها خرجوا إلى بعلبك لتسليمها إلى عز الدين فرخشاه فسلكوا طريق الرواديف، وهي طريق شاقة، وفيها أغار عز الدين على

صفد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وماحولها، ورجع غانما سالما.

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضيء بالله أمير المؤمنين ، واستحلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ، وكان رسول السلطان ضياء الدين بن الشهرزوري حاضرا فحضر وبايع وأخبر بجلية الحال، فبادر السلطان إلى الخطبة له في جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا إلى بهلوان، وألزمه حتى خطب بهمذان وأصفهان، وعمت الدعوة الهادية في جميع بلاد خراسان، ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولا في سنة ست وسبعين، وأخذه السلطان معه إلى مصر وحج منها وركب البحر كما سيأتي ذكره.

وللعماد في مدح الإمام الناصر قصائد منها قصيدة بائية مدحه بها سنة فتح القدس وسيأتي منها أبيات عند ذكر فتحه ومنها:

الدهر ينصرني مادام ينسبني لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضيء أبي العباس أحمد للأيام أصحاب

وقال محمد بن القادسي في تذييل تاريخ أبي الفرج بن الجوزي: مولد المستضيء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحدا وعشرين يوما، بويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريما رحوما بارا بالرعية يعفو عن الجرائم الكبار، عادلا ظهر يوم مبايعته من رد المظالم والأملاك المقبوضة والإفراج عن المسجونين وإسقاط الضرائب والمكوس ماشاع واشتهر.

قال: وتقدم إلى شيخ الشيوخ عبد الرحيم وإلى عبد الرحمن بن الجوزي فصليا عليه، ثم بايع الناصر أخوه الأمير أبو منصور هاشم، ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم، وكان والده المستضيء قد عهد إليه قبل وفاته بيوم واحد.

قلت: كذا نقلته من خطه، ولعله أراد باسبوع واحد فسبق به قلمه، فإن ابن الدبيثي ذكر أنه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال.

ثم قال ابن القادسي: وفي سابع ذي القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العطار، ووكل به وتتبع أصحابه ومن يتعلق به، وقتل النقيب مسعود الذي كان بين يديه، وكان أحد الأعوان بباب النوبي قد نزعت الرحمة من قلبه، فقطع قطعا وشد في رجله حبل، وسحبته العامة في الدروب، ثم أحرقوه بعد ذلك.

قال: وفي حادي عشره حمل ابن العطار ميتا، وعلم به العامة فرجموا تابوته بالآجر، فألقاه الحمالون وهربوا، فأخذه العامة وشدوا في رجله شريطا وسحب في جميع بغداد ومنافذها ودروبها ومحالها،وقطع لحمه قطعا.

قال: وتوجه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم إلى البهلوان بن ايلدكز شحنة همذان لأجل الخطبة، فتوقف عن ذلك، فهاجت العامة عليه، ووثب أهل المذكور وخطبوا، وجاء كتاب شيخ الشيوخ إلى الديوان سطرها فلان، والحال في الجنوح كقصة نوح، من قرأ السورة عرف الصورة.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وكثر الوباء ببغداد وغيرها من

البلاد، وذكر أن رجلا بواسط ذبح بنتا له وأكلها، وآخر بقر بطن صبي وأخذ كبده وشواها وأكلها.

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العتمة فوق بلاد إربل، فلما أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال فتصادمت، ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة، وهلكت قرى بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعا فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

قال: وفيها خرج قراقوش التقوي إلى طرابلس المغرب، ففتح بلادا وصلى حروبا مع ابراهيم السلاحدار الذي دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقي الدين، لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش في تملك البلاد، ثم أصلح بينهما.

- ٨٣١٧ -

فصل
ثم دخلت
سنة ست وسبعين

ففيها توفي الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله بالاسكندرية،وقد زرت قبره بها داخل الباب الأخضر.

قال العماد: وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وتوجه إلى بلد الروم فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق، صاحب حصن كيفا، وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قليج أرسلان ابن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو، وكثرت ثم الهدايا والدعوات والأفراح والهبات، وفيها دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان ثم صبحهم بغدره، وحصلوا بأسرهم في أسره، فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده، ونصر الله المسلمين بالرعب فأحرق من الخوف قلعة شامخة تعرف بالمناقير ، وبادر المسلمون إلى إخراج مافيها من الآلات والغلات فتقووا بها وتمموا هدمها إلى الأساس.

قال ابن أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجا مملوءا آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل، قال: وبذل للسلطان جملة من المال وأنه يطلق من عنده من الأسارى، فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وأنه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني وذل، وأطلق مابيده من الأسارى، ورجع السلطان مؤيدا منصورا، ووصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة، وكان

الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقري شاهدا هذه الغزاة فنظم قصيدة في السلطان منها:

لقـــد جمل الله منـــك الـــورى
بــــأوفى مليـــك وفي هجـــان
تهش إلى نغمات السيــــــو
ف في الهام لا نغمات القيــــان
أزرت ابـــــن لاون لأواءه
فـــأضحـــى بـــه خبرا عـــن عيـــان
ودان مـــن الـــذل لا يـــر عـــوي
حـــذارا مـــن الـــراعفـــات اللـــدان
فـــلا قـــدم عنـــده للثبـــا
ت وليـــس لـــه بسطـــاكـــم يـــدان
وأخلى إليكـــم المنـــاقير
وغـــادر للهـــدم تلـــك المبـــاني
وأرســـل بـــالاسراء العنـــا
ة يســـأل اطـــلاقـــه فهـــو عـــاني
رتقـــت بعـــزمـــك والمكـــرمـــا
ت فتـــوقـــا مـــن الأرتقـــي الهجـــان
ورعـــت ابـــن سلجـــوق في ملكـــه
فقعقـــع مـــن رعبـــه بـــالشنـــان

قال: ولما وصل السلطان إلى حمص وخيم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب الدين عبيد الله بن أسعد الموصلي وأنشده، وله في السلطان مدائح منها قصيدة غراء مطلعها:

أمـــا وجفـــونـــك المرضـــى الصحـــاح
وسكـــرة مقلتيـــك وأنـــت صـــاحـــي
لقـــد اصبحـــت في العشـــاق فـــردا
كما اصبحـــت فـــردا في الملاح

يهز الغصـــن فـــوق نقـــى ويـــرنـــو
بحـــد ظبـــي ويبســـم عـــن أقـــاح
وقـــد غـــرس القضيـــب على كثيـــب
فـــأثمـــر بـــالظـــلام وبـــالصبـــاح
ومـــال مـــع الـــوشـــاة ولاعجيـــب
لغصـــن ان يميـــل مـــع الـــريـــاح
قطعنـــا الليـــل في عتـــب وشكـــوى
إلى أن قيـــل حـــي على الفـــلاح
ولاح الصبـــح يحكـــي في سنـــاه
صـــلاح الـــديـــن يـــوســـف ذا الصـــلاح
ولما ضـــاق حـــد عـــن مـــداه
لقينـــاه بـــآمـــال فســـاح
فمـــن هـــرم وكعـــب وابـــن سعـــدى
رعـــاء الشـــاء والنعـــم المراح
جـــوادبـــالبـــلاد ومـــاحـــوتـــه
إذا جـــادوا بـــألبـــان اللقـــاح
ليفـــد حيـــاء وجهـــك كـــل وجـــه
إذا سئـــل النـــدى جهـــم وقـــاح
ملـــوك جلهـــم مغـــرى بظلـــم
ومشغـــول بلهـــو أو مـــزاح
إذا مـــا جـــالـــت الابطـــال ولى
ويقـــدم نحـــو جـــائلـــة الـــوشـــاح
وبـــون بين مـــالـــك بيـــت مـــال
ومـــالـــك رق امـــلاك النـــواحـــي
هـــم جمعـــوا وقـــد فـــرقـــت لكـــن
جمعـــت بـــه الـــرجـــال مـــع الســـلاح
ومـــا خضـــع الفـــرنـــج لـــديـــك حتـــى
رأوا مـــا لا يطـــاق مـــن الكفـــاح

ومــــاســـــألـــــوك عقـــــد الصلــــح ودا
ولكـــــــن خـــــــوف معلمـــــــة رداح
مــــلأت بـــلاد هـــم سهــــلا وحـــزنـــا
اســـــود اتحت غـــابــــات الـــرمــــاح

وقـال ابـن شـداد: لما عـاد السلطـان بعـد الكسرة— يعنـي كسرة الـرملة— إلى الـديـار المصرية، وأقـام بها ريثما لم النـاس شعثهم، وعلـم تخبط الشـام عزم على العـود إليه، وكان عـوده للغزاة فـوصله رسـل قليج أرسلان يلتمسون منـه الموافقة ويستغيث إليه من الأرمن، فـاحتمل نحو بلاد ابـن لاون لنصرة قليج أرسلان عليه ونـزل بقرا حصار، وأخـذ عسكر حلب في خـدمته لأنـه كان قـدا اشترط في الصلح ذلـك، واجتمعوا على نهر الأزرق بين بهسنـا وحصن منصـور وعبر منه إلى النهـر الأسود طـرف بلاد ابـن لاون، فأخذ منهـم حصنا وأخربه، وبـذلوا له أسـارى والتمسوا منـه الصلح، وعـاد عنهـم، ثم راسلـه قليـج أرسلان في صلـح الشرقيين بـأسرهـم، واستقـر الصلح في عـاشر جمادى الأولى سنـة سـت وسبعين، ودخل في الصلـح قليج أرسـلان والمواصلة وأهل ديـار بكر، وكـان ذلك على نهر سنجه، وهو نهر يرمي إلى الفرات، وسار السلطان نحو دمشق.

- ٨٣٢١ -

فصل
في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي،صاحب الموصل، والسلطان مخيم على كوك سو من حدود بلاد الروم، وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود بن مودود، وجاء رسول مجاهد الدين قايماز، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي إلى السلطان، وطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين في يده، فلم يفعل السلطان، وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة على شرط أنه يقوي السلطان بالعساكر، فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك وان هذه البلاد لم تزل تتقوى بها ثغور الشام، ففوضت إليه على ماأراد، وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من إنشاء العماد وفيه:« قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية، بما لم يختص به أحد، وامتدت اليد منها في اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم يمتد إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة أدعيا، وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفا، ولاخفاء إن مصر إقليم عظيم وبلد كريم بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة، وعانت كل هضيمة، وعاينت كل عظيمة، حتى أنقذها الله عز وجل بنا من عبيد بني عبيد، وأطلقها بمطلقات أعنتنا إليها من عناء كل قيد، وفيها شيعة القوم، وهم غير مأموني الشر إلى اليوم، وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة، فمن حقها ان يتوفر عسكرها، فلو حصل والعياذ بالله بها فتق أعضل رتقه، واتسع على الراقع خرقه، واحتجنا في حفظ بلاد الشام، وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله مدة خمس سنين في بيكارها، منتقما من كفارها، محتملا لمشاقها على غلاء اسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد

اقتطعت عنـه، وعساكـرها أخذت منـه، وكانت في تـولي نور الـدين رحمه الله» ثم ذكرها كما سبق ففوضت إليه كما سيأتي.

وقال ابـن الأثير: توفي سيف الـدين يوم الأحد ثـالث صفر سنـة ست وسبعين، وكان مرضه السل، وطال بـه، قال: ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقـوّن بالموصل سنة خمس وسبعين للغـلاء الحادث في البلاد، خرج سيـف الدين في مـوكبه فثـار الناس وقصدوه مستغيثين بـه، وطلبوا منه أن يـأمر بـالمنع مـن بيع الخمـر، فأجـابهم إلى ذلك، فـدخلوا البلـد، وقصدوا مسـاكن الخمارين وخربـوا أبوابها ونهبوها، وأراقـوا الخمور وكسروا الأواني، وعملوا مالا يحل، فاستغاث أصحـاب الدور إلى نواب السلطان، وخصوا بـالشكوى رجـلا من الصالحين يقـال له أبـو الفرج الـدقاق، ولم يكن له في الـذي فعله الناس من النهب فعـل، إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعـل العامـة نهاهم فلـم يسمعـوا منه، فلما شكـي أحضر بالقلعـة، وضرب على رأسـه فسقطـت عمامتـه، فلما أطلق لينـزل مـن القلعـة نـزل مكشوف الـرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلـم يفعل، وقال: واللـه لاغطيته حتى ينتقـم الله ممـن ظلمني، فلـم يمض غير قليـل حتى تـوفي الدزدار المبـاشر لأذاه، ثم تعقبـه مرض سيـف الـدين، ودام مـرضه إلى أن تـوفي، وكان عمـره نحو ثـلاثين سنة، وكانـت ولايته عشر سنين وشهـورا، وكان أحسن النـاس صورة، تام القـامة مليـح الشمائل، أبيض اللون، مستـدير اللحيـة، متوسـط البدن بين السمين والـدقيق، وكـان عاقـلا وقورا قليـل الالتفات إذا ركـب، وإذا جلس، عفيفا لم يـذكر عنه شيء مـن الأسباب التي تنافي العفة، وكان غيورا شـديد الغيرة لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر إنما يـدخل عليهن الخدم الصغار، وكـان لايحب سفك الدماء ولاأخذ الأموال مع شح فيه.

قـال: ولما اشتـد مـرضـه أراد أن يعهـد بالملـك لـولـده معـز الـديـن سنجرشاه، فخاف مـن ذلك لأن صلاح الدين يوسف بـن أيوب كان قد

تمكن بالشام وقويت شوكته، وامتنع أخوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده في أخيه، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل، وقوة النفس وحسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عمهما عز الدين ليبقي لهما ذلك، ففعل ذلك وحلف الناس لأخيه، فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو المدبر للدولة والنائب فيها والمرجع إلى قوله ورأيه، فركب إلى الخدمة العزية وعزاة وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلا، فدخلها وجلس للعزاء، وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجراءته وحدة كانت فيه، وكان لايلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمرا، فلما ولي تغيرت أخلاقه وصار رفيقا بالرعية محسنا اليهم، قريبا منهم.

قال ابن شداد: وفي عاشر المحرم سنة ست وسبعين بلغ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خالد فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صفر.

- ٨٣٢٤ -

فصل.

في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر

وقدوم رسل الديوان بالتفويض إلى السلطان فيما طلب

قال ابن أبي طي: كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة إلى الاسكندرية، وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده القولنج فهلك به ودفن بقصر الاسكندرية، وكان أحد الأجواد الكرماء الأفراد، شجاعا باسلا عظيم الهيبة، كبير النفس، واسع الصدر ممدحا فيه يقول ابن سعدان الحلبي من قصيدة:

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيرا فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تتحمل للسحائب منة
إذا هطلت جودا سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما
فلليمن يمناه ولليسر يسراه

وقال العماد: وفيها في المحرم توفي بثغر الاسكندرية تورانشاه أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، وهو نازل بظاهر حمص، فحزن عليه حزنا شديدا، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي، وكان كتاب الحماسة من حفظه، وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله إلى اليمن فملكها، ثم استناب فيها وقدم الشام سنة إحدى وسبعين، فلما وصل تيماء جاء منه كتاب وفيه أبيات لشاعره ابن المنجم منها:

فهل لأخي بل مالكي علم إنني
إليه وإن طال التردد راجع
وأني بيوم واحد من لقائه
لملكي على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة
وتجني المنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذ بدا
وتخشع إعظاما له وهو خاشع
كتبت وأشواقي إليك ببعضها
تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها
تضم على الدنيا ونحن الأصابع

قلت: وقبر تورانشاه الآن بالتربة الحسامية بالعوينة ظاهر دمشق نقلته إليها أخته ست الشام بنت أيوب،وبنت القبر عليه، وعلى زوجها ناصر الدين محمد بن شيركوه، وهو ابن عمها وعلى قبرها وقبر ابنها حسام الدين عمر بن لاجين، وسيأتي ذكره وإليه تنسب التربة، فهي ثلاثة قبور القبلي لتورانشاه، والأوسط لابن شيركوه، والشامي لست الشام وابنها رحمهم الله(٧).

قال العماد: وفيها في رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصري، صدر الدين شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم، ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد، فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقي، وعلى صفحاته بشائر الترقي، فلما ترآى له الرسل الكرام، ووجب لهم الإجلال والإعظام، نزل وترجل وأبدى الخضوع وتوجل، ونزل الرسل إليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبل الفرض وقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة.

قال ابـن أبي طي: وكانـت هذه أول خلعة قـدمت من الإمـام الناصر، على الملك الناصر، وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، وبيقار أسود مـذهب، وطيلسـان أسود مـذهب، ومشـدة سوداء مـذهبة، وطـوق وتخت وسر فسـار وجواد كميـت من مـراكب الخليفـة عليه سرج أسـود، وسـلال أسود، وطـوق مجوهـر، وقصبة ذهـب وعلـم أسـود، وعدة خيـول وبقج، وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق، وكان يوما عظيما.

قال العماد: وظفـر السلطان من صدر الـدين بصديق صـدوق، وكان قد عـزم على قصد الديـار المصرية، وسلوك طـريق ايلة والبريـة، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته، ورغبة زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فقال: قد عزمت في هـذه السنة على الحج فأصل معكم إلى القاهـرة بشرط إقامة يـومين ولاأدخلهـا وإنما أسكن بـالتربـة الشـافعية، وأسير منهـا إلى بحـر عيذاب فلعلي أدرك صوم رمضـان بمكة، فالتزم ابـن الشهروزوري، وأنشأ العماد كتابـا في الجواب إلى الديـوان وفيه:« وقـد توجـه الخادم إلى الديـار المصرية لتجديـد النظر فيها، ثم يستخير اللـه في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه».

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر مرة ثانية

قال العماد: ولما عـزم السلطان على الرحيل استنـاب بالشام ابـن أخيه عز الدين فرخشاه، وكان عزيـز المثل، غزير الفضل، وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها:

أسـأل الله ذا العلى أن تعيـش
ألـف عـام لنصره مستجيشـا

ومنها:

مـا أكـدي شيئـا سـوى فـروة منـ
ـك وأبغـي لسفـرتي اكـديشـا
كيـف يخلـو مـن دفء ظهـر
سـالـك طـرق إيلـة والعـريشـا

ووقفت على ثلاثة كتـب للفاضل عن الملك العادل إلى الـولاة باليمن، يعلمهـم أن ملوك الشرق قـد دخلوا في طـاعة السلطـان، وأنه عـازم على القـدوم إلى مصر،وصـوم رمضـان بها، والحج إلى بيـت اللـه الحرام منهـا، ويأمرهـم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزواد والخلع، مما تشتمل عليه تلـك الأعمال، ووقفت على كتابين آخريـن أحدهما إلى أمير مكة، والآخـر إلى أمير ينبع يعلمهما بـذلك ليتـأهبا لقـدومه،ووقفـت على كتاب سادس للفاضل إلى السلطان في ذلك يقول فيه:« جعل الله الملوك ذمة لسيفه، وشرد منام الأعداء منهم بطيفه، وأمن أهل الاسلام بعدله من جور الـدهر وحيفـه، وأشهده مـوقف الحج الأكبر، وزان بمحضره مشهـد خيفه، وجعل وفده الأكرم وضيف بيتـه في هذه السنة في وفده وضيفه» ثم هناه بما فتح الله عليه من محبة الجهـاد، وماأثره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد، ومـاتبع ذلـك من نية الحج بلغـه الله منه المراد، ودخـول السلطان

بلاد الأرمن كان في هذه السنة، كما سبق، فلعله سنح له الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له مامنعه منه.

قال العماد: ورحل السلطان إلى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ، فأقام يومين كما ذكر وتوجه منها إلى مكة على البحر فأدرك الصوم.

قال العماد: ووصلنا إلى القاهرة على طريق إيلة ثالث عشر شعبان، واستقبلنا أهلها، ولقينا الأكابر والأعيان، والملك العادل أخو السلطان حينئذ بها نائبة، وتلقينا مواكبه ومواهبه، وخدمته بقصيدة ذكرت فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة منها:

قلبي طال ليلي بعدكم
أسى فمتى ألقى بوجهكم الفجرا
فقدت حياتي مذ فقدت لقاءكم
فهل لحياتي منكم نشأة أخرى
أجيران جيرون المجير من جارهم
من الجور حوزوا في مشوقكم الأجر
محبكم قد خانه الصبر فاطلبوا
محبا سواه عنكم يحسن الصبرا
ومذ غبت عن مقرى قد نبا
سقى ورعى ربي مقري في مقرى
أحن إلى عذرا وعذري واضح
لأن الهوى العذري مني في عذرا
إذا القدر المحتوم من جلق بنا
إلى مصر أسرى فالقلوب بها أسرى
رحلنا فما باحت بأسرارنا سوى
عبارة عين خوف يوم النوى عبرى
تركنا دمشقا والجنان وراءنا
وقد أمنا بالكسوة الرفقة السفرا

وجئنا إلى المرج الذي طاب نشره
فلا زال من أحبابنا طيبا نشرا
رحلنا بمرج الصفر العيس غدوة
فسارت وحطت في محجتها ظهرا
وقد قطعت تبنا إلى الدير بعدها
وبعدهما غدر البشامية الغزرا
ورأس الحشا والقريتين وكلها
موارد فيها السحب قد غارت غدرا
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
وجزنا عقابا كان مسلكها وعرا
إلى قلة الراعي إلى نابع إلى
جراول فالنخل الذي لم يزل قفرا
إلى منزل في روضة الجمل اغتدت
به عيسنا في صدر شارحه صدرا
ودون حشا الماحشنا ركابنا
عيون لموسى لم يزل ماؤها مرا
هناك تلقانا الوفود ببرهم
فسروا بنا نفسا وزادوا بنا بشرا
قطعنا إلى بحر الندى بحر قلزم
ومن قصده بحر الندى يقطع البحرا
عبرنا إلى من كاثر الرمل جوده
وجزنا إليه ذلك الرمل والجسرا
ولم يرونا ماء الثماد بعجرد
ولم يقتنع بالقل من يأمل الكثرا
وجبنا البويب والمصانع قبله
إلى بركة الجب التي قربت مصرا
إلى عزمه في المجد غير قصيرة
وكان قصارى أمرنا أن نرى القصرا

ولما نزلنا مصر في شهر طوبة
وردنا بكف العادل النيل في مسرى
غدا قاصراً عن قصره قصر قيصر
وإيوان كسرى عند إيوانه كسرا

قال العماد: وفي هذه السنة بمصر عربت كتاب كيمياء السعادة تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين، وفزت من تعريبه وعلم مافيه بسعادتين، وذلك بأمر فاضلي لزمني امتثاله، وشملني في إتمامه إقباله.

قال: وفيها في خامس عشري شوال توفي صاحبي المعتمد ابراهيم بدمشق، وأنا بمصر.

قلت وهذا غير والي دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى، ويلقب أيضا بالمعتمد، ورثى العماد صاحبه بقصيدة منها:

أرى الحزن لايجدي على من فقدته
ولو كان في حزني مزيد لزدته
تغيرت الأحوال بعدك كلها
فلست أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الايمان بالنجح واثقا
فحلت يد الأقدار ما قد عقدته
وكان اعتقادي أنك الدهر مسعدي
فخانتني الأيام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن
سوى ما أراد الله لا ما أردته
وداع دعاني باسمه ذاكراً له
فأطربني ذكر اسمه فاسعدته
فقدت أحب الناس عندي وخيرهم
فمن لائمي فيها إذا ما نشدته

قال: ورثيته ببيتين وذكرت العناصر الأربعة في بيت واحد منهما:

لهفـــي على مـــن كـــان صبحـــي وجهـــه
فعـــدمـــت حين عـــدمتـــه أنـــواره

سكـــن التراب وغـــاض مـــاء حيـــاتـــه
مـــذ أطفـــأت ريـــح المنيـــة نـــاره

قال ابـن أبي طي: وفي هـذه السنة سـافر قـراقوش إلى قـابس، فـذكر محاصرتـه لجملة مـن القلاع، وقتلـه جماعة مـن البربر، ومما ذكره أنـه أسر جماعة على حصن وأمـر بقتلهم، وفيهم صبي أمرد، فبذل فيـه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على أن لايقتله فـأبى فزاودوه إلى مائة ألف فـأبى وقتله، فما استتـم قتلـه حتى نـزل شيـخ مـن القلعـة ومعـه مفاتيحهـا وقـدمهـا لقـراقوش، فسـأله عـن الخبر فقال: هـذا الصبي الـذي قتلته ولـدي، ولم يكـن لي سـواه ولأجله كنـت أحفـظ هـذه القلعة، فلما قتلتـه علمـت إن بقيت هذه القلعة في يدي ومت صـارت إلى أولاد أخي وأنا أبغضهم فرده إلى القلعة وأخذ منه أموالا.

- ٨٣٣٢ -

ثم دخلت
سنة سبع وسبعين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي ميقاتا، وجمع به من أهل العلم والعلماء عنده أشتاتا، وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر مامن الله به على الأنام من الإنعام بكثرة ولادة التوأم في ذلك العام، وجبر الله به ماكان قبله من الوباء، وتفاءلوا بالخصب بعد الجدب والغلاء.

قال: ودخلت الحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجاء الواعظ في داره، خارج باب زويلة بالقاهرة في ذي القعدة فقلت:

ما منزل من يرى
فيه غير عار فعار
به تماط الأذايا
وترحض الأوضار
والعيش فيه قرير
والطيش فيه وقار
والسبت في كل يوم
لمن يرى مختار
نار تطيب ألا أعجب
لجنة هي نار

وله فيه:

ومنزل يدخله
لشغله كل أحد
يوجد فيه السبت في
كل خميس وأحد

- ٨٣٣٣ -

فصل

في ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمهما الله وماتم في بلاده بعده وذلك بحلب

قال ابن شداد:وكان مرضه بالقولنج، وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدة مرضه، واستدعي الأمراء واحدا واحدا واستحلفوا لعز الدين صاحب الموصل، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس.

وقال ابن أبي طي: كان سبب موته أن علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما في عنقود عنب وهو في الصيد، وقيل الذي سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل إنه أطعمه خشكنانكة وهو في الصيد، قال: ودفن بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحزن الناس له حزنا عظيما، وكان من أحسن الناس صورة وألبقهم أعطافا.

قلت: وبلغني أنه كان يقال إن موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله، فإنه سأل الله تعالى أن لايعذب شيئا من أجزائه بالنار، وولده جزؤه فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيرة وحالة رحمهما الله.

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها، فقال: لاأفعل حتى استفتي الفقهاء، وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ويعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه فأفتاه بجواز شربها، فقال له: ياعلاء

الديـن إن كان الله سبحـانه وتعالى قـد قرب أجلي أيؤخـره شرب الخمر؟ قال: لاوالله ، قال: والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ماحرمه علي.

قلت: يحتمل أنه ذكر له أن من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك لا أنه كان يرى ذلك فإن مذهبه بخلافه، والله أعلم.

ثـم قال ابـن الأثير: فلما آيس مـن نفسه أحضر الأمـراء كلهم وسـائر الأجناد ، واستحلفهم لابن عمه أتابك عـز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمـك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات، فلو أوصيـت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكـان أحسن، ثم هو تـربية والدك، وزوج أختك، وهـو أيضا عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق والخلال التـي تفرد بها، فقـال: إن هذا لم يغـب عني، ولكـن قد علمتـم تغلب صـلاح الديـن على عامـة بلاد الشـام سوى مـابيدي ومعـي، فإن سلمت حلب إلى عماد الـدين يعجز عن حفظهـا من صلاح الديـن فإن ملكهـا صلاح الـدين فـلا يبقى لأهلنـا معه مقـام، وإذا سلمتها إلى عـز الـدين أمكنـه أن يحفظهـا لكثرة عسـاكـره وبلاده وأمـوالـه، فاستحسـن الحاضرون قـوله وعلمـوا صـحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه، ومن أشبـه أباه فما ظلـم، فلما توفي أرسـل دزدار حلب، وهـو شاذبخـت وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يـدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد الخبر ومجاهـد الـديـن قـايماز قـد سـار إلى مـارديـن لمهـم عـرض فلقـي القاصديـن عندها فأخبروه الخبر فسار إلى الفرات، وأرسـل إلى أتابك عز الديـن ويشير بتعجيل الحركـة، وأقام على الفـرات ينتظره، فسـار أتابـك مجداً فلما وصـل إلى المنزلـة التي بها مجاهـد الـدين أقـام معه، وأرسـل إلى حلب يستحضر الأمـراء فحضروا كلهم عنـده، وجددوا اليمين لـه، فسار حينئذ إلى حلـب ودخلها وكان يومـه مشهودا، ولما عبر الفرات كـان تقي الديـن عمر ابن أخـي صلاح الديـن بمدينة منبـج فسار عنها هـاربا إلى

مـدينة حماة، وثـار أهل حماة ونـادوا بشعار أتـابـك، وكان صـلاح الديـن بمصر، فأشـار عسكر حلب على عز الـدين بقصد دمشق وأطمعـوه فيها وفي غيرها من البلاد الشـامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتـابكي، فلم يفعل وقـال: بيننا يمين فلا نغـدر به، وأقام بحلـب عدة شهور، ثـم سار منها إلى الـرقة فأقـام بها وجاءه رسول أخيـه عماد الدين يطلـب أن يسلم إليه حلـب، ويأخذ منـه عوضها مـدينة سنجـار، فلم يجبه إلى ذلـك ولج عماد الـدين وقـال: إن سلمتـم إلي حلـب، وإلا سلمت أنـا سنجـار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ الجماعـة بتسليمها اليه، وكان أكبرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، ولم يمكن أتابك عز الديـن مخالفته لتمكنه في الدولة، وكثـرة عساكره وبلاده، فـوافقه وهو كـاره، فسلـم حلب إلى أخيـه وتسلـم سنجـار، وعاد إلى الموصـل، وكـان صلاح الـدين بمصر وقد آيـس من العـود إلى الشام، فلما بلغه ذلـك برز عن القـاهرة إلى الشـام، فلما سمع أتابـك عز الديـن بوصـول صلاح إلى الشـام جمع عساكـره وسـار عـن الموصل خـوفـا على حلـب من صـلاح الـدين، فـاتفـق أن بعض الأمـراء الأكـابر مـال إلى صـلاح الديـن وعبر الفرات إليـه، فلما رأى أتابـك ذلك لم يثـق بعده إلى أحـد من أمـرائه، إذ كان ذلـك الأمير أوثقهم في نفسه، فعـاد إلى الموصل، وعبر صلاح الـدين الفـرات، وملك البـلاد الجزرية، ونـازل الموصـل فلم يتمكـن من النـزول عليها، وعـاد إلى حلب وحصرها فسلمها عماد الـدين إليه وسبـب ذلك أن عز الـدين لما تسلـم حلب لم يترك في خـزائنها مـن السلاح والأمـوال شيئا إلا نقله إلى الموصل، وتسلمها عماد الـدين وهي كما يقال بطن حمار، فهو كان السبب في تسليمها.

قال ابن شـداد: ولما توفي الملك الصالـح سارعوا إلى إعلام عـز الدين مسعود بـن قطب الدين بـذلك وبما جرى لـه من الوصية إليـه، وتحليف الناس لـه، فسارع سائرا إلى حلب مبـادرا خوفا من السلطـان، فكان أول

قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين، وصاحب سروج، ووصل معهما، من حلف الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب، وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة المذكورة، ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال، وعلم أنه لايمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه، وضاق عطنه، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز، وكان ضيق العطن لم يعتد مقاساة أمر الشام، فرحل من حلب طالب الرقة، وخلفه ولده ومظفر الدين بن زين الدين بها، فأتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستقر مقايضة حلب بسنجار، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشري شوال، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب.

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه، وهو نائبه بدمشق: « وقفنا على كتابه، وعلمنا ماتجدد من الخبر مرض الملك الصالح واشتداد حاله، وانقطاع الداخل عليه» ثم أشار بتنفيذ عسكر إلى جهة أخيه تقي الدين على إظهار قاعدة النظر في القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان، والتوجه لفصلها، قال: « فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم، وباطنها لهذا السبب المتأخر، وقد كوتب الولد تقي الدين ان يتوجه إلى منبج وتل باشر، وهي جمهور الطرق بل كلها وقد أوعزنا إلى تقي الدين بأن يكون حمام حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة، وإلى الأجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق في حمص، وحمام حمص في حلب، وولدنا عز الدين يؤمر بأن يكون حمام بصرى في دمشق، وقد بعثنا نجابين يكونون منيخين ببصرى، فإن تحققت الوفاة فنحن أسبق اليكم من الجواب قولا وفعلا، ووعدا ونجحا، فالعلة

مـزاحـه، والعسـاكـر مستريحه والظهر قـد استعـد والمصلحـة في الحركـة ظاهرة، وحجج انتقاد المنتقدين في هذه القضية ساقطة».

وقال العماد: كـان قصد السلطـان إصلاح حال الملـك الصالـح، وأنه القائم مقام أبيه، فصده عنه مماليكه، فـأخذت بلاده بلجاجهم، ومرضت دولته لسـوء علاجهـم، فاقتنع بحلـب إلى أن توفي، ووصـل ابن عمـه عز الدين مسعـود صاحب الموصل إلى حلـب، فجمع ظاهره وبـاطنه، وأخذ خزائنه، واستخرج دفائنه، وأخلى كنائنـه، ثم عرف أنه لايستقر له بها أمر، فرغب أخـاه عماد الدين زنكي صـاحب سنجار في تعويضهـا له بحلب، فمال إلى بذلـه ورغب، ولما سمع السلطان في مصر بـوفاة الملك الصـالح تحرك عزمـه وندم على النـزوح من الشام مـع قرب هـذا المرام، فكتب إلى ابن أخيـه تقي الـدين، وهـو يتولى لـه المعره وحماة، وكـان نائبـه بدمشـق للنهـوض، وكذلـك شحذ عـزائم نوابـه بالشـام بتجديـد المكاتبـات لهم وبعثهم على الاستعداد وحملهـم، وكان نائبه بـدمشق ابن أخيه عـز الدين فرخشـاه قد نهض في مقابلة الفـرنج بالكرك، فـإن الابرنس الكركـي كان يحدث نفسـه بقصـد تيماء في البريـة، فما زال فرخشـاه في مقـابلتـه حتـى نكـص اللعين على عقبيه ذليـلا، ولم يجد إلى مـاحدثتـه بـه نفسه سبيـلا، فعرف السلطـان اشتغاله بهذا المهـم، فكتب كتابـا يشرح الحال إلى بغداد باللفـظ العمادي يقول فيه:« وشـاع الخبر بغارة فـرنج أنطاكيـة على حارم وأتوا مـن السبي والنهب بـالعظائم، وشـاع أيضا أن عسكر حلـب أغار على الراوندان وهـي في عملنا، ورسولهم عند الفرنج يستنجـدهم ويغريهم بنا، وقد راسلـوا الحشيشية والمراد من الرسـالة غير خاف والعلم بـالمعتاد منه كـاف، وابن أخي غـائب في أقصى بلاد الفـرنج في أول بريـة الحجاز فـإن طاغيـة منهم جمع خيلـه ورجله، وحـدثته نفسـه الخبيثة بقصـد تيماء وهي دهليز المدينة على ساكنها السـلام، واغتنم كون البرية معشبة مخصبة في هـذا العام، والعجـب أن نحامـي عـن قبر النبي صلـوات الله عليـه وسلامه، مشتغلين بهمـه، والمذكور— يعني صاحـب الموصل— ينازع في

ولاية هي لنا ليأخذ بيد ظلمه، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال، هذا مع مانعد في الدولة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لايعد مثلها أولا لأبي مسلم لأنه أقدم ثم خامر، ووالى ثم ولى، ولآخرا لطغرلبك فإنه نصر ونصب، ثم حجر وحجب، وقد عرف مافضلنا الله به عليهما في نصر الدولة، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها وتطهير المنابر من رجس الأعداء، ولم نفعل مافعلنا لأجل الدنيا غير أن التحدث بنعمة الله واجب، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب، ولاغنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده، ولايتجاوز حقه، فإن دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل، ويحتاج إلى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل، فإن الأعمار تمر مر السحاب، والفرص تمض ومض السراب، وبقاؤنا في هذه الدار القليل اللبث القصير المكث يؤثر أن نغتنمه في مجاهدة العدو الكافر الذي صار به البيت المقدس محلا للارجاس، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على الياس، وإن كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولا معارة، فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار، فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ماوفت بفتح مصر التي رحل عنها أسامي الأدعياء الراكبة أعوادها، وأعاد إلى عينها بعد بياض عمائها، من نور الشعار العباسي سوادها، فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد فالأولى أن يقلد الجميع فلا رغبة فيما لايؤمن معه شر الشريك، وللمالك الأمر الحكم في ممالك المماليك»، وكان في الكتاب أيضا مامعناه أن حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله له، وإنما تركها في يد ابن نور الدين» لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه وليقنع برزقه».

ومن كتاب فاضلي:« فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصدده، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده، لكان الاسلام قد أعفى من

شركة الشرك، وانفك أهله من ربقة أهل الأفك، ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصلب خطباءها، ولكان الدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنيها والمسلمون غرباءها».

وفي كتاب آخر له:« وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الاسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكنا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا، وكالانعام أو أضل سبيلا، إن بني معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس».

وفي كتاب آخر:« والخادم والحمد لله يعدد سوابق في الاسلام والدولة العباسية لايعدها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى،ولا آخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي ذخر الله للاساغة في سيفه ماءها، فرحل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد ابراهيمي، فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر، وفعل ومافعل للدنيا ولامعنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر» ومن كتاب آخر عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها، وكانت داخلة في تقليد السلطان السابق فقال:« دخل حلب مستوليا، وحصل بها معتديا وعقود الخلفاء لاتحل، والسيوف في أوجه أوليائهم لاتسل، وإنه إن فتح باب المنازعة، أدنى من ندامه، وأبعد من سلامه، وخرق مايعيى على الراقع، وجذب الرداء فلم تغن فيه إلا حيلة الخالع، وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبها، ولا الدخول إلى الدار بموجب ملك غاصبها، إلا أن تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله، حيث الجمعة مستريبه، والخلافة في غير أهلها غريبة، والعقائد لغير الحق مستجيبة، فتلك الولاية أولى من منحها من فتحها، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها، وأما حلب فإن الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، فإنما تكون لمن قلدها لالمن توردها، ولمن بالحق تسلمها

لا لمن بالباطل تسنمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور و لولجها، ولم يناظر، ولكنه أتى البيوت من أبوابها، واستمطر القطار من سحابها» ،ثم ذكر أن المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يد الاسلام تقلع، وضياع من في المسلمين توضع، وبدار دعوة بحلب ينصب فيها علم الضلالة فيرفع، وياللعجب من الخصم يهدم دولة حق، وهي تبنيه، ومن العبد يبني ملكها بنفسه وماله وذويه، وهي تراقب أعلاه فيه، ودعواه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوى لايقوم شاهدها، ولاهي بشناعة لايهتدي قائدها، بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القمص ملك الفرنج، وهذه الكتب الواصلة بذلك قد سيرت ولاستيجاب الولاية طرق، أما السبق إلى التقليد فللخادم السبق، وأما العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق، وأما بالآثار بالطاعة فله فيها مالولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيدي الخلق، ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الاشراك، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك، وأحوجت قابض الأعنة إلى أن يعليها الجدد، ويرسلها العراك، وطريق الصلاح والمصالحات الإيمان، والمشار إليهم لايلتزمون ربقتها، ولايوجبون صفقتها، وكفى بالتجريب ناهيا عن الغره، ولايلدغ المؤمن إلا مره، وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث يد عادية، ويد ملحدة، ويد كافرة نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الاسلام يد مغيثه، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه، وتصديق حديثه، ومايريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولايؤثر إلا مايتقرب به إليه وهو الطاعة، ولايتوخى إلا ماتقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة».

ومن كتاب آخر:« قد أحاط العلم بما طالع به أولا عند وفاة ولد نور الدين رحمه الله أن التقليد الشريف المستضيء لما وصله بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها قلاعا وأمصارا، وحصونا وديارا، ولم يبق إلا قصبة حلب،

وهو على أخذها عـدل ولد نور الدين عن القتـال إلى النوال، وعن النزال إلى الاستنزال، وقصـد القصد الذي ماأوجبـت المحافظة ان يتلقى بـالرد، فأقره على الـولاية فرعا لاأصلا، ونـائبا لامستقلا، وسلم إليـه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السالبة لا المسلوبة، ومشى الأمر معه مستقيما ومائلا، وجـائرا وعادلا، إلى أن قضى نحبه، ولقـي ربه فبدأ مـن المواصلة نقض الإيمان، والإبتـداء بالعدوان، والتعرض للبـلاد، والتصرف فيها بغير حجة يكون عليهـا الإعتماد، فطالع الديوان بالقضيـة، واستشهد بدلالات قـوانينه الجليـة في هذا التقليـد الذي تهادتـه المحـاضر، وأشاعتـه المنابـر، وسيرت إلى الشرق والغـرب نسخه، وغلـت الأيـدي التي تحدث أنفسهـا أنها تفسخه».

فصل

قال العماد: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان إلى الاسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري وشاهد الاسوار التي جددها والعمارات التي مهدها، وأمر بالإتمام والإهتمام، وقال السلطان:نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخير من شوال، وتم له ولأولاده ولنابه السماع، والوالي يومئذ بها فخر الدين قراجا.

قلت: ووجدت للقاضي الفاضل كتابا كتبه إلى السلطان يهنيه بهذا السماع يقول فيه:« أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم، وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأوزع الخلق شكرا لنعمته فيه فإنها نعمة لاتوصل إلى شكرها إلا بايزاعه، وأودع قلبه نور اليقين، فإنه مستقر لايودع فيه إلا ماكان مستندا إلى إيداعه، ولله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، ومامنهما إلا أغر محجل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لاتستر، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثر لايظهر وقد استغرب الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه والرفع من أقدار أهله، والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان، وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر، فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة، وأمور خلق الله كأمر دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك

للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته، وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب قط لملك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون رحمة الله عليه، على أنه خلط زيارة نبوته بطلب، ورحل بولديه إلى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا الموطأ الذي اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه، والرحلة لانتجاعه، وقد كان الرشيد سام مالكا رحمه الله أن يجعل له ولولديه الأمين والمأمون مجلسا خاصا لاسماع مصنفه، فقال له مامعناه: إنها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم، وغيرك من سترها، ومثلك من نشرها، فهذه رحلة ثانية في الزمان، وأولى في الإيمان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكتب المصرية، فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية، فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة، وإلا فليلتمس، وكذلك خط موسى بن جعفر في فتيا المأمون رحمهما الله كان أيضا فيها، وكلاهما يتبرك بمثله، ويعلم به فضل العلم لاخلا المولى أبقاه الله من فضله، وقف المملوك على مابشر به من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، وانقطاع ماكان من دم، واسترواح القلب من كل هم، وقد استفتحت هذه الطريق بكل فال مباركة البكر والفال، مأثورة عن سيد البشر، فمن ذلك صحة جسمه فلتهنه الصحة، وفسحة قلبه دامت له الفسحة، وانقطاع الدم، وطريقة إلى الشام ينقطع بها الدم، ويتصل النصر له وينتظم السلم، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكه، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله به ممالكه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله.

قلت: هكذا يقع في كتب الفاضل رحمه الله كثيرا، وهو أنه يختمها بالأدعية متصلة بقوله إن شاء الله، والتعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية،

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« لايقل أحدكم اللهم أغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل مايشاء لامكره له»(٨).

فصل

في أمور تتعلق بولاة اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائبا لشمس الدولة أخي السلطان بزبيد،وحصل له من أموالها الطريف والتليد، ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها، وبقي أخوه حطان بزبيد واليا عليها، فصنع دعوة عظيمة بها ،ذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسر حال إذ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة، واعتقل بالقصر، وكان سببه أن أقارب السلطان وخواصه أكثروا عليه عنده أنه استوعب مال زبيد وأن له كنوز لاتبيد، وأشاروا عليه بقبضة وهو يدافع عنه إلى أن أكثروا، وقيل فيه إن لم تدركه فات، فأمر به فاعتقل فسمح للسلطان خاصة من النقد المصري بثمانين ألف دينار، ولم يظهر فيها بيع متاع ولااستدانه من تجار، وغرم لأخوي السلطان العادل وتاج الملوك ماحافظ به على نهج الكرم المسلوك، وخرج مشرفا مكرما، مصرفا محترما، وزاد السلطان في تكرمته،، وأنفذ إليه بما قبضه منه خط يده بأن المبلغ دين في ذمته، ثم باعه أملاكا بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ماطلب عن ايثار واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله في أشيائه وأشياعه.

قال العماد: وكان هذا الأمير من رجاحة عقله، وحصافة فضله، ماسمعت منه شكوى، ولاحكاية في بلوى، وقتل أخوه حطان بزبيد وأخذ ماله، فلم يظهر منه للسلطان كراهه، وكل شيمته نزاهة ونباهة.

قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق السلطان من نوابه باليمن، وذكر مابين ولاتها من الإحن، ووصل الخبر بما يجري بين

الأمير عثمان بن الزنجيلي والي عدن، وبين الأمير حطان والي زبيد من الفتن، فندب إلى زبيد عدة من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يخشى عليها من الفساد، ومن جملتهم والي مصر صارم الدين خطليا، وبقيت الولاية بها في غيبته يقوم بها نوابه ويرجع إلى رأي أهله وأصحابه، فشرعت زوجته في عمارة دار عظيمة سنية، وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافة جليلة اتفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نفس سيف الاسلام طغتكين أخي السلطان تشرئب إلى اليمن، من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها فأمر ابن سعدان الحلبي أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنفاذ سيف الاسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

جرد لها السيف الصقيل فتنة
فالسيف لا يذخر إلا للفتن

شد به أزر العلى فإنه
نعم فتى من شرع الجود وسن

القائل المسمع في مقاله
والصادق الندب الأمين المؤتمن

بادي الفؤاد كيفما سيرته
حن إلى دار الوغى ثمت أن

وفيها يقول:

يا ابن الكرام النجباء والذي
تلقف العلياء فيها ولقن

لا تعد عيناك عن الملك فما
يخاطب العلياء إلا من ومن

قد فسد الملك وقد طال العدى
واقتسموا بعدك أموال اليمن

قال: فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الاسلام في المسير إلى اليمن.

وقال العماد: وفي هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أن يمضي إلى بلاد اليمن وزبيد وعدن، وأن يقطع بها الفتن، ويتولاها ويولي ويعزل، ويحسن ويعدل، فسار بعد مسيرنا إلى الشام، وجرت مملكته فيها على أحسن نظام، وذلك في سنة ثمان، ووصل إلى زبيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه، ثم أذن له في الانفصال إلى الشام، فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد، ومطرف ومتلد، ولجين وعسجد، وياقوت وزبرجد، وآلات وعدد، وحصن وحجور عراب، ومال اعتقده من اليمن بغير حساب، ثم أناخ جماله، ورحل عليها أحماله وقدم قدامه أثقاله، وظن أنه نجا وفاز، وركب الأوفاز، فرده إليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه، فلما دخل عليه اعتقله،وسير وراء مالهمن اقفله وإلى خزانته نقله، ثم انفذه إلى بعض معاقله فحبسه ثم قتله، وفيما ذكر للسلطان من خبر ذهبه وماله والذاهب مايعي بحصر تفاصيل جمله أنمل الحاسب، أن نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الأحمر المنقد، وقوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار، وأما صاحب عدن الأمير عز الدين عثمان بن الزنجيلي، فإنه لما سمع بسيف الاسلام توجه إلى الشام.

قلت: ولهذا الأمير أوقاف وصدقات بمكة واليمن، ودمشق، فإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إليه:« البلاد لك فيها عدة سنين، وأنت فيها مؤتمن على مال الله فأده إلى من يجاهد به أعداء الله، ويقيم به كلمة الله، ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة، ويقاتل به أعداء القبلة،

ويضرب بالأسداد بين الكفر والاسلام، وينصب وجهه بين الهجير والزمهرير عاما في إثر عام، ومانطلب منك الباطل الذي لايجوز لنا أن نطلبه، ولالك أن تدفعه، ولانريد إلا الحق الذي لايحل لنا أن نتركه، ولالك أن تمنعه».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي هذه السنة وصل إلى السلطان من دمشق العلم خطيب المزة، وكان قد زور على السلطان مثالا يتضمن له منالا، ورفعه إلى عز الدين فرخشاه فما خفي تزويره عليه، وهم بالايقاع به، فقصد السلطان بمصر وأطلعه على حاله فما أكترث به، وقال تحقق مازورت وأمر أن يكتب له توقيع بضعف ذلك الإدرار.

قال: وكان له إمام يصلي به، وهو يكتب مثل خطه، فأطلق به أموالا وأصلح وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالا، ومايشك صاحب ديوان ولامتولي خزانة في أنه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التلف، وجلس أخوة السلطان وأمراؤه عنده يغرونه به، فقلت له بالعجمية سرا تهبه للقرآن، فقال:نعم فنفس من خناقه، وأمر بإطلاقه وأبقى عليه خيره حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماما، وبقي شغله معه مستداما.

قال: وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم، واستولوا على تجار في البحروغيرهم،وسهل الله تعالى بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من بلد لهم يقال له بوليه تحتوي على ألفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم، فألقتهم الريح إلى ثغر دمياط فغرق منهم الشطر، وشمل الباقين الأسر، فحصل في الأسر منهم زهاء ألف وستمائة وست وسبعين نفسا، واتفق ذلك أمام الإهتمام بالمسير إلى الشام.

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أيام، واتصل الفرح بهما أربعة عشر يوما.وفيها

سار قراقوش إلى إفريقية، فأوغل في بلادها وانتهب ماقدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان، ثم بلغه أن ابراهيم السلاح دار احتوى على أهل قراقوش وبلده، فرجع إليه، فهرب ابراهيم وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ماكان بيد ابراهيم.

قال ابن القادسي: وفيها عشية الخميس ثامن شعبان توفي الإمام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعادات الأنباري النحوي، وكان فقيها نحويا زاهدا عابدا، خشن العيش صبورا على الفقر، وكان يسرد الصوم ولايقبل من أحد شيئا، وكان يحضر في نوبة الصوفية بدار الخلافة المعظمة في الوقت، فينفذ إليه بالتشريف والذهب فيعيده ولايقبله، وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤساء أن يقبل لولده شيئا، فما كان يفعل، وكان يفطر على الخبز الخشكار، ويبتاع برغيف أرزا وماشاء، وكان بابه مفتوحا لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى، وكان إذا أحضر أحدهم في الصيف مروحة يتروح بها، فإذا خرج يقول له: خذ مروحتك معك، فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غد فما يفعل، وصنف تصانيف كثيرة، ودفن في تربة أبي اسحاق الشيرازي رضي الله عنه.

قلت: وفيها توفي بمصر الشاعر ابن الذروي، وهو أبو الحسن علي بن يحيى المصري، وسنه حول الأربعين، وقد تقدم من شعره في حج الفاضل، وفي مدح ابن منقذ وغيرهما ،ومن ظريف شعره قوله في أحدب:

يا أخي كيف غيرتنا الليالي
كيف حالت مابيننا بالمحال
حاش لله أن أصافي خلا
فيراني في وده ذا اختلال
زعموا أنني أتيت بهجو
فيك نمقته بسم حلال

كــذبــوا إنها وصفــت الــذي حــز
ت مــن النبــل والسنــا والكمال
لا تظنــن حــدبــة الظهــر عيبــا
فهــي للحســن مــن صفــات الهلال
وكــذاك القسي محدودبــات
وهــي أنكــى مــن الظبــا والعــوالي
ودنــاني القضــاة وهــي كما تعلــ
ـم كــانــت مــوســومــة بــالجمال
وإذا مــا عــلا السنــام ففيــه
لقــروم الجمال أي جمال
وأرى الإنحنــاء في منشر الــ
ـكاسر يلقــى ومخلــب الــريبــال
وأبــو الغصــن أنــت لا شــك فيــه
وهــو رب القــوام والاعتــدال
قــد تحليــت بــانحنــاء فــأنــت الــ
ـراكع المستمــر في كــل حــال
وتعجلــت حمل وزرك في الظهــ
ـر فــأمنــا في مــوقــف الأهــوال
إن حمل الــذنــوب أهــون في الدنــ
ـيا على انــه مــن الأثقــال
كــون الله حــدبــة فيــك إن شئــ
ـت مــن الفضــل أو مــن الأفضــال
فــأنــت ربــوة على طــود حلــم
منــك أو مــوجــة ببحــر نــوال
مــا رأتها النســاء إلا تمنــت
لــو غــدت حليــة لكــل الــرجــال
عــد إلى ودنــا القــديــم ولا تصــ
ـغ لقيــل مــن الــوشــاة وقــال

فصل

في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام

قال العماد: وعدنا من الاسكندرية إلى القاهرة في ذي القعدة وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام، فجمع العساكر والسلاح، واستصحب نصف العسكر، وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر، وأمر قراقوش بإتمام الأسوار الدائرة على مصر والقاهرة.

قال: وكان السلطان عشية توديعه لأهل مصر جالسا في سرادقه، وكل ينشده بيتا في الوداع، فأخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه وأنشد مظهرا له فضله، ورافعا به محله:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فلما سمعه خمد نشاطه، وتبدل بالانقباض انبساطه، ونحن ما بين مغضب ومغض، ينظر بعضنا إلى بعض، حتى اتصل العجب من مؤدب ترك الأدب، فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ماعاد بعدها إلى الديار المصرية حتى اتصل بنجح المنى إلى المنية.

قال: ومن جملة تسمج المعلمين في القول ماحكاه لنا شيخنا أبو محمد ابن الخشاب قال: وصلت إلى تبريز فأحضرني يوما رئيسها في داره، وأجلس ولده ليقرأ بعض ماتلقنه علي، فقلت فرخ البط سابح، فقال معلمه وكان حاضرا: نعم وجرو الكلب نابح، فخجلت من خطأ خطابه، وإذابه على دأبه في سوء آدابه، ومقصوده أن يذكر قرينه ولايبالي بعينه قريرة أم سخينة، ودأب أدباء أولاد الملوك لاجترائهم على أعزة أولادهم الإجتراء على الآباء، ويحتمل مايصدر منهم لعزة الابناء، وإنما يصلح لمجالسة الملوك من يحتفظ في كلامه، ويتيقظ في منامه.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

قال العماد: ففي المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا إلى الشام، ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحمام، وأخذ على طريق صدر وإيلة في المفاوز، فبات بالبويب، ثم كانت منازله على الجسر، ووادي موسى وحثا وصدر، وبعد خمس ليال وصل عقبة إيلة، وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بحسمى، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرد السلطان في كماته وسلك بهم سمت الكرك إلى الحسى وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس، وأمره بأن يسير بهم يمنة منه، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع، ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه.

قال العماد: ويلقب أيضا معز الدين،بما غنمه أيضا من بلاد العدو، وذلك أن الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه خلق من التجار اجتمعوا بالكرك للقرب من الطريق، لعلهم ينتهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطفه، فخرج فرخشاه من دمشق، واغتنم خلو ديارهم فأغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين، ففتحه وأسكنه المسلمين، فبقي عينا على الكفار،بعدما كان لهم، ورجع بالأسرى والغنائم مظفرا منصورا، ومعه ألف أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام، ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق سابع عشر صفر.

قال: وفي العشر الأول من شهر ربيع الأول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية وبيسان، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب، واستشهد جماعة من المسلمين، ولكن كانت الدائرة على الكافرين، ورجع السلطان بحمد الله ظافرا، وكتب بالمثال الفاضلي إلى الديوان:« وكان الخادم طالع

بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة والمسافة بين مصر والشام لمن يرفق في المسير لاتقصر عن ثلاثين يوما، فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على إرجاف بالمصاف، ولم يزل الخادم على مداومة الإعمال إلى أوساط الأعمال , فحل بها وشن الغارة فأبعد، وأذكى النار فأوقد، وطلب الماء المحمي أزرقه بأزرقهم فأورد، وسفك دم الخصب بالنار وأخذ، وفيها عدل السيف الجار بالجار، وعلم أن الفرنج قد تسللوا لواذا وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا، وأنهم لايقاتلون إلا في قرى محصنة، ولايقابلون إلا على نجاة متيقنة، وسرح الخادم إلى تلك الذراري، واستفز لها من كل فرقة منهم طائفة، وساروا في طريق على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وحمية الاسلام الحامية التي تستنهض أرواح الكفر إلى نار الله الحامية، وسلك البلاد المؤدية أوديتها إلى سيول الشرك الطامية، وسيوف الضلال الدامية، فجثموا جثوم الكسير، وجدعوا أنوف الأنف جدعا قصر فيه رأي قصير،(٩) وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام ،وأورد عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب الأحلام، ويسر الله الوصول ورقاب عصبة الكفر تكاد تتوثب عليها رقاقها، وعيون الأعيان منهم قد قيدها للذل أطواقها، وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول، ونزل أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأن الفرنج رحلوا في ليل ركبوه جملا ولبسوه سترا، دون اللقاء مسبلا، وأصبحت الأطلاب الاسلامية طالبة الأردن، وأشرف عليهم المملوك فرخشاه، وكان على ميسرة الاسلام فما خرج منهم من أخرج كفا، ولاتطرف منهم من أجال طرفا، ولا ركض طرفا، ولم يزل الخادم مقيما ينادي للخروج الصم الذين لايسمعون الدعاء إلى أن طوى النهار ملاءته، ومد عليهم كلاءته فإنه رعى مابينه وبين مناسبة وجوههم وصحائفهم بسواده ولأن الليل يدعى كافرا فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام كل رمية منها طعنة، وكل أنة من قوسها تجاوبها للحين أنة، فاستخرجوا ضمائر كنائنهم وقصدوا بها ضمائر

ضغائنهم فمرت كأن التوفيق يقودها إلى حيث أمت فأماتت، وطارت جرادا يرعى زرع الحياة، فبتت وما أباتت،ولم يروا مضاجع ذوات حسك كمضاجع حسكها المستهام، ولاليلة لهم ذات أحلام كليلة حلمها يقظة الحمام، وأصابت خيولهم صوائبها، وتعلقت نصالهم بدهمها، فكأنهم في ظلماتها كواكبها، فلما انشق الصبح غيظا من شقاق كفرهم شوهدوا نازلين من حصنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حصن الطور الذي كانوا إليه ناوين، فساقت إليهم أطلاب الميسرة صحبة المملوك فرخشاه، وساق المملوك عمر من الميمنة طالبا لحومة القتال، فرأوا الخطة عليهم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فئتهم متناسقة، وأنزل الله النصر من سمائه على مطيعه في أرضه، ومنح نافلة الموهبة لمن قام في الجهاد بفرضه، وتوالت من الفرنج حملات ألجأهم إليها الإضطرار لا الإختيار، وثبت من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب، ولقوهم وهم الأعداء لقاء الأحباب، وتعانقت لغير الوداد، فصارت أيديها أوشحة، وطارت إلى أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحة، وصرعت للفرنج أبطال وخيالة، وتمت الحملة الاسلامية على من كان وراءهم من الرجالة، فأخذ القتل كثيرا وقليلا ترك، وفرت روح الكافر من الجسد وعلمت النار أية سلك، وألجأهم البلاء إلى حصن يعرف بعفربلا، وسع الخوف منه ماهو ضيق، وتعلق بالحياة منهم من هو متعلق، ولم تتصرف صدور الخيل دون أن اعتقلتهم في سجنه، وألزمتهم به، فصاروا قرطا في أذنه، وكان ذلك اليوم من الأيام الذي اضطرمت فيها نيران الجحيم ارتياحا لمن قدمها من أرواح الكفار، وكان قائم الظهيرة في الغور قد منع من استتمام عودة المغار، ومورد الماء بعيد من غريمه والري ولو أنه من حميم أحب إلى المرء من حميمه، فمالت الجنود إلى المناهل متفرقة عليها، ومنصرفة إليها، وحافة بها من حواليها، وأذعن الكفار بالحصر والتفادي من الأصحار، والإعتماد على المطاولة والإضجار، والاستعصام بما لايطاق من أنفاس الهجير الجرار، وبات الخادم والمسلمون على الحصر المذكور

- ٨٣٥٦ -

الذي يـأتونـه نازلين، قد حققـوا من أحـوال اللقاء ماكـانوا بـه جاهلين، وفعـل الله سبحانـه وتعـالى في هذه النـوبـة ماعـواقبـه مسفرة عـن المراد، ودلائله محققة لقـوله تعالى: (لايغرنـك تقلب الذين كفـروا في البلاد)(١٠) وإن الكفر مـذ قام قائمـه، والشام مـذ حله ظالمة، لم يعبر أحـد من ولاة الأمر هذا الحد إلا على حين غفلة من أهله، ولم يـواجه الكفر وهو مجتمع في خيله فضلا عـن رجله، ولم يهدد العدو بضرب مصاف إلا واستكـانت العزائم لتهـديده، ولم يجمـع أمره على اللقـاء إلا صرفه عـن الأمر يصرفـه ذهبه لابحديده، فأما الآن فقد أنس المسلمون بحزبه، وتمرنوا بحربه.

- ٨٣٥٧ -

فصل

في مسير السلطان إلى بلاد الشرق مرة ثانية

قال العماد: ثم إن السلطان عزم على المسير إلى حلب، وبلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج، ورغبوهم في الخروج إلى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم، فتوجه على سمت بعلبك وخيم بالبقاع، وكان قد واعد اسطول مصر أن يتجهز إلى بلاد الساحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت فبادره السلطان بعسكره جريدة قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أن أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسلب، وظفر من غنيمتها بما طلب، فأغار السلطان على تلك البلاد، ورجع وأعاد فرخشاه إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك ومنها إلى حمص، فخرج الفقيه المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدهان، وله في السلطان مدائح منها قصيدة أولها:

أعلمت بعدك وقفتي بالأجرع
ورضى طلولك عن دموعي الهمع
مطرت غضا في منزليك فذاويا
في أربع ومؤججا في أضلع
هل يعلم المتحملون لنجعة
إن المنازل أخصبت من أدمعي
دعني وما شاء التلذذ والأسى
واقصد بلومك من يطيعك أو يعي
لا قلب لي فأعي الملام فإنني
أودعته بالأمس عند مودعي
قل للبخيلة بالسلام تورعا
كيف استبحت دمي ولم تتورعي
وبديعة الحسن التي في وجهها
دون الوجود عناية للمبدع

ومـــابـــال معتمـــر بـــربعـــك ذائبـــا
يقضي زيـــارتـــه بغير تمتـــع

ومنها:

ووعـــدتنـــي إن عـــدت عـــود وصـــالنـــا
هيهـــات مـــا أبقـــى إلى أن تـــرجعـــي
هـــل تسمحين ببـــذل أيسر نـــائل
إن اشتكـــى وجـــدي إليـــك وتسمعـــي
فتيقنـــي أني بحبـــك مغـــرم
ثـــم اصنعـــي مـــا شئـــت بي أن تصنعـــي

ومنها

عفـــى الـــربيـــع الجون ربعـــا طـــالما
أبصرت فيـــه البـــدر ليلـــة أربـــع
ولـــو استطعـــت سقيتـــه سيـــل الغنـــى
مـــن كـــف يـــوسـف بـــالادر الأنفـــع
بيـــدي فتـــى لـــو أن جـــود يمينـــه
للغيـــث لم يـــك ممسكـــا عـــن مـــوضـــع
فـــإذا تبســـم قـــال يـــا جـــود انـــدفـــق
فيضـــا ويـــا سحـــب النـــدى لا تقلعـــي
وإذا تنمـــر قـــال يـــا أرض ارجفـــي
بـــالصـــاهـــلات ويـــا جبـــال تـــزعـــزعـــي
وإذا عـــلا في المجـــد أعلى غـــايـــة
قـــالـــت لـــه الهمـــم الجســـام تـــرفـــع
كـــم وقفـــة لـــك في الـــوغـــى محمـــودة
أبـــدا أو كـــم جـــود حميـــد الموقـــع
والنـــاس بعـــدك في المكـــارم والنـــدى
رجـــلان إمـــا ســـارق أو مـــدعـــي

قال: ثم رحل السلطان إلى حماة واستصحب معه ابن أخيه تقي الدين، فلما قرب من حلب أقبل مظفر الدين كوكبري بن علي كوجك صاحب حران حينئذ فاجتمع بالسلطان، وسار في خدمته من جملة الأعوان، وأشار عليه أن يعبر الفرات ويحوز ماوراءها، ويترك حلب إلى مابعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها، فاستصوب السلطان رأيه وعبر الفرات.

وقال القاضي ابن شداد: نزل السلطان على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، فأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفرات، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين بن زين الدين، وكان صاحب حران، وكان قد استوحش من جانب الموصل، وخاف من مجاهد الدين فالتجأ إلى السلطان وعبر إليه قاطع الفرات وقوى عزمه على البلاد، وسهل أمرها عنده، فعبر الفرات وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج، ثم شحن على الخابور وأقطعه.

وقال ابن أبي طي: في أول السنة أراد مظفر الدين بن زين الدين، وكان إليه شحنكية حلب الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها، فلم يتمكن وظهر أمره، وبعد هذه الوقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد، وسلم عماد الدين ماكان بيده من سنجار وغيرها إلى عز الدين، وسلم عز الدين إليه حلب، فسار إليها ودخلها فخرج مظفر الدين عنها وصار إلى الفرات، فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار إلى خدمته واجتمع به على جباب التركمان، وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق، وتأخير أمر حلب، ففعل ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام، وأقام على تل خالد ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأرتقي فنزل إليه وقبل الأرض بين يديه، وسأله الصعود إلى قلعة البيرة، فأجابه وقدم له مفاتيح القلعة، فردها إليه ووعده باستخلاص

ماكان صاحب ماردين رده عليه، ورحل السلطان إلى سروج فنزل إليه صاحبها ابن مالك مستأمنا، فأعاده إلى بلده، وراسل صاحب ماردين في رد ماكان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل، ثم أخذ الرها ثم الرقة ثم سلم الرها إلى ابن زين الدين، والرقة إلى صاحب الرها لأنه سأل أن يكون في خدمة السلطان.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه يعلمه بالحال وفي آخره:« ولتعجل بحمل ماهناك من الأموال فكلما فتحت البلاد أبوابها، قد فتحت المطامع أفواهها، واستوعبت الخزائن إخراجا وإنفاقا، واستنفدت الحواصل إعطاء وإطلاقا، وقدمنا على بحر لايسده إلا بحر، وعلى أيد إن كان بها الغنى ففي أنفسها الفقر».

ومن كتاب آخر إلى العادل:« يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق، وكثرة الخرج الذي اشترك فيه أهل الآفاق، وإنه متى نضبت المواد وقفت الأمور التي قد شارفت نهايتها، وتفرقت الجموع التي تناذرت الأعداء نكايتها، ومادون تملك البلاد إلا الوصول إليها والنزول عليها».

قال العماد: وقال مظفر الدين للسلطان: مازلت شوقا إليك في حران حران، وإلى السري من ورد خدمتك ظمآن، وهي لك مبذولة وبأوليائك من أهل الدين والدنيا مأهولة، والرها لايعسر أمرها، والرقة لرقك وبعض حقك، والخابور في انتظار خبرك، ودارا دارك، ونصيبين نصيبك، وملك الموصل موصلك إلى الملك، وماهذا أوان الونا فادن إلينا، وكل بعيد قد دنا.

قال: ووصل البحر إلى الفرات وخيم عليها من غربي البيرة، ومد الجسر، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بالسلطان تخلى عنها، فأعاد إليها صاحبها شهاب

الـدين محمـد بن اليـاس الأرتقي، وكتـب السلطان بـالمثال الفـاضلي إلى الديـوان عند عبـور الفرات كتـابا فائقـا طويـلا يقول فيـه:«خدم الخادم متوالية إلى الأبـواب الشريفة خلد الله سلطانها شارحا أحـواله، ومعتدا بها من صـالح أعمإله، ومتوقعـا من الأجوبة عنهـا مايهيء له من أمـره رشدا، ويفـرق الأعداء إذ كـادوا يكونـون عليـه لبدا، فـإن الآراء الشريفة لـو لم تفصـح عنها الإنشـاءات، وتتضمنها الإجـابـات والإبتداءات لأفصحـت عنها مـوالاة الخادم التي استفتحت الدولـة بعقائل الفتوح قبـل خطبتها،

وردت الأسماء الشريفة إلى أوطـانها من المنـابر، بعد طـول غربتهـا، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل مهـاجر ما هاجر إليه، ونية المرء ثـوبه، فلا يلبس إلا مـاخلعتـه النيـة عليـه، وكتـاب الخادم الآن مـن البيرة بعـدمـا قطـع الفرات، وكان من لاتقرب عليه العزائم مـاهو بعيد، ولايلقى السمع وهو شهيد، يظن أن سـاكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصـده، وإنه ينسى عزيمـة رأيه إذ ذكر طول مـدته، وهول مـده، وكيف ماكان هـذا المخرج المخرج فقد أحسنـت إلى الخادم إساءته إليه، وقربـه من محل دار السلام، بل الاسـلام، فما أكثر ماقـال: السلام عليه، واستشرف جنـانه من جنـابه أمنا وذعرا أوجبتهما الموالاة والمهابة، وطالعت عينه أنواء وأنوارا تنسب إلى بركتها كل سحـابة، وكاد ينزل عن السروج والأكوار، ويقبـل الثرى لأجل شرف الجوار، ويستنفد غلتـه ماء الفـرات، لأنه يمر بتلـك الديـار، ويقرأ من صفـائه صفاء تلك الخواطـر العظيمة الأخطار، ومـن عذوبته عـذوبة ذلك الإنعام الذي هو أعم وأغمر لـلأقطار من القطار، وتنور دار السلام من منزلته فأدناه النظر العالي، وأسلفته آمـاله حوز الفوز بها قربه نجيا من قربه، والآمال أمالي، والله تعالى يشرف أرضا هو واطئها ويرعى سروحا هو كالئها، ويسعـد به أمة هو بارهـا بطاعة من هو بـارئها، ولما تحقق الخادم أن المواصلـة قـد واصلـوا الفـرنـج مـواصلـة أخلصـوا فيهـا الضمائر، ولم يستطيعـوا فيهــا كتمان السرائر، وخصمتهـم خطـوط الأيــدي المتمسكـة بعصم الكوافر، وعقـدوا معهـم عقدا شهده من هوحـاضره، ونقله إلى من

سمعه مـن هو ناظره، وكـان عقدهم إحدى عشرة سنـة، والمستقر لهم في كـل سنـة عشرة آلاف دينـار، على أن تسلـم ثغـور المسلمين إلى الكفـار، ومنها بـانياس، وشقيف تيرون، وحبيس جلـدك، وأسارى الفرنـج في كل بلدة بـأيديهم وفي كل بلـد يسترجعونه مـن الخادم بمساعدة الفـرنج، ولما تم لهم هـذا العقد، وحملـوا إلى الفرنج ذلـك النقد، ظنـوا أن الحق يجادله الباطل فيـدحضه، وأن يد الكفر تنبسـط إلى الاسلام فتقبضه، وأن الخادم لايمكنه أن يتوجـه إليهم إلا أن يكون للفرنـج سلما، ولايستطيع أن يقسم العسـاكر فيجعـل بإزاء الفـرنـج قسما وبإزائهـم قسما، وعملوا على هـذا الـوهم، وبنـوا على هـذا الحكم، استنهضـوا الفرنـج على تثـاقل الخطـوة، واستخرجوهـم على مابهم من كلوم الغـزوة بعد الغزوة، فتحاملـت أرجل الكفار على ظلعهـا، وخرجت على طمعهـا إلى فزعها، وانفقـت في رجالها مالاً حملوه إليهـم جما، وجرت إلى الاسلام جيشا جهزه من يـدعي الاسلام لفظا، ويفـارقه حكما، وتواعـد المواصلة مـع الفرنج ليطلبـوا ولاية الخادم من جـانب، ويطلبها الفـرنج من جانـب، ونظروا فيما يوصـل المساءة إلى الخادم، ولم ينظـروا للاسـلام في العـواقـب، فوصـل المواصلـة إلى نصيبين مجدين محفلين، وحركوا الفرنج للخـروج إلى الشام متطرفين ومتوغلين، فلا جرم أن أمـراء جانبهم، وخواص صـاحبهم لم يسعهم المروق من الـدين، ولا الخروج عن إمـرة الموحديـن، فأرضـوا الله بإسخـاطهم، واشفقـوا على دينهـم اشفاقـا دل على تحرزهـم له واحتيـاطهـم، فـاتبعوا الحق وسلكـوا سبيله، ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله(لاتجد قـوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حـاد الله ورسوله)[١١] فاستعان الخادم عليهم بالله الذي استعـانوا على دينـه بأعـدائه، ولما رأى أنهم قد أملـوا النصر من أرضهـم أمله من سمائه، فـرتب الخادم في رأس الماء بدمشق بإزاء الفـرنج المملوك فرخشاه ابن أخيـه، وأبقى عسكر الشام وحاميه فيـه، واستنهض أخاه من مصر إلى مايليـه من بلاد الكفر فنهـض، وقام الخادم بما أقامه لـه ولله عز وجل بها فرض، وسار الخادم بالعسكـر المصري إلى هذا الجانب الذي هو

الآن فيه، وكان أيسره يكفيه، وتثاقل في الطريق انتظارا لأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويفرجوا عن الولاية أيدي اغتصابها، ويعتذروا إلى السيف بألسنة يشفق على رقابها، فأبوا إلا الإباء، ورأوا الملك إرثا ما ادعوا فيه تقليد الخلفاء بل الأباء، ولما قرب الخادم من الفرات وصل إليه صاحب حران ابن زين الدين علي كوجك، ومقدم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سروج، وصاحب البيرة، وكل بيده مفاتيح بلده، وأمامه أمان الخادم له قد استبدله من مقلده، ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جنايات ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات، يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ، ويحثونه في المسير على الأغذاذ، ويشكون أنهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لايسلك فيهم سننها، ولايقتفى فيهم شرائعها وسننها، ونمى إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلزم الفريقين، ويعدل بها عن أقصد الطريقين مايروع السامع، ويسمع الرائع، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم ان ادعوا تقليدا فقد نقضه كونهم ابتدعوا وماتبعوا ونقضوا، ومافترضوا ومثلوا بالحق ومامتثلوا، وأمروا بكف الأيدي وقد بسطوها، وبأخذ الأموال من حلها وقد خلطوها، وبرعاية أمة النبي صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها، وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعاها، والعهود وصايا وما الأولى بها من سمعها بل من وعاها، وأي عهد لمن لاعهد له بالطاعة، وأي ولاية لمأمور بأن يجمع أهل الفرقة ففرق أهل الجماعة، فالجندي توكل الأرض باسمه ولاشيء بيده، والعامي يرفع إلى السماء استغاثة مالا يمهل الله عليه، ولقد تعجب الخادم من إشغاف الأنفس الغنية إلا أنها فقيرة، والارتفاق بتلك الطعم الجليلة، وهي على الحقيقة الحقيرة(يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم)[١٢] الآية هذا إلى طامة أخرى لاتقر عليها الجنوب، ولاتدر عليها الحلوب، ولاينام على

سهر بارقها وإن كان الخلوب، وهو أن الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها، وبذلوا الطاعة لها، وقد أمروا بالامتناع منها، وهذا نص في الخلاف لايدخله التأويل وقول قد أحاط به العلم فلا يختلجه التقويل، وكل صغيرة من هذه الكبائر، وكل واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولاية، ويجرح العدالة، ويسلب الرشد، ويثبت الضلالة، ويمضي نية الولي فيما هو له ماض، ويبعث عزمه فيقضي ماهو قاض، ويسخطه وكيف لايسخط والمولى غير راض، ويغيظه بما لاعذر له المغتاظ متغاض، وماأنهى الخادم مما اتصل به إلا الأوائل والأطراف، وماعول إلا على ماصححته النفس دون ماخيله الإرجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حظها من معدلة كان الزمان بها طويلا مطله، وأنشأها سحاب احسان كان بعيدا عليها هطله، فقد كفيت الخواطر الشريفة ماكانت به على اهتمامها، كما يجب للأمة على إمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أمرها، وبيده يجلب نفعها، ويجلى ضرها، وقد تجددت للدولة الشريفة قوة واستظهار، وبسطة واقتدار، وسيف به يناضل من يسيء الجوار، ولسان يجادل به من يريد الدار، وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المصري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحله، وماغنمه من مراكبه وقوافله، وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطسة فرنجية، وخرج من فيها هاربا من القسطنطينية لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجها، فقتل منهم خمسون ألف فرنجي، وأفلتت منهم بطس منها هذه البطسة، وفيها رجال أكابر، ومقدمون لهم ذكر سائر، وغنم المجاهدون منهم ماملأ أيديهم من سبي وذخائر، (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل)(١٣) وحازت القبضة من الأسارى مايزيد على أربعمائة بعد من درج بالقتل.

فصل

قال العماد: ثم كاتب السلطان الملوك بالوفود للاتفاق، فمن جاء مستسلما سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار، فجاء رسول صاحب حصن كيفا بالإذعان، وهو نور الدين محمد بن قرا أرسلان، ثم رحل السلطان من البيرة ونزل على الرها وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فأذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة له إلى حران، ثم وصل السلطان إلى حران فرتبها وانفصل منها إلى الرقة وفيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان فأذعن أيضا وسلم ولم يوافق مراعاة لصاحبه، فأصلحها السلطان، ورحل منها إلى مشهد الرمان، ثم إلى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها، وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور وما نشر من العدل في البلاد التي فتحها، فافتتحت رأس عين ودورين وماكسين والشمسانية والغدين، والمجدل والحصين.

قال: وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنينير إلى نصيبين فاستعصت قلعتها أياما ثم فتحت استسلاما، وولاها السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السمين، وولى الخابور جمال الدين خوشترين، ثم سرنا إلى الموصل، وقطعنا الأعمال بين النهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بلد، وأشرفنا على دجلة، وكنا أوردنا خيلنا في أشهر من تلك السنة نيل مصر والفرات ودجلة، ثم صممنا على قصد الموصل، فلما قربنا من الوصول كبرنا تكبير من ظفر بالسؤل، وتقدم السلطان في الأمراء ذوي الآراء، ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما، فنزل هو وراء البلد وتقي الدين من شرقيه، وأخوه تاج الملوك بوري عند باب العمادية، فحصلت المحاصرة والمضايقة، وتولى مجاهد الدين قايماز حفظ البلاد بأحسن تدبير، وكاتب الديوان العزيز في أن يشفع لهم إلى السلطان، فقدم في ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير في الشفاعة، فرحل

السلطان عنها في شعبان وقصد سنجار، وقدم أمامه تقي الدين.

وقال القاضي ابن شداد: كان نزول السلطان على الموصل في هذه الدفعة يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمان وسبعين، وكنت إذ ذاك بالموصل، فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل، مسرعا في دجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ، وكان في صحبته رسولا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه، وسير إلى بهلوان رسول من الموصل يستنجده، فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان، ثم أقام السلطان على الموصل أياما، وعلم أنه بلدعظيم لايتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وماحوله من البلاد وإضعافه بطول الزمان، فرحل عنه ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين، وجماعة واشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عنوة، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى الموصل، وأعطاها السلطان ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها إلى نصيبين.

وقال العماد: لما قصد السلطان سنجار نزل بأزنجان فوجد عسكرا من الموصل سائر إليها فأحاط به، وأخذ خيلهم، وعددهم وردهم إلى الموصل رجالة ووصل إلى سنجار، ومعه رسل دار الخلافة ونور الدين صاحب حصن كيفا، وكان في سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل، فامتنع من تسليمها فحوصر ورميت القلعة بالمنجنيق فانهدم منها ثلمة من السور، فوكل بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال، ثم جاءة الخبر ليلة أن الموكلين بحفظ تلك الثلمة نيام، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه، وكان فيهم جماعة من المقدمين والأعيان فلما أصبح صاحب سنجار أذعن، وسلم ورحل بأهله

وماله، ودخـل السلطان القلعة، ورتبها وأمـر بعمارتها، وولاها الأمير سعد الـدين مسعـود بـن أنر، وكـان السلطان يعتمـد عليـه، وأخته ابنـة معين الدين كانـت في حبالة السلطان، وكان رؤساء سنجـار بني يعقوب، فترك الرياسـة فيهم، وولى القضاء منهم نظـام الدين نصر بن المظفـر بن محمد ابن يعقـوب، ثم رحـل السلطان إلى نصيبين، فأقـام بها لأن الأيام كـانت باردة، ومنهـا ودع رسل دار الخلافـة، وشكا أهـل نصيبيين مـن أميرها أبي الهيجـاء السمين فـاستصحبـه السلطـان معـه، وسـار إلى دارا وأميرهـا صمصام الـدين بهرام الأرتقي، فتلقـى السلطان بأحسـن ملقى، فأكـرمه وسـار إلى حران، وأقـام بها للاستراحـة، وعـاد كل إلى بلـده، وسار تقـي الديـن إلى حماة، هذا والمواصلـة في جد مـن جمع الجموع وابتغـاء الغوائل للسلطان.

- ٨٣٦٨ -

فصل

في وفاة فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب

قال العماد: وفي هذه السنة في جمادي الأولى توفي بدمشق الملك المنصور عز الدين فرخشاه، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره الفرات، فأقر السلطان ولده الملك الأمجد بهرامشاه على بعلبك وأعمالها مكان أبيه، وأنفذ شمس الدين بن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها.

قال ابن أبي طي: كان فرخشاه من أكرم الناس يدا وأطهرهم أخلاقا، وأسدهم رأيا، وأشجعهم قلبا، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده فاستدعى بجميع مايحتاج الرجل إلى لبسه، وأمر له بغلام وبغلة مسرجة، وبألف دينار، وقال لبعض غلمانه اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له، ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب، وسأل الحمامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب، فتقدم اليه الغلام وأخبره بجميع ماصنعه عز الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا في كل شهر، فلبس الثياب، وخرج من الحمام وهو من أغنى الناس.

قال: وكان فرخشاه ممدحا مدحه ابن سعدان بعدة قصائد من جملتها التي يقول فيها:

تخذ السابري لبدا وعود الـ
ـزان نابا والهندواني ظفرا

أعجمـــــي الأنســـاب قصرت الأعـــــ
ـــــراب عنــــه سجعــــا ونظما ونثـــرا
هـــزمـــت كتبـــه الكتـــائب جفـــلا
وأعــــادت دجـــــى الحوادث فجـــرا
فهـــو كـــا المازني علما وكا الأحـــ
ـــنف حلما وكـــا الفـــرزدق شعـــرا

قـال: وكان فـرخشـاه مضـافا إلى شجـاعتـه كـونه عـالما متفننـا، كثير الأدب، مطبوع النظم والنثر فمن شعره قوله:

أنـــــا في أسر السقـــــام
مـــن هـــوى هـــذا الغـــلام
رشـــأ تـــرشـــق عينـــا
ه فـــؤادي بسهـــــام
كلما أرشفنـــــي فـــا
ه على حـــــر الأوام
ذقـــت منـــه الشهـــد في الثلـــ
ـــج المصفـــى في المدام

قلت: ونبغ ابنـه الأمجد أيضا شاعرا، وكـان السلطان كثير الإعتماد على فرخشـاه، وفي بعض الكتب الفـاضلية عن السلطـان إليه:« وصل كتـابه يتضمن خـروج الفرنج ومـادبره من الأحـوال وأعده من مكـائد القتال، ، ولسنا نستبعد أن يدني الله به كل بعيـد من المراد، وأن يقلل بتدبيره تقلب الذين كفروا في البلاد، وأن يجري على يده أول النحـل الذي توعد به آخر صـاد ، وأن يصـــب بـه على المشركين (ســوط عــذاب إن ربــك لبالمرصاد)(١٤).

وقال العماد: كـان عز الدين فـرخشاه من أهل الفضـل والتفضيل على أهله، يغنى الكرام عـن الابتذال بكرم بذله، ومن أخـص خواصه، وذوي

اصطفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندي، أوحد عصره، وشعاع شمسه، وحبيب نفسه (١٥) ، ولي في هذا الملك قصائد منها قصيدة هائية موسومة مدحته بها في أول سنة صحبت فيها السلطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاج الدين أبو اليمن بكلمة بديعة في وزنها ورويها، وحسن ريها، فأما كلمتي فهي:

بين أمر حلاوة العيش الشهي
وهوى أحال غضارة الزمن البهي

وصبابة لا استقل بشرحها
عن حصرها حصر البليغ المدره

أأحبتي إن غبت عنكم فالهوى
دان لقلب بالغرام مولـه

أنهي إليكم إن صبري منتـاء
بل منتـه والشوق ليس بمنتـه

أما عقود مدامعي فقد وهت
وأبت عقود الود مني أن تهي

ولقد ذهبت بينكم فاشتقتكم
يا من لمشتاق بينكم دهي

في شوقكم أبدى الزمان تفكري
وبذكركم عند الكرام تفكهي

لو قيل لي ما تشتهي من هذه الـ
ـدنيا لقلت سواكم لا أشتهي

ما كان أرفه عيشتي وألذها
من ذا الذي يبقى بعيش أرفه

ومن السفاهة أنني فارقتكم
من أين ذو الحلم الذي لم يسفه

ومنها:

وعقاب إيلة ما يفارق جلقا
أحد إليها غير غرابلـه

مـــــالي ومصر والمطـــــامـــــع إنما
ملكـــت قيـــادي حيـــث لم أتنـــزه

لا تنهنـــي يـــاعـــاذلي فـــأنـــا الـــذي
تبـــع الهوى وأتـــى بما عنـــــه نهي
قـــد قلـــت للحـــادي وقـــد نـــاديتـــه
في مهمـــه اقصر وصلـــت مـــه مـــه
حتـــام جـــذبـــك للـــزمـــام فـــأرخـــه
فلقـــد أنخـــت إلى ذرى فـــرخشـــه
متكـــرم بـــالطبـــع لا متكـــره
شتـــان بين تكـــرم وتكـــره
إحســـان ذي مجد وهمة مـــاجـــد
مجد وتقـــوى عـــابـــد متـــألـــه

وهي ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها:

هـــل أنـــت راحـــم عبرة وتـــولـــه
ومجير صـــب عنـــد مـــأمنـــه دهـــي
هيهـــات يـــرحـــم قـــاتـــل مقتـــولـــه
وسنـــانـــه في القلـــب غير منهنـــه
مـــن بـــل مـــن داء الغـــرام فـــإنـــي
مـــذ حـــل بي مـــرض الهوى لم أنقـــه
إني بليـــت بحـــب أغيـــد ســـاحـــر
بلحـــاظـــه رخـــص البنـــان بـــدهـــره
أبغـــي شفـــاء تـــدلهي مـــن دلـــه
ومتـــى يـــرق مـــدلـــل لمدلـــه
يـــا مفـــردا بـــالحســـن إنـــك منتـــه
فيـــه كما أنـــا في الصبـــابـــة منتهـــي
قـــد لام فيـــك معـــاشر فـــانتهـــى
بـــاللـــوم عـــن حـــب الحيـــاة وأنـــت هـــي

أبكـــي لـــديـــه فـــإن أحســـن بلـــوعـــة
وتشهـــــق أو مـــــا يطـــــرف مقهقـــــه

أنـــــا مـــــن محاسنـــــه وحـــــالي عنـــــده
حيران بين تفكـــــــــه وتفكـــــــــه

ضـــــدان قـــــد جمعـــا بلفـــظ واحـــد
لي في هـــــواه بمعنيين مـــــوجـــــه

قلت: يقال تفكهت بالشيء أي تمتعت به، وتفكهت تعجبت، ويقال: أيضا تفكهت تندمت، ومنه قوله تعالى(فظلتم تفكهون) (١٦) فهو في تفكه اي تمتع بالمحاسن، وفي تعجب من حاله وتندم عليها ثم قال:

أنـــا عبـــد مـــن شهـــد الـــزمـــان بعجـــزه
عـــن أن يجيء لـــــه بنـــــد مشبـــــه

عبـــد لعـــز الـــديـــن ذي الشرف الـــذي
ذل الملـــوك لعـــز عبـــد فـــرخشـــه

طـــابـــت مـــوارده فغـــص فنـــاؤه
وشـــدا الحداة بـــذكـــره في المهمـــه

يفـــديـــك كـــل مملـــك متتـــايـــه
أبـــدا بـــألسنـــة الـــرعـــاع ممـــده

لا يفقـــه النحـــوي إذا حـــدثتـــه
وإذا أتـــى بحـــديثـــه لم يفقـــه

قلت: وذكر العماد في ديوانه أبياتا حسنة في مدح الشيخ تاج الدين أبي اليمن رحمهما الله قال:

تـــذاكـــر مـــن وراد مصر عصـــابـــة
حـــديـــث فتـــى طـــاب النـــدى بـــذكـــره

وقـــالـــوا رأينـــا فـــاضـــلا ذا نبـــاهـــة
أديبـــا يفـــوق الفـــاضلين بفخـــره

يـــديـــن حبيـــب والـــوليـــد لنظمـــه
ويحمـــده عبـــد الحميـــد لنثـــره

ولـــو عـــاش قـــس في زمـــان بيـــانـــه
لكـــان مشيـــدا في البيـــان بشكـــره

فضـــائلـــه كـــالشمـــس نـــورا ولم تـــزل
منـــاقبـــه في الـــدهـــر أعـــداد زهـــره

بيـــان هـــو السحـــر الحلال وإننـــا
نـــرى معجـــزا مـــن فضلـــه حـــل سحـــره

ذوو الفضـــل هـــم عنـــد الحقيقـــة أبحـــر
ولكنهـــم اضحـــوا جـــداول بحـــره

يضـــوع مهـــب الحمـــد مـــن عـــرف عـــرفـــه
وتـــأرج أرجـــا الـــرجـــا بنشره

فقلـــت لهم هـــذا الـــذي تصفـــونـــه
أبـــو اليمـــن تـــاج الـــديـــن أوحـــد عصره

قلت: وبلغني أن أول معرفة فرخشاه أنه كان في مجلس القاضي الفاضل بالقاهرة، فجاء فرخشاه إلى الفاضل فجرى ذكر بيت من شعر أبي الطيب المتنبي، فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به، فأعجب فرخشاه، وسأل القاضي عنه، فقال: هذا فلان وعرفه بفضله، فلما قام فرخشاه من مجلس الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج وخرج به ولزمه إلى أن توفي رحمهم الله اجمعين.

- ٨٣٧٤ -

فصل

في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز

قال العماد: وفي شوال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الاسطول المتوجه إلى بحر القلزم، والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ، لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز،وذلك أن الابرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ماتوالى عليه من نكاية اصحابنا المقيمين بقلعة ايلة، وهي في وسط البحر لاسبيل عليها لأهل الكفر، أفكر في أسباب احتياله، وفتح أبواب اغتياله، فبنى سفنا ونقل اخشابها على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال، وآلات القتال، ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة لمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباقون في مراكب نحو عيذاب، فقطعوا طريق التجار، وشرعوا في القتل والنهب والأسار، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز، فعظم البلاء، وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر، ووصل الخبر إلى مصر، وبها العادل أخو السلطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر في بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية، وسار إلى إيلة فظفر بالمركب الفرنجي عندها فحرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدى الى عيذاب، وشاهد بأهلها العذاب، ودل على مراكب العدو فتبعها، فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التجار، ورد عليهم ماأخذ لهم، ثم صعد الى البر فوجد أعرابا قد نزلوا منه شعابا، فركب خيلهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطرق ضاربين، فحصرهم في شعب لا ماء فيه، فأسرهم بأسرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى منى، كما يساق الهدي، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم، وقطع أسبابهم، بحيث لايبقى منهم عين تطرف،ولاأحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف.

قلت: و لأبي الحسن ابن الذروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعار منها:

مر يوم من الزمان عجيب
كاد يبدي فيه السرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى
قرنتهم من طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال
وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى
هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي
وسواه من اللآلي يصاد

ومنها:

قلت وقد سافرت يا من غدا
جهاده يعضده من حجه
إذ قيل سار الحاجب المرتجى
في البحر يا رب السما نجه
البحر لا يعدو على لؤلؤ
لأنه كون من لجه

ومنها:

يا حاجب المجد الذي ما له
ليس عليه في الندى حجبه
ومن دعوه لؤلؤا عندما
صحت من البحر له نسبه
لله تعمل من صالح
فيه وما تظهر من حسبه

كفيت أهل الحرمين العدا
وذدت عن أحمد والكعبة

وله:

لئن كنت من ذا البحر يا لؤلؤ العلى
نتجت فإن الجود فيك وفيه
وإن لم تكن منه لأجل مذاقه
فإنك من بحر السماح أخيه

وله:

إنما أنت لؤلؤ للمعالي
جاء من أبحر السماح العذاب

وكتب السلطان إلى العادل من كلام الفاضل:« وصل كتابه المؤرخ بخامس ذي القعدة المسفر عن المسفر من الأخبار المتبسم عن المتبسم من الآثار، وهي نعمة تضمنت نعما، ونصرة جعلت الحرم حرما، وكفاية ماكان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها، وعجيبة من عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها، وماكان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سهما أصاب، وحمد مسدده، وسيفا قطع وشكر مجردة، ورسولا عليه البلاغ وإن لم يجهل ماأثرته يده، وقد غبطناه بأجر جهاده، ونجح اجتهاده، وركب السبيلين برا وبحرا، وامتطى السابقين مركبا وظهرا، وخطا فأوسع الخطوة، وغزا بأجر الغزو، وحبذا العنان الذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكرة أنفق، وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الاسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، ولو جرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار إلى الله، والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل،

وهذا مقـام إن روعي فيه حـراسة الظاهـر والوفـاء للكافر، حـدث الفتق الذي لايمكـن في كل الاوقـات سده ورتقـه، ولدغ المؤمـن مرتين والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه.

وفي كتاب آخر الى العادل أيضا:« ونحن نهنـي المجلس السامي بظفره ولم لايكمله وينصره، ولم لايعجلـه ويشكره، وليـس في قتل هـؤلاء الكفار مـراجعـة، ولا للشرع في إبقـائهـم فسحـة، ولا في استبقـاء واحـد منهـم مصلحـة، ولافي التغاضي عنهـم عند اللـه عذر مقبـول، ولاحكم اللـه في أمثـالهم عند أهـل العلـم بمشكل ولامجهـول، فليمـض العزم في قتلهـم، ليتناهى امثـالهم عن فعلهم، وقد كـانت عظيمة ماطـرق الاسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها».

وفي كتاب آخـر أيضا الى العـادل:« قد تكـرر القول في معنـى أسارى بحر الحجـاز، فلا تذر على الأرض مـن الكافريـن ديارا، ولاتوردهـم بعد ماء البحـر الانارا، فاقلهم اذا بقـي جنى الأمر الأصعب، ومتـى لم تعجل الراحة منهم، وعدت العاقبة بالأشق الأتعب».

ومن كتاب آخر إلى بغـداد: وسارت المراكب الاسلامية طالبـة شوكة المراكب الحربية، المتعرضـة للمراكب الحجازية واليمنية، وكـانت مراكب العدو قد أوغلـت في البحر، ودلها على عورات الساحلين مـن العرب من أشبه ركـابها في الكفر، فوصلت إلى عيـذاب، فلـم ينل منهـا مراد، غير أن ماوجدتـه في طريقها أو في فرضـة عيذاب نالت منـه وشعثت، وأفسدت فيه وعتـت، وتمادت في الساحل الحجـازي إلى رابغ إلى سـواحل الحوراء، وهنـاك وقع عليهـا أصحابنـا، وأوقعـوا بها اشد ايقـاع، وأخذوا المراكـب الفرنجيـة على حكم البـدار والإسراع، ففر فـرنجها إلى السـاحل، فـركب أصحـابنا وراءهـم خيـول العربـان التـي وجدوهـا، وأخـذوا الكفار مـن شعـاب وجبال اعتصمـوا بها وقصدوهـا، وكفي المسلمـون اشد فسـاد في

أرضهم، وأقطع قاطع لفرضهـم، وانبسطت آمالهم بقبضهم، وعميت على الكفار هذه الطـريق التي لو كشف لهم غطـاؤها قدما، ولـو أحاطوا بها علما، لاشتطت نكـايتهم، واشتدت جنيتهـم وعز على قدمـاء ملوك مصر ان يصرعوا هـذه الاقران، ويطفئـوا هذه النيران، ويـركبوا غـوارب اللجج ويـرخصوا غـوالي المهج، ويقتنصـوا هذا الطـائر من جـوه الذي لايـدرك لوجـه، ويدركوا هـذا العدو الذي لايـدرك الا ان تستنجد عليه مـلائكة الله وروحه».

وفي كتـاب آخر إلى بغـداد:« كان الفـرنج قـد ركبوا مـن الأمر نكـرا، وافتضـوا من البحـر بكـرا، وعمروا مـراكب حـربيـة شحنوهـا بـالمقاتلـة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمـن والحجاز، وأثخنوا وأغلقوا في البلاد واشتـدت مخافة أهـل تلك الجوانب، بـل أهل القبلـة لما أومض إليهم مـن خلل العـواقب، ومـاظن المسلمـون إلا أنها الساعـة، وقد نشر مطوي أشراطهـا، والدنيا وقـد طوي منشور بسـاطها، وانتظر غضـب الله لفناء بيتـه المحرم، ومقـام خليله الاكرم، وتـراث أنبيائه الأقـدم، وضريح نبيه الأعظـم صلى الله عليه وسلـم، ورجوا أن تشحـذ البصائر آية كـآية هـذا البيـت اذ قصـده اصحـاب الفيل، ووكلـوا إلى اللـه الأمـر ، وكـان حسبهم ونعـم الوكيل، وكـان للفرنج مقصـدان: أحدهما قلعة إيلـة التي هـي على فوهـة بحر الحجـاز ومـداخله، والآخـر الخوض في هذا البحـر الذي تجاوره بلادهم من ساحله، وانقسمـوا فريقين وسلكوا طريقين،فأما الفريق الذي قصد قلعة إيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي بـه قوام الحيـاه، ويقاتلهـم بنار العطـش المشبـوب الشباه، وأمـا الفريـق القاصد سواحـل الحجاز واليمن فقدر ان يمنع طريـق الحاج عن حجه، ويحول بينه وبين فجه، ويـأخذ تجار اليمن، و كارم عدن، ويلـم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحـارم، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظـائم، وكان الأخ سيـف الديـن بمصر قد عمـر مراكـب وفرقهـا على الفرقتين، وأمـرها بأن تطوي وراءهـم الشقتين، فأما السائرة إلى قلعـة إيلة

فإنها انقضت على مرابطي الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء، فأخذت مراكب العدو برمتها، وقتلت اكثر مقاتلتها، إلا من تعلق بهضبة وماكاد، وأدخل في شعب وماعاد، فإن العربان اقتصوا آثارهم، والتزموا احضارهم، فلم ينج منهم إلا من ينهي عن المعاودة، ومن قد علم ان أمر الساعة واحدة، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء، فأخذت تجارا، وأخافت رفاقا، ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هو أشد كفرا ونفاقا، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد اسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب اصحابنا وراءهم خيل العرب، يشلونهم شلا ويقتنصونهم اسرا وقتلا، ومازالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا، نهارا وليلا، حتى لم يتركوا عنهم خبرا، ولم يبقوا لهم اثرا(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا)(١٧)وقيد منهم مائة وسبعون اسيرا».

ومن كتاب آخر:« ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الاسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا، غانما غالبا، بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ماوجده فيها من الأعمال والعمائر، ومن جملة ماظفر به في طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل اخشابا منجورة إلى عكا، ومعها نجارون ليبنوا منها شواني فأسر النجارون، ومن معهم وهم نيف وسبعون، وأما الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكفي شرها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت اقصى إفريقية فتوحه وعاود به شخص الدين في تلك البلاد روحه».

-٨٣٨٠-
فصل
في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وسبعين أنعم السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جارية في عمل الموصل، فلما تسلمها جعلها من نصيبه، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين، عند وفاة أخيه مودود وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم سلمها إليه دون أعمالها ، تحلة ليمينه ووفاء بوعده الكريم ودينه، ولما جاء لمساعدتنا في هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام، ثم وهب له قلعة الجديدة، وهي قريبة من نصيبين، ووعده بفتح آمد له فوفى بوعده كما سيأتي.

قال: وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهير الدين سكمان، وهو خال صاحب ماردين بن ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش، وصاحب ماردين هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي، فأنفذ شاه ارمن يشفع الى السلطان في الموصل وسنجار، وأرسل اليه سيف الدين وهو من أعز أصحابه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب ماردين، وصاحب الموصل وصاحب ارزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب، وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان، ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين يقال لها حرزم، فجمع السلطان عساكره، وجاءه تقي الدين من حماة إلى حران في خمس ليال، فسار اليهم بعد العيد الأكبر، فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وافترقوا، وعاد الخلاطي إلى خلاطه باختلاطه، ورجع الموصلي الى موصله لمواصله احتياطه، واعتصم الماردي بحصنة المارد، وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها ونحن على طريقه،

فأذن جمعه بتفريقه، ومضى معظمهم الى الموصل، فعبر الفرات عند عانة، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النساء، وقد جاؤوا وهم رجال، ثم نزل السلطان منزلة القوم بحرزم، وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السلطان

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة، نزل قراقوش، على بلد زالوت(١٨) وقاتله الى ان انهزم منها أهله، ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشتاء فأصبح يوما فإذا حول المدينة عسكر مقداره خمسة آلاف رجل، فقام وافتقد اصحابه فلم يجد الا جماعة من البوابين والركابدارية، وباقي الناس سكارى، ورأى احد البوقية فأمره ان يضرب بالبوق، وفتح الباب وخرج فظن العسكر أن قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهزموا.

قال: ثم انه قصد طرابلس فحاصرها وضيق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قد راسل قراقوش، وطلب منه الأمان وسأله ان ينفذ اليه قوما يقرر معهم أمر التسليم، فأنفذ اليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه، فأخذهم عبد المجيد وأنزلهم في دار أخلاها وأمر لهم بجميع مايحتاجون اليه، فلما خلا لهم الليل أخذوا المخاد وتصافعوا بها حتى قطعوها وقام بعضهم الى صهريج مملوء ماء للشرب فأحدث فيه، فخبرت الرقباء عبد المجيد بما كان منهم، فأحضر وجوه البلد وقص عليهم ماكان منهم وقال: اذا كان هؤلاء خيارهم فما ظنكم بشرارهم، وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد، فامتنعوا حينئذ وحضر ابن مطروح من الغد اليهم الى الدار ومعه وجوه البلد فقال لصاحب ضيافته: لم أحضرت لهؤلاء السادة مخاد مقطعة؟ فقال: ماأحضرت لهم إلا مخاد جددا، ولكن القوم أكلوا طعام الصوفية الذي لانعرفه في بلادنا، فاستحى القوم وعلموا انهم قد فطنوا بحالهم، ونزل رجل الى الصهريج فرأى العذرة على وجه الماء، فقال من فعل؟ فلم يرد واحد منهم جوابا، فقال ابن مطروح:ياقوم ماأدخلناكم إلينا الا عازمين على تسليم البلد

إليكم وأن نكون لكـم رعايا، وقد شـاهدنا منكم افعـالا مانرضاهـا، فإن قلتم ان هذه الفعلة مـن غلمانها وعبيـدنا، فما اقبـح هذه الأحـدوثة عـن خيار اصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خير منكم فلم بعثكم إلينا، هذا طعـن في عقله، ثم أمر بـاخراجهم من المدينـة، فلما صاروا إلى قراقـوش وعلم القصة عظم عليـه الأمر وأراد الفتك بهم، وعلـم انهم قد فتقوا عليه فتقـا لايمكنه رقعه أبدا، وتيقـن انه لايملك البلد أبـدا، وانفذ عبد المجيـد إلى قراقـوش: إنك لسـت بقادر على أخـذ هذا البلـد لأجل مانفر به اصحابك قلوب أهله، فـإن رأيت ان نجعل لك جعالة نحملها إليك في كل سنـة وترحل عنا قطعنـا، فأجاب إلى ذلك ورحـل عنهم بعد أن احتوى عليهـم، قال: وتـوافت إليـه الفرسـان من مصر حتـى سار في ثمانمائة فارس من الأتراك، وسار من جبل نفـوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الـروم وغيره من المواضـع والقلاع فهجـم ونهب، وغنم وغلـب، وخافه أهل تلك النواحي .

- ٨٣٨٣ -

فصل

في فتح آمد

قال العماد: ثم سار السلطان الى آمد، ونـزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجـة بعـد ان استـأذن الخليفـة في ذلـك، فـأذن لـه فنصـب السلطان عليها المجانيق وضايقهم، وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي.

ثم دخلت

سنة تسع وسبعين

قال ابن ابي طي: والسلطان منازل لآمد، واشتد قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتب رقاع فيها ابراق وارعاد، ووعد وايعاد ، وان داموا على القتال ليستأصلن شأفتهم، وإن اعتزلوا وسلموا البلد ليحسنن إليهم وليضعن ماعليهم من الكلف والضرائب، وأمر ان تعلق تلك الرقاع على السهام وترمى الى آمد، فرمى من ذلك شيء كثير، فكفوا عن القتال، وأشاروا على ابن نيسان بطلب الأمان، فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح، وأمهل ثلاثة أيام، فلما عول على نقل أمواله قعد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ اليه غلمانا ودواب، وضربت له خيمة بظاهر آمد، وجعل ينقل مايقدر على نقله من المال والقماش، وآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة ايام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاثمائة انسان، ولم ينقل عشر ماكان له، وسرق من أمواله أكثر مما حصل له، لأنه ماأخرج أحد شيئا إلا وأخذ نصفه أو أكثر، وكان ابن نيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لايمكن وصفها من الأسلحة والأموال والغلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ماحصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار من المجانيق واللعب والعرادات أشياء كثيرة لايمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد فيها برج من أبراجها فيه مائة ألف شمعة، وبرج مملوء بنصول النشاب وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين جمازة، ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لاحاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما

تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا ارسلان بما فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعا، ووفى له بما وعده به، وقيل للسلطان:إنك وعدته بآمد وماوعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الأموال والذخائر، مايساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال: لاأضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

قال: وفي فتح آمد يقول سعيد الحلبي من قصيدة في السلطان:

رمى آمد بالصافنات فأذعنت
له طاعة آكامها ووعورها
فما عز ناديها ولااعتاص ثغرها
ولاجاش طاميها ولاردسورها
وأنزلت بالكره ابن نيسان مخرجا
كما أنزل الزباء كرها قصيرها
نهضت لها حتى إذاانقاد صعبها
وقر على طول الشماس نفورها
سمحت بها جودالمن ظل برهة
يغاورها طوراوطورايغيرها
وملكت ماملكت منها تخولا
لأجدر أن يرجو نداك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبي يذكر فتح آمد:

فياساكني الرعناء من سفح آمد
أرى عارضا ينهل بالموت هاطله
لئن غضبت يوما عليكم عروشها
فهذا ابن أيوب وهذي معاقله
ولو رامها يوما سواه لقطعت
أباهره من دونها وأباجله

قلت وقال آخر:

لـــو عـــرفـت آمـــد مـن جـــاءهـــا
يخطـــب في الاســـلام تسليمهـــا

لصيرت أعلى شراريفهـــــا
لمن على الأرض ســـلاليمهـــا

قـال العماد: وأما آمـد فحصل فتحهـا يـوم الأحد في العشر الأول مـن المحرم، وكـان مدبر آمد ابـن نيسان،، فهو رئيسهـا والقائم بأمرهـا، وكان لآمد أمير قـديم يقال لـه، ايكلدي من أيـام السلاطين القدمـاء ، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعي أنه من غلمانه ومصطنعيه، وأنـه يحفظ البلـد له، وأنـه لايغدر بـه ولا يؤثـر بدلـه، وإذا جاء رسـول يحضره عنـد أميره ويسند مـايدبـره إلى تدبيره، ويقـول انه غـلام، ومامعـه كلام، وحافظ على سر هـذه السريرة، وآمن باحتياطه مـن جور الجيرة، بل مامنهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكـره، وينكر عرفه، ويعرف نكره، ولم يزل الحصار عليهـم إلى أن أذعنوا للانقياد،وخرجت نساؤهم سحراً الى المخيم الفاضلي يطلبـن الأمان، فأمنهم السلطـان، على أنهم يخرجون بعد ثلاث، ويحملون مـاقدروا عليه من المال والاثـاث، وأعانهم السلطان على نقـل الأمـوال بالـدواب والـرجـال، فلما انقضـت مدة الأمـان، تسلمهـا السلطان، وسلمها إلى نور الـدين بن قرا أرسلان، بأعمالها ومـافيها، وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعـد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها، ثم وصف العماد مـاكان في قلعة آمد من الذخائر والأمـوال، والحواصـل والأمتعـة وأن أصحـابها لم يقـدروا في تلـك الأيـام الثلاثـة إلا على تحويل مـاخف منها واستغنـى المساعـدون لهم في تحويلها اليهم.

وكتـب الفاضـل عـن السلطـان إلى الديـوان ببغـداد:« ورد إلى الخادم التقليد الشريـف بولاية آمـد، فلما رآه مستقرا عنـده قال: هذا مفتـاحها،

وسمع الـوصايا فـاستضاء بها في ظلمات القصـد، وقال: هذا مصبـاحها، وتناولـه فما ظن الا كتـابا انزل عليـه من السماء في قـرطاس، ومـاتيقنه الا نـورا يمشي به في النـاس، فسـار به، ولـولا العادة مـااستصحـب جنديـا وعـول عليه، ولـولا الرتبـة لما تقلد هنـديـا ، وطرق بـابه بـاقليده، ولـولاه مااستطـاع للأولياء ان يظهـروه، وما استطاعوا نقبـا، وناشد المقيـم بتقليده ثلاثـة أيام بثـلاث رسائل، فلو كـان ذا سمع اصغـى ، ولو كـان ذا لب لبـى، فلما انقضت ضيـافـة أيـام النذارة، واحتقـر مـن بـآمد نـار الحرب جـاهلا ان «وقـودهـا الناس الحجـارة»، عمـد لها في اليوم الـرابـع فزلـزل عمدها، وقاتلهـا فأنزل جلدها، وزيل جلمدهـا، ثم رأى أن الشوكة ربما اصابت غير ذات الشوكة من جندهـا، وان المسلم قد أمن عذاب الحريق ولايأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زنـدها، فعدل الى منجنيقه أمل صاحبهـا منه منجانيقـه، ورأى ان سوط سطوتـه يضرب الحجر، ويضرب عن أن يبـاشر البشر، وتلك الأبرجـة قد شمخـت بأنفها، ونـأت بعطفها، وتـاهـت على وامقهـا، وغضت عين رامقهـا، فهـي في عقـاب لـوح الجو كـالطائر الا ان المنجنيـق أغرى بها عقـابيه، وضغمهـا بمخلبيه، وخصـم أمـامهـا يخاصمهـا، وقـام إلى الغير يحاكمهـا، ويضرب بعصـاه الحجـر فتنبجس من النقـوب اعين لاترسل الماء، ولكن تـروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظمأى كذلك أيامـا حتى محي من الشرفات شنب ثغرها، وتناوبها كأس فتك تبين بهز أبـراجها آثار شكرها، وعلت الأيـدي الرامية لها، وغلت الأيدي المحـامية عنها، فلم يبـق على سورها من يفتـح جفنا، وشن المنجنيق عليها غارته الى ان صـارت شنا، وفضت صناديق الحجارة المقفلة، وفصلـت منها اعضـاء السور المتصلة، ووجـب القتال لئـلا يظن بالخادم ان لاجنـد به الا جنـدله، فـأوعزنـا التقدم اليهـا ودخول النقـابين فيها، فأثخنت جـراحا بالنقوب، وهتك الحجاب من أضـالع البلد، فكاد يتصل الى ماوراءهـا من القلوب، وخشيت معرة الجيـش في وقت هجمه، وروسـل صاحبهـا بأنـه كشـف له الخذلان حتـى نصر على شكه بعلمـه،

فأعاد الرسـول مستنكفا تحجب النجاة بارسال ذوات الحجـاب وابرازهن، ومستكفا ليد القتل بمن لم يكن جـوابه غير احرازه واحرازهن، ولم يعارض في نفسة ولافي قومه ولافي أمواله، وهي ماهـي ذخائر موفرة، ومكاسب من أرباح مخسره، كـانت الحقوق عنهـا مذودة والآمال دونها مطـرودة، وغض الخادم كل عين عـن عينه وورقه، وصـانه في مخيمـه من الفقر صيـانته في ذات سوره وخندقه، واستـوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقـه، وهذه آمد فهي مدينة ذكـرها بين العالم متعالم، وطالما صادم جانبها مـن تقادم فرجع مجذوعـا أنفه وإن كـان فحلا، وقـرعها فـريد الهمـة، واستصحب جفـلا، ورأى حجرها فقدر انـه لايفك له حجر، وسوادها فحسـب انه لاينسخه فجر، وحميـة أنف أنفهـا فاعتقـد أنه لايستجيـب لزجـر من ملـوك كلهم طوى صدره على الغليل الى موردها،ووقـف بها وقوف المحب المسائل فلم يفز بها أمل من جواب معهدها».

ثـم ذكر تسليمهـا إلى ابن قـرا أ رسـلان ثم قـال:« ولما رأى صاحـب ميافارقين أن اخت صاحبته قـد ابتني بها خاف ان نجمع له بين الأختين، فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين».

ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم، على قصد الخادم، ونزلوا تحت الجبل، فلما صح عندهم قصده ظنوا أنه واقـع بهم، فأخذوا عنه الفرار بقوة، وذكـروا مافي لقائه من عوائد كانت عندهم مخوفة وعنده مرجـوة، وسار كل فريق على طريق بنية عدو وفعـل صديـق، والخادم يقول مهما ارادت فيـه الآراء الشريفة أتـاه، ومهما نوت فيـه من إحسـان قرب عليـه مانـواه، فهذه آمـد لما أرسل اليـه مفتاحهـا، وهوالتقليد فتحهـا، وهذه الموصل لما تـأخر عنه المفتـاح منعها وما منحها، ولو أعين بـه لعظمت على الاسلام عـائدته، وظهـرت في رفع منـاره فائدتـه لأن اليـد كانـت تكون بـه على عـدو الحق واحدة، والهمـة لآلات النصر واجدة، فـإن رأى أمير المؤمنين ان يميز بين أوليـائه، وينظر

أيهم أبر بـأوليائه، واشـد على اعدائه وأقوم بحقـه وحق آبـائه وأيهم أترك للفراش المهـد، وأهتك للطـريق الممـدد، وأهجر في سبيـل الله لـراحة، وأصبر في جهاد عـدو الله على مضض جـراحة، وأسلى عن ريحانـة فؤاد، وأكثر ممارسة لحية واد، فيختار لهذه الأمة التـي جعله الله لها إماما وأما ما أسعد مـن أجرى في طـاعته ضامـرا، وملأ بولايتـه ضميرا فمن عـدله أن يولي عليها العدل الذي يقر عينهـا، ومن فضله أن لاينسى الفضل بينها، وقد ورد ذلـك المنشور بـآمد فـأورد الميسور، فـإن ورد المنشور المشـار اليه بالجزيـرة وماوسعت فـإنه نور على نـور، ومايحسب الخادم ان كيـدا للعدو الكافر أكيـد، ولاجهدا لأهل الضلال أجهد، ولاعائدة بغيـظ رؤساء أهل الالحاد أعود من تفخيم أمـر الخادم بمزيـد الاستخدام، والا فلينظـر هل يشق على الكفار مزيد احد سـواه من ولاة الاسلام، فكل ذي سلطان هو الطاعـم الكاسي المحمـي بالمناضـل لا الحامي، المكفـي لا الكافي يقضي عمره وهو لايشهـد الطعن الا في الميدان، ولايتمثل الهام طـائرا لولا الكرة في الصولجان، ولايشقى بسهمـه الا قرطاسه، ولايحظى برفـده الا اكياسه، فـأعاد اللـه بأمير المؤمنين هـذا الديـن الى معالم حقـه الأولى، وأطال يـد سلطانه الطولى، الى أن تأخذ الأمور مـأخذها عدلا واعتدالا وسلما وقتالا، فيعود إلى الاسلام عوايد ارتياحه، وأيام منصوره وسفاحه».

ومن كتـاب آخر فـاضلي عن السلطان الى وزيـر بغداد:« اصـدر هذه الـوسيلة الى المجلـس السامـي معولا على كـرمـه فيما حملته مـن اللبانـة، مستغنيا بشهرةالحال المتجـددة عن الإبانة، فإن آمـد قصر الأمد في الظفر بها، وأنقاذها من المظالم التي كانـت تلبس نهارها بقبة غيهبها، وسار اليها ببقية العسـاكر بعد الـذين ساروا إلى الشـام، وأقامـوا قبالة الكفـار، بعدة اقتصر عليها أكثـرها مـن عساكر الـديار المصرية على بعـد تلك الـديار، ليظهر لمن نوى المناواة، ويتبين لمن كان على منـافاة الملاقاة، أن رجالا من مصر فتحوا آمـد بعد سنـة من البيكـار، وبعد غـزوتين قد طـولع بهما في تواريخهما إلى الكفار، ففي ذلك مايغص الحاسد، ويغض الحاقد، ويعلم

أن في أولياء الدولة مارد كل مارد، فلما حل بعقوتها أراد أن يجري الأمر على صوابه، ويلج الأمر من بابه، وأن ينذر المغتر ويوقظه، ويعظه بالقول الذي رأى من الرفق ان لايغلظه، فبعث اليه ان يهب من كراه، ويعد لضيف التقليد قراه، وينجو بنفسه منجأ الذئاب، ولايتعرض بأن يكون منتجأ للذئاب فإذا عريكته لاتلين إلا بالعراك، وطريدته لاتصاد الا بالاشراك، فهناك رأى عاجلا ماهناك، وقوتل حق القتال في يوم واحد عرف مابَعده من الأيام، ووقع الاشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام، ونصب المنجنيقات فأرسل عارضها مطره وفطر السور بقدرة الذي فطره، وخطب امامها خطيب خطبه، وأغمد الصارم اكتفا بضربه، وترفه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حزبه، فصار في أقرب الاوقات جبلها كثيبا مهيلا، وعفرت الأبرجة وجها تربا، ونظرت القلعة نظرا كليلا حتى إذا أمكنت النقوب ان تؤخذ، وكبدالسور ان تفلذ، رأى الذي لايصبر على بعضه، واعتذر اليه البناء الذي بناه إن لم يقضه، فلا بد من نقضه، وسأل فأجيب إلى الأمان على نفسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظلم، وسلم وهو يرى السلامة إما من الحلم وإما من الحكم».

ثم قال:« ولولا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذي قرعه، ولاأنزل عليه النصر الذي أنزل معه، ولاساعد سيفا ساعد، ولانالت يد مدت من مصر فأخذت آمد، ومن بآمد، ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها، ولو بدلجة أدلجها، ولو بحصاة نبذها، وهو يتوقع في جواب هذاالفتح ان يمد بجيش هو الكلام، ورماح هي الاقلام، ونصر هو وافد الامر، وترشيد هو فك الحجر، وليس ذلك لوسائل من دولة اقامها بعد ميل عروشها، ولالدعوة قام فيها بما تصاغرت دونه جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجزيرة الكبيرة، وهي دار الفرقة، ومدار الشقة، ولو انتظمت في السلك، لانتظم جميع عسكر الاسلام في دار الشرك، ولكان الكفر يلقي بيديه، وينقلب على عقبيه، ويغشاه الاسلام من خلفه ومن بين يديه، ويغزى

من مصر بـرا وبحرا، ومـن الشام سرا وجهـرا، ومن الجزيـرة مدا وجـزرا، ويكون خـادمه قـد وجب أن يتمثـل بقولـه تعالى(ولقـد مننا عليـك مرة أخرى)(١٩).

ومـن كتاب آخـر:« كتابنـا هذا والمدينـة قـد فتحت أبـوابها، وعذقـت بدولتنا اسبابها، وتكلم لسان عملنـا في فم قلعتها، وبعد ان لبستها دولتنا وفينا بموعد خلعتها، فالحمد للـه الذي تتم النعم بحمده، وينجح الأمل بقصـده، مايفتـح الله للنـاس من رحمه فـلا ممسك لها، ومـا يمسك فـلا مرسل له من بعده».

قـال العماد: ثم دخـل السلطـان مدينـة آمـد وجلس في دار الإمـارة، وحلف نور الدين بن قرا أرسلان على أنه يظهر بها العدل، ويقمع الجور، ويكون سامعـا مطيعا للسلطان من معاداة الأعـداء، ومصافاة الخلان، في كل وقـت وزمان، وأنه متـى استمد من آمـد لقتال الفـرنج وجده لـذلك يقظان وإليه عطشان.

قال: وكـان هذا نور الـدين في خدمـة السلطان بنفسه وعسكـره منذ عبر الفـرات، ثم ان رسـل ملوك الاطـراف اجتمعت عنـد السلطان كـل يطلـب لصاحبـه الأمان، وان يتخـذه من جملـة الأعوان منهـم: صاحـب ماردين، وصاحب ميافارقين، وهما قريبـا ابن قرا أرسلان فرد السلطان كل رسول بسـوله، وأجـاب إقبالـه بقبولـه، ثم رحـل السلطان مـن آمد وعبر الفرات لقصـد حلب، وولايتها فتسلـم في طريقه تل خـالد بالـرعب، ولم تكـن منهم بـالقـرب، فـأقر أهلهـا فيهـا ثـم نزل على عين تـاب، فبـادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين إلى خدمة السلطان، فأعاده إلى مكانه بالاحسان.

وقال ابـن أبي طي: تسلـم السلطان تـل خالـد في رابع عشر المحـرم،

وسلمها الى بـدر الدين دلدرم، ومـن كتاب فاضلي:« نـزلنا تل خالـد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرم، وكان قد تقـدمنا الأجل تاج الملوك إليها، وأناخ عليها، وقـابلها وقـاتلها وعالجهـا، ولو شاء لعـاجلها، ولما أطلـت عليها راياتنا القى مـن فيها بيده، وانجز النصر صادق موعـده، وأرسلتها حلب مقدمة لفتحها، وقد أنعم الله علينا بنعم لانحصيها تعدادا ولانستقصيها اعتـدادا، ولانستوعبهـا، ولـو كـان النهار طـرسـا والبحـر مدادا، ورايتنـا المنصورة قد صـارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها، وسيوفنـا قد صارت مفاتيح الامصار تفتحها بنصر الله، لابحدها ولابقطعها .

قلت: وما أحسن ماقال التلعفري من قصيدة له في السلطان:

قـــل للملـــوك تنحـــوا عـــن ممـــالككـــم
فقـــد أتـــى آخـــذ الـــدنيـــا ومعطيهـــا

فصل

في فتح حلب

قال القاضي ابن شداد: لما عاد السلطان بدأ بتل خالد، فنزل عليها، وقاتلها وأخذها في ثاني عشر المحرم سنة تسع وسبعين، ثم سار الى حلب فنزل عليها في سادس عشري المحرم، وكان اول نزوله بالميدان الأخضر، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك، وكان عماد الدين زنكي قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزاز في تاسع جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فإنه كان قد صار مع السلطان وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها، وجرت غارات من الفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر.

قال: ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير، وقاتلها قتالا شديدا، وتحقق عماد الدين زنكي انه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الامراء عليه وجبههم اياه، فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة، ولم يشعر احد من الرعية ولامن العسكر حتى تم الامر، ثم اعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بلك، فبقوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر، وعلى أهل البلد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر، ومقدموا حلب، وخلع عليهم، وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي اشغاله، وينقل اقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشري صفر، وفيه توفي تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذي كان أصابه وشق عليه أمر موته، وجلس للعزاء.

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابـن القادسي أن مولده سنة ست وخمسين في ذي الحجة، فيكـون عمره اثنتين وعشريـن سنة وشيئـا، وانشد لـه شعرا، وقـال العماد الكاتـب في كتـاب الخريدة انـه لم يبلغ العشريـن سنة[٢٠]وله نظـم لطيف، وفهم شريـف، ثم قـال القاضي أبو المحـاسن، وفي ذلـك اليوم نـزل عماد الديـن إلى خدمتـه وعـزاه وسار معـه بالميـدان الأخضر، وتقررت بينهما قواعد، وأنزله عنده بـالخيمة، وقدم له تقدمه سنية وخيلا جميلة، وخلع على جماعـة من أصحابه، وسار عماد الديـن من يومه الى قراحصـار سائرا الى سنجار، وأقـام السلطان بالمخيـم بعد مسير عماد الديـن غير مكترث بأمر حلب ولامستعظـم لشأنها إلى يوم الاثنين سـابع عشري صفر، ثم صعد في ذلك اليـوم قلعة حلب مسرورا منصورا، وعمل له حسام الـدين طمان دعوه سنية، وكـان قد تخلف لأخذ مـا تخلف لعماد الدين من قماش وغيره.

وقال العماد: وصل السلطـان إلى حلب ، وفيها عماد الديـن زنكي بن مودود الـذي كان صـاحب سنجـار، وقد تحصـن بكثرة الأجنـاد والعدد، وأراد مقابلـة السلطان ومقاتلتـه، وأراد السلطان أن يظفر بها بـدون ذلك مـن القتال، وعداوة الرجـال، ولكـن الشباب، وجهـال الاصحاب رامـوا القتال، واحبـوا النزال وتقدمـوا واقدموا والسلطـان ينهاهم فـلا ينتهون، وكان فيهـم تاج الملـوك بوري أخـو السلطان فطعـن في فخذه، ثـم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد، وكـان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمة لعماد الديـن زنكي، وكـان السلطان أول مانـزل على حلب نـزل في صدر الميدان الأخضر، وذلك في زمـن الربيع، ثم رحل ونزل على جبـل جوشن، ونهى عن القتال وقال: نحن هاهنا نستغل البلاد،

وماعلينا من الحصن الذي بلغ هـذا العناد، وأنفذ رسل الترهيب ففكر عماد الديـن زنكي في أمره، ورأى أن الصـواب مصالحة السلطان، فـأنفذ سرا إليـه حسام الـدين طمان، وصـالحه وحلفه على أن يسلـم إليه حلـب

ويرد عليه بلده سنجار، ففعل وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة ومن كتب فاضلية:« تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها، وبلغت بها الهمم أوطارها، وعوض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره، ومختلط بالجملة، فهو واحد الأولياء في مغيبه ومحضره، وعوض عمادالدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، فهو صرف بالحقيقة أخذنا فيه الدينار، واعطينا الدراهم، ونزلنا عن المبيحات وأحرزنا العواصم، وسرنا أنها انجلت والكافر المحارب، والمسلم هو المسالم، واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغزو والمصابرة، فانتظم الشمل الذي كان نثيرا، واصبح المؤمن بأخيه كثيرا، وزال الشغب، وأخمد اللهب، واتصل السبب، واخذت للغزاة الأهب ووصلت إلى غاية همة الطلب، والألفة واقعة، والمصلحة جامعة، واشعة أنوار الاتفاق شائعة».

ومنها:«فتحنا مدينة حلب بسلم ماكشفت بحرمتها قناعا، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت ان تسلم بعدها بمشيئة الله قلاعا، وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة مااشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة لأن مرادنا من البلاد رجالها، لاأموالها ، وشوكتها لازهرتها ومناظرتها للعدو لانضرتها، وان يعظم في العدو الكافر نكايتها، لاأن تعذق بالولي المسلم ولايتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ماكانوا يؤملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون، وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على ان تكون العساكر مجتمعة، على الاعداء مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرنا، وفي يده مالا نضن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلدا الا الينا عاد عسكره، وانما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى

عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى:(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)(٢١).

ومنها :« نشعر الامير بما منَّ الله به من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسلم قلعتها التي هي أحد مارست به الارض من الأوتاد، فلله الحمد وأين يقع الحمد من هذه المنة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي الجنة، وصدرت هذه البشرى والموارد قد أمضت الى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديها وحاضرها، وقلعتها قد اناف لواؤنا على انفها، وقبضت على عقبه بكفها واعتذرت من لقائه امس برشفها، ورأينا ان نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد، وان نوسع المجال فيما نضيق به تقلب الذين كفروا في البلاد».

قلت: ولأبي الحسن بن الساعاتي في مدح السلطان عند ارادة فتح حلب قصيدة منها:

مابعد لقياك للعافين من أمل
ملك الملوك وهذي دولة الدول
فانهض إلى حلب في كل سابقة
سروجها قلل تغني عن القلل
مافتحها غير إقليد الممالك والـ
ـداعي إليه جميع الخلق والملل
وماعصت منعة لكنه غضب
علام أهملتها إهمال مبتذل
غارت وحقك من جاراتها فشكت
مابالـه بافتضاضي غير محتفل

وللقاضي السعيد بن سناء الملك من قصيدة:

بدولة الترك عزت دولة العرب
وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب

إن العـــواصـــم كـــانـــت أي عـــاصـمـــة
لنفسهـــا بتعـــاليهـــا عـــن الـــرتـــب
جليســـة النجـــم في أعلى مـــراتبـــه
وطـــا الماغـــاب عنهـــا وهـــي لم تغـــب
ومـــانعتـــه كمعشـــوق تمنعـــه
أحلى مـــن الشهـــد وأشهـــى مـــن الضرب
فمـــر عنهـــا بـــلا غيـــظ ولا حنـــق
وســـار عنهـــا بـــلا حقـــد ولا غضـــب
تطـــوي البـــلاد وأهليهـــا كتـــائبـــة
طيـــا كما طـــوت الكتـــاب للكتـــب
أرض الجزيـــرة لم تظفـــر ممـــالكهـــا
بما لـــك فطـــن أو ســـائس درب
ممـــالـــك لم يـــدبـــرهـــا مـــدبـــرهـــا
الا بـــرأي خصي أو بعقـــل صبـــي
حتـــى أتـــاهـــا صلاح الـــديـــن فـــانصلحـــت
مـــن الفســـاد كما صحـــت مـــن الـــوصـــب
وقـــد حـــواهـــا وأعطـــى بعضهـــا هبـــة
فهـــو الـــذي يهب الـــدنيـــا ولم يهب
ومـــذ رأت صـــده عـــن زبعهـــا حلـــب
ووصلـــه لبـــلاد الغير بـــالحلـــب
غـــارت عليـــه ومـــدت كـــف مفتقـــر
منهـــا إليـــه وأبـــدت وجـــه مكتئـــب
واستعطفتـــه فـــوافتهـــا عـــواطفـــه
وأكثـــب الصلـــح إذ نـــادتـــه عـــن كثـــب
وحـــل منهـــا بـــأفـــق غير منخفـــض
للصـــاعـــديـــن وبـــرج غير منقلـــب
فتـــح الفتـــوح بـــلا مين وصـــاحبـــه
ملـــك الملـــوك ومـــولاهـــا بـــلا كـــذب

قال ابن أبي طي: وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبي له من قصيدة:

يا ابن أيوب لا برحت مدى الـ
ـدهر رفيع المكان والسلطان

حلب الشام نحو مرآك وهي
وله الصب ريع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة:

دونك والحسناء أم القرى
ونارها الأشهب والطود الأشم

واركب إلى العلياء كل صعب
أبيت لعنا وخلاك كل ذم

وارم فكل الصيد في جوف القرى
لا صارم السهم ولا نابي الحكم

مد إلى أخت السها[٢٢] زورة
لا فرق يعقبها ولا ندم

فيها لها شماء مشمخرة
تطارح البرق وساحات الديم

إيه صلاح الدين شدَّ أزرها
واعزم عليها فالزمان قد عزم

ودونك المنعة من قبابها
وبابها المغلق في وجه الأمم

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نشر سنجق السلطان الأصفر على سور قلعة حلب، وضربت له البشائر، وفي ذلك الوقت تخفى عماد الدين وخرج من القلعة ليلا الى المخيم، وأخذ في إخراج ماكان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث، وكان استناب الامير حسام الدين طمان في القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور إلى نوابه، وأعطى السلطان طمان الرقة لوساطته في أمر عماد الدين، وكان

السلطان شرط انه مايريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين في أخذ جميع مافي القلعة، ومايمكنه حمله، فلم يترك عماد الدين فيها شيئا، وباع في السوق كل مالم يتمكن من حمله، وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسم حمل مايحتاج إلى حمله، وعمل له يوم الأحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدمي حلب.

قال: وبينما السلطان على لذته بالدعوة والأخذ والإعطاء والانعام والحبا إذ حضر إليه من عرفه وفاة أخيه تاج الملوك بسبب الضربة التي أصابته على حلب، فلم يتغير لذلك، ولا اضطرب ولاانقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح، وبذل الاحسان، وأمر بستر ذلك وتوعد عليه، إن ظهر، وكظم حزنه وأخفى رزيته، وصبر على مصيبته، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر، وفي ذلك الوقت انفضت الدعوة، وتفرق الناس، فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه، ثم أمر به فغسل وكفن وصلى عليه وأمر به فدفن بمقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك الى دمشق ودفنه بها.

قال: وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الأعطاف، عذب العبارة، حلو الفكاهة، مليح الرمي بالقوس والطعن بالرمح، وكان شجاعا باسلا مقداما على الأهوال وكان قد جمع إلى ذلك الكرم والتفنن في الأدب وله ديوان شعر حسن متوسط فمنه:

ياهذه وأماني النفس قربكم
يا ليتها بلغت منكم أمانيها
إن كانت العين مذ فارقتكم نظرت
إلى سواكم فخانتها أماقيها

قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس في اليوم الرابع، وفرق في وجوه الحلبيين الأموال.

وفي سادس عشري صفر ورد أصحاب عماد الدين، وأحضروا اليه العلائم بتسليم سنجار، ونصيبين والخابور، ففي ذلك اليوم تسلم قلعة حلب وأنزل منها الأمير طمان وأصحابه، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السلطان ظاهرا، وركب السلطان إلى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشمال فتسالما، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين، فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وابوه في خدمة السلطان إلى المخيم بالميدان الأخضر، فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراحته، وقدم له تقدمة حسنة عشرين بقجة صفر فيها مائة ثوب من العتابي والأطلس والمعتق والممرس، وغير ذلك وعشرة جلود قندس، وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده، ومائة قباء ومائة كمة وحجرتين عربيتين بأداتها وبغلتين مسروجتين، وعشرة أكاديش، وخمس قطر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بخت، ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب، وخرج السلطان معه، وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من بابلى، وودعه وعاد وسار عماد الدين إلى بلاده.

قال: في يوم الاثنين سابع عشري صفر ركب السلطان وصعد الى قلعة حلب، وكان صعوده إليها من باب الجبل، وسمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ:(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء)(٢٣)الآية، وقال: والله ماسررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت، وقال: صعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعته يقرأ:(قل اللهم مالك الملك) الآية.

قال: ولما بلغ السلطان إلى باب عماد الدين قرأ(وأورثكم أرضهم

وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها)(٢٤) ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيم وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب، وأنشده جماعة من الشعراء، منهم يوسف البزاعي له من قصيدة:

شرفت بسامي مجدك الشهباء
وتجللتها بهجة وضياء
ألقت إليك قيادتها وبها على
كل الملوك ترفع وإباء

ومنهم سعيد بن محمد الحريري له من قصيدة تقدم بعضها:

وصبحت شهباء العواصم مصلتا
قواضب عزم لا يفل شهيرها
فأمطتك منها غاربا فيك راغبا
وعاد يسيرا في يديك عسيرها
وأوطأت منها أخمصيك تنوفة
يعز على الشعرى العبور عبورها
ورد إليها روح عدلك روحها
وكانت رميما لا يرجى نشورها

قال: وقال والدي أبو طي النجار من قصيدة:

حلب شامة الشام وقد زيـ
ـدت جلالا بيوسف وجمالا
وهي أس الفخار من نال أعلا
ها تعالى فخامة وتغالى
ومحل العلاء من حل فيها
تاه كبرا وعزة وجلالا
من حواها ملكا ملك الأر
ض اقتسارا سهولة وجبالا

فــــــافترعهـــــــامهنــــــأبمحــــــل
سمـــق الأنجـــم الـــوضــاء وطـــالا (٢٥)

قال: وحدثني جماعـة من الحلبيين منهم الركن بن جهبـل العدل،قال: كان الفقيـه مجد الديـن بن جهبل، الشـافعي الحلبـي قد وقـع اليه تفسير القـرآن لأبي الحكـم المغـربي، فـوجـد فيه عنـد قـولـه تعـالى:(الم غلبـت الـروم)(٢٦) الآيـة إن أبا الحكـم قـال: إن الـروم يغلبون في رجـب سنـة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقـدس ويصير داراً للاسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلـك بأشياء ذكرها في كتابـه، فلما فتح السلطان حلب كتـب إليه المجـد بن جهبل ورقـة يبشره بفتح البيـت المقدس على يديه، ويعين فيـه الزمان الذي يفتحـه فيه، وأعطى الورقـة للفقيه عيسى، فلما وقـف الفقيه عيسـى عليهـا لم يتجـاسر على عرضهـا على السلطـان، وحدث بها في الـورقة لمحيـي الدين بـن زكي الديـن القاضي الـدمشقي، وكان ابـن زكي الـدين واثقـا بعقل ابـن جهبل، وأنـه لايقدم على القـول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها:

وفتحكـــــم حلبـــــابـــــالسيــــف في صفـــــر
قضـــى لكـــم بـــافتتـــاح القـــدس في رجـــب

ولما سمـع السلطان ذلـك تعجـب من مقـالتـه،ثـم حين فتح البيـت المقـدس خرج اليـه المجد بـن جهبل مهنئـا له بفتحـه، وحدثـه حديـث الورقة، فتعجب السلطـان من قوله، وقال: قد سبق إلى ذلـك محيي الدين ابن ز كي الدين، غير اني أجعل لك حظـا لايزاحمك فيه أحد، ثم جمع له من في العسكـر من الفقهاء وأهـل الدين، ثـم أدخله إلى القدس بعـدما خرج الفـرنج منه وأمـره ان يذكر درسا مـن الفقه على الصخرة، فـدخل وذكر درسا هناك وحظي بما لم يحظ به غيره.

قلت: وسيأتي في فتح بيت المقدس في فصل المنبر ذكر ماقاله أبو الحكم في تفسيره، وغيره مما يناسبه، وبالله التوفيق.

وقال العماد: ثم فتح حلب في صفر من هذه السنة ، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره ، قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبي الاسطول المنصور في أبيات وهي:

يؤمل المملوك مملوكة
تبدل الوحشة بالأنس
تخرجه من ليل وسواسه
بطلعة تشرق كالشمس
فوحدة العزبة قد حركت
سواكن البلبال والمس
فلا تدع يهدم شيطانه
ما أحكم التقوى من الأس
فوقع اليوم بمطلوبه
مما سبى الاسطول بالأمس
لازلت وهابا لما حازه
سيفك من حور ومن لعس
وإنني آمل من بعدها
كرائم السبي من القدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب ماأملت عام القدس

- ٨٤٠٤ -

فصل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم الفرنج واستدعاهم إليه مطمعا لهم في الاستيلاء على حارم، بشرط ان يعصموه من الملك الناصر، وعلم الأجناد بقلعة حارم بما عزم عليه فتآمروا بينهم في القبض عليه، وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعد إليها في أموره ولذاته، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان، وكان السلطان راسل والي حارم وبذل له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيعة في دمشق يملكه إياها ودار العقيقي التي كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها، وحمام العقيقي بدمشق، وثلاثون ألف دينار عينا، ولأخيه عشرة آلاف دينار، فاشتط في السوم وتغالى في العوض، فأنفذ إليه السلطان وتوعده وتهدده، فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل إن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه عند السلطان ويتحصل منه شيئا، فكاتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب إليه السلطان بتتميم ذلك ووعده بأشياء سكن إليها، وجرى الأمر على ماذكرناه من إغلاق الباب في وجه الوالي، وقيل إن النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامة لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السلطان، ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ تقي الدين إلى حارم ليتسلمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدة، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعيين وسلموها إليه في تاسع عشر صفر، ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا، فقال للسلطان يامولانا لاتلتفت إلى هؤلاء فإنهم آذوا هذا الوالي وكذبوا عليه حتى فوتوه ماكان السلطان وعده به، وماقلت هذه إلا عن تجربة، فإنني لما كنت

متوليا لهذه القلعة جرى علي من كذبهم في حقي وتحزصهم علي أمور كدت بها أهلك مع نور الدين، وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السلطان يقرهم في القلعة على هذه التجربة، فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم، وولى في القلعة غيرهم، وقال لابن الداية: إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نفي بها نعد، ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد، وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانا بها، وقرر له في كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كمه وقباء ومايحتاج إليه من الطعام وغيره، وجعل معه واليا سيف الدين ازكش الأسدي، وولى حسام الدين تميرك الخليفتي شحنة حلب، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي، ودار الضرب فضرب الدرهم الناصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخطابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحيي الدين بن زكي الدين الدمشقي، فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسي، وولى الجامع والوقوف أبي علي بن العجمي.

وقال العماد: كان في قلعة حارم مملوك من مماليك نور الدين، فعصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلمها، ودبر أمرها وأحكمها.

وقال ابن شداد: أنفذ إلى حارم من يتسلمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأحناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم اليه يوم الثلاثاء ثامن عشري صفر فحلف لهم، وسار من وقته إلى حارم فوصلها تاسع عشري صفر فتسلمها، وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول، ثم أعطى العساكر دستورا، فسار كل منهم إلى بلده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها.

قال العماد: ورجفت أنطاكية بعد ذلك رعبا فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين، وانقاد وسارع إلى أمان السلطان، وولى السلطان القضاء بحلب محيي الدين بن الزكي فاستناب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي، وكشف السلطان عن حلب المظالم، وأزال المكوس، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازي، وكان استصحبه من مصر عند وصوله الى الشام، وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق، وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر.

قلت: وفي توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان:« وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوما استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار، ولها مقدار إلا عند من كل شيء عنده بمقدار، منها ماهو على الأثواب المجلوبة، ومنها ماهو على الدواب المركوبة، ومنها ماهو في المعايش المطلوبة، وقد رأينا بنعمة الله أن نبطلها، ونضعها ونعطلها، وندعها ونضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ماهو أهدى سبيلا، ونقول ماهو أقوم قيلا، ونكره ماكره الله، ونحظر ماحظره الله، ونتأجره سبحانه فإنه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله، وأربح متجره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها، ولنا غدا بمشيئة الله مايرفع من أجرها، فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا أن لايهووا إليها يدا، ولايردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا، ولايثقلوا بها ميزان المال، فيخف ميزان الأعمال ولايرغبوا في كثير الحرام فإن الله يغني عنه بقليل الحلال، وليعلم أن ذلك من الأمر المحكم، والقضاء المبرم، والعزم المتمم».

وفي منشور أهل الرقة بمثل ذلك:« إن أشقى الأمراء من سمن كيسه،

وأهـزل الخلق، وأبعـدهـم من الحق مـن أخذ البـاطـل من النـاس وسماه الحق، ومـن ترك لله شيئـا عـوضه، ومـن أقـرض الله قـرضـا حسنا وفـاه ماأقـرضه، ولما انتهى أمرنـا الى فتح الرقـة أشرفنا منها على سحت يـؤكل، وظلم مما أمر اللـه به أن يقطع، وأمـر الظالمون أن يـوصل، فـأوجبنا على أنفسنا وعلى كافـة الولاة من قبلنا أن يضعـوا هذه الرسوم بـأسرها، ويلقوا الرعايـا من بشائر أيام ملكنـا بأسرها، ونعتق بلـد الرقة من رقهـا، ونثبت احكام المعدلـة فيها بمحو هذه الرسـوم ومحقها، وقد أمرنا بـأن تسد هذه الأبـواب وتعطـل، وتنسـخ هـذه الأسبـاب وتبطـل، وتستمطـر سحـائب الخصـب بالعـدل وتستنزل، ويعفـى خبر هذه الضرائب مـن الدواويـن، ويسامـح بها جميعها جميـع الأغنياء والمساكين، مسـامحة ماضيـة الأحكام، مستمرة الأيـام، دائمة الخلـود خالـدة الدوام، تـامة البـلاغ بالغـة التمام، موصـولة على الأحقـاب، مسنونـة في الأعقـاب، ملعـونا مـن يطمـح إليهـا ناظره، وتتناولها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمع لايوصله إليه غده».

قال العماد: وورد على السلطان وهو نازل على حلـب بشارتان احداهما أن الاسطول المصري غزا في خـامس عشر المحرم، ورجع بعـد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة مقلعة من الشام فيهـا ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا من خيـالة وتجار، والثـانيـة أن فرنـج الـداروم نهضـوا فنذر بهم والي الشرقيـة، فخرج إليهم فـالتقوا على ماء يعرف بـالعسيلة، فاستولى عليهـم المسلمون بعد ان كـادوا يهلكون عطشا، لأن الفـرنج كانـوا قد ملكوا الماء فـأرواهم الله بماءالسماء.

قلت: وكتب الفاضل عـن السلطان الى بغداد بهاتين البشارتين وبفتح حلب وحـارم كتابا شافيـا أوله:« أدام الله أيـام الديوان العزيـز ولازالت منازل مملكتـه منازل التقـديس والتطهير، والـوقوف بـأقصى المطـارح من أبوابـه موجبـا للتقديـم والتصديـر، والأمة مجمـوعة الشمـل بإمـامته جمع السـلامـة لاجمع التكسير، الخادم ينهـي أن الـذي يفتتحـه مـن البـلاد

ويتسلمه إما بسكون التغمد أو بحركة مافي الأغماد، إنما يعده طريقا إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار، ويحسبه جناحا يمكنه به المطار إلى ما يلابسه الكفار من الأقطار، وعلى هذه المقدمة فهو يستفتح بذكر ظفرين للاسلام: بري وبحري، شامي ومصري، احدهما وهو البحري عود احد الاسطولين اللذين اغزاهما اخو الخادم ابو بكر بمصر، وكانت مدة غيبته من حين خروجه إلى وقت عوده إلى دمياط تسعة أيام، فظفر ببطسة مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا منهم خيالة ذوو شكة وازعة، وتجار اولو ثروة واسعة، والثاني وهو البري نهوض فرنج الداروم إلى أطراف بعيدة فنذر بهم والي الشرقية، فركب اليهم الليل فرسا، كما ركبوه جملا، وسروا ثقيلا، وسروا رملا فوافى الفريقان إلى مايعرف بالعسيلة، سبق الفرنج إلى موردته والسابق إلى الماء محاصر للمسبوق، ووردوا أزرقه فتعصب أرزقهم فظن المؤمن أن الكافر مرزوق، واشتد بالمسلمين العطش، ثم ثابوا إلى الفرنج بقوة انجاد السماء بالماء فلم ينج من الفرنج الا رجلان احدهما الدليل، والثاني الذليل، وعاد المسلمون برؤوس عدوهم في رؤوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها، بأرواحهم في رؤوس الظبا وقد أطفأوا بمائها جمراتها».

ثم قال: « ويثني الخادم بذكر ماامتثله من الأوامر العلية في إغماد سيف مجرده من استدعى تجرده، ومورده من عرض له وريده» ثم ذكر تسلمه حلب« وأنه لايؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لاغير، وثغور المسلمين لها الرعاية ولاضير، لانختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها، لامتحاشدة بعتوها ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولاأساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لاتحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة، فعوض عماد الدين من بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والرقة وسروج، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها فلا يطوى منشورها، وأجاب

الخادم عماد الدين إلى مـاسأل فيه من ان يصالح المواصلـة مهما استقاموا لعماد الديـن لأنه لم يثـق بهم وإن كان لهم أخـا، ولم يطمئن إلى مجاورتهم إلى أن يضرب بينه وبينهم من عنايته بـرزخا، فليلح الآن عذرا لأجنبي إذا لم يثق، ولتكن هذه نصيحـة من عوتب في شكره بحسن الظـن فلم يفق، ومن شرطه على المواصلة المعونة بعسكـرهم في غزواته، والخروج من المظالم فما زاد على ان قال: سالموا مسلما، وحاربوا كافـرا، واسكنوا لتكون الرعية ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهرا، وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل اللـه والكف عـن مظالم عباد اللـه، والطاعة لخليفـة الله هـي مراد الخادم من البلاد اذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه لايقاتل لعيش ألين من عيش، ولالغضب يملأ العيان من نزق ولاطيش، ولايريد إلا هـذه الأمور التي قد تـوسم أنها تلزم، ولاينوي إلا هـذه النية التي هـي خير مايسطر في الصحيفة ويـرقم ، وكتب الخادم هـذه الخدمة بعـد أن بات بحلـب ليلة، وخـرج منهـا الى حارم، وكـانت استحفظت مملوكـا لايملكه ديـن ولاعقل غـرّاً ما هـذبته نفـس ولاأهل، فـاعتقد ان يسلمهـا إلى صـاحب أنطـاكيـة، يسر اللـه فتحها،اعتقـادا صرح بفعلـه، وشهره بكتبه ورسلـه، وواطأ على ذلك نفرا مـن رجال يعرفون بـالشمسية، لايعـرفون خـالقا إلا مـن عرفـوه رازقا، ولايسجـدون إلا لمن يرونـه في نهر النهار سـابحا، وفي بحـر الظلام غارقـا، فشعر به مـن فيها مـن الأجناد المسلمين فشردوه ومن تابعه على فعله، وظفر بـه المملوك عمر بن أخيه في ضواحي البلد فأخذه وأرسلـه إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها فتسلمها ورتب بها حامية ورابطة، ولم يعمـل على أنها للعمل طرف، بل إنها للعقد واسطـة، والخادم كما طالـع بماضيه الـذي حـازه الأمس المذكـور، يطالـع بمستقبله الـذي ينجزه بمشيئة اللـه الغد المشكـور، فهو متأهـب للخروج نحـو الكفار لاتسـأم رايتـه النصب، ولاجهـة سيره الـرفع ولاجيشـه الجر، ولايصغي إلى قـول خاطر الراحـة المفند: لاتنفروا في الحر، ولايجيـب دعوة الفـراش الممهـد، ولايعـرج على الظـل الممـدد، ولادميـة القصر المشيـد،

ولايعطف على ريحانـه فؤاد يفارقـه حولا ويلقـاه يوما، ولايقيـم على زهرة ولـد استهـل فمتـى ذكـره الفطـر على راحتـه قـال:(إني نـذرت للـرحمن صوما)(٢٧).

ومـن كتـاب آخـر انفذه مـن نصيبين سنـة ثمان وسبعين إلى بغـداد:« سبيل الخادم أن يبني ولايهدم، ويـوفر جانبه ولايثلـم، وان يفرق بينه وبين من يمسكـون أعنة الجياد المسومـة ولايطلقونها،ويكنزون الذهـب والفضة ولاينفقونها،فقد علـم ان الخادم بيوت أمواله في بيوت رجالـه، وأن مواطن نزولـه في مواقف نـزاله، ومضارب خيامـه أكنة ظلالـه، وأنه لايذخـر من الدنيـا الا شكته، ولاينال مـن العيش الا مسكتـه، وعدو الاسلام شـديد على الاسلام كلبه، مضطرم على أهله لهبـه، زجل اذا أصغت اسماع التأمل لجبه، ولو أن أحـد من يدعي الملك ميراثـا، ويعد البلاد له تـراثا دفع إلى مدافعـه هذا العدو الكـافر، وإلى منافرة هـذا الفريق النـافر لعرفتـه الأيام ماهـو جاهله، ولقلدتـه الحرب ماهوقـاتله، ولحملته الأحوال مـاتجوز تحته محابله».

وفي كتـــاب آخـر :« وإذا أولاه أمير المؤمنين ثغــرا لم يبت في وسطــه وأصبح في طـرفه، وإذا سـوغه بلـدا هجر في ظـل خيمه، ولم يقـم في ظل غـرفه، وإذا بـات بـات بسيف لـه ضجيعـا، وإذا أصبح أصبـح ومعترك القتـال له ربيعـا، لاكـالـذين يغبـون أبـواب الخلافـة أغباب الاستبـداد، ولايـؤامـرونها في تصرفـاتهم مـؤامرة الاستعبـاد، وكـأن الـدنيـا لهم اقطـاع لايـداع وكأن الامـارة لهم تخليـد لاتقليد، وكـأن السـلاح عنـدهم زينـة لحامله ولابسـه، وكأن مال الخلـق عندهم وديعة فـلا عذر عندهـم لمانعه ولالحابسـه، وكـأنهم في البيـوت دمـى مصـورة في لـزوم جـدرهـا، لافي مستحسنات صورها، راضين من الديـن بالعروة اللقبية، ومن أعلى كلمته بها يسمعـونه على الـدرجات الخشبيـة، ومن جهـاد الخارجين على الدولـة باستحسان الأخبـار المهلبية، ومن قتال الكفار بـأنه فرض كفايـة تقوم به

طائفة فيسقط عن الأخرى في أخراها، ومن طاعة الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سيماها، فلا يقنعون بأنهم لايجاهدون، إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر، وبأنهم لايساعدون المسلمين إلى ان يساعدوا عليهم عدوهم الكافر، فقد توالوا الشيطان تليدا وطريفا، ووطئوا الاسلام وأهله وطئا عنيفا، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيفا».

وقال في الكتاب:« إن المواصلة مافزعوا إلى دار الخلافة إلا بعد أن فرعوا والا فطالما طمع أولهم كما طمعوا، وقديما دعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما اتبعوا، حتى أن الأولين منهم علموا أولياء الدولة من الأتراك ضد ماجبلت أخلاقهم عليه من عقوقها، وسنوا لهم اضاعة حقوق الله باضاعة حقوقها، فأين كان التعلق بالدار العزيزة وهم يحاصرون دار الاسلام بأحزابهم، ويرامون التاج الشريف بنشابهم ويمدون محاصرتها بالأسلحة والمنجنيقات،والازواد والإقامات، ويصافون الخلفاء مصافة المواقف، ويكاشفونهم مكاشفة المخالف، ويعززون دزدار تكريت وهي من أهون بلاد الله بجور الجوار، ويجعلونها سجنا لمماليك الخلافة ذوي الاقدار، ولو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة، ولكانت بلادهم له خزانة، ويرجو الخادم بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وساحله، ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحله، وبلاد الكرج، فلو أن لهم من الاسلام جارا لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيف لاطفاء مافيها من النار إلى أن تعلو كلمة الله العليا، وتملأ الولاية العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المتعبدة معابد، والصليب المرفوع حطبا في المواقد، والناقوس الصاهل اخرس اللهجة في المشاهد، ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى مايجاور اكنافه، ويمد أطرافه مثل: تكريت ودقوقا والبوازيج وخوزستان وكيش وعمان، والذي وقع اعظم من الذي يتوقع، والذي طلع اكثر من الذي يتطلع، والذي رؤي أمس أكثر من الذي يسمع».

-٨٤١٢-

قلت: يعني أن مافتحه من البلاد أعظم مـن هذه التي يرجوها، وأشار بفعل المواصلـة إلى ماسبق مـن فعل زنكي في حصـار بغداد، ومساعـدته للسلجوقية على العداة في ذلك الزمان، والله أعلم.

وفي آخر كتاب فاضلي إلى حطان بن منقذ باليمن عن السلطان:« فتح الله علينـا ممالـك وأضافهـا، وبلاد آمنها بنـا مما أخـافها، وبلغنـا غرائب صنـع لايبلغ أحـد أوصـافها، منهـا بـلاد الشام بـأسرهـا، ومملكة حلـب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة بدجلتها، فمنها ماأعيد على من اشترط عليه استخدام عسكـره في بيكارنا، ومنها ما استمـر في اليد وولاته من أوليـائنا وأنصـارنا، ولما لم يبق في البـلاد الاسلامية إلا مـاهو في يـدنا أويـد مطيـع لنا، كـان مـن شكـر هـذه النعمة أن نصرف القـوة، ونثنـي العـزمـة، ونحـد الشـوكـة، ونلبـس الشكـة للفـرنـج الملاعين، فننـازلهم ونقارعهـم، ونخاصمهـم إلى الله وننـازعهم، فنطهـر الارض المقدسـة من رجسهم بـدمائهـم إلى أن ترق السيـوف للصخرة الشريفـة لما مر بها مـن قسوة كفـرهم واعتـدائهم، فنحن نـرجو أن نكون عين الطـائفة مـن الأمة التي أخبر نبينا صلـوات الله عليه أنها لاتزال على الحق ظـاهرة، وبثواب الله وعـدوه ظافـره، والله تعالى يعيننـا على مايعنينـا، ويلهمنا الاستجـابة لدعوته إلى مايحيينا.»

-٨٤١٣-

فصل

في رجوع السلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الأردن

رحل السلطان من حلب فمر على حماة، ثم حمص، ثم بعلبك، ثم دمشق.

قال القاضي ابن شداد: لم يقم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عزما على الغزاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرزا نحو دمشق، واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه، ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار وتعبى فيه للحرب، وسار حتى نزل القصير، فبات به وأصبح على المخاض، وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ماكان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا واحرقوا مالم يمكن اخذه، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية،فخيم بها وكان قد قدَّم عز الدين جرديك، وجماعة من المماليك النورية، وجاولي مملوك أسد الدين حتى تكشفوا خبر الفرنج، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم، وقتلوا

منهـم مقتلة عظيمـة، وأسروا منهم زهـاء مـائة نفر، وعـادوا ولم يفقد مـن المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشـاووش، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة الـواقعة، وهـو العاشر مـن جمادى الآخرة، وفي جـادي عشره وصل الخبر إلى السلطان أن الفـرنج قد اجتمعوا في صفـورية، ورحلوا الى الفولـة وهي قرية معـروفة، وكان غـرضه المصاف، فلما سمع ذلـك تعبى للقتال، وسـار للقاء العـدو فالتقوا وجـرى قتال عظيـم وقتل مـن العدو جماعـة، وجـرح جماعـة وهـم ينضم بعضهـم الى بعـض يحمـي راجلهـم فارسهم، ولم يخرجوا للمصـاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتـوا العين فنزلوا عليهـا، ونزل السلطـان حولهم والقتـال والجرح يعمل فيهـم ليخرجـوا الى المصـاف، وهـم لايخرجـون لخوفهـم من المسلمين فـإنهم كـانـوا في كثرة عظيمـة، فرأى السلطـان الانتزاح عنهـم لعلهم يـرحلون فيضرب معهـم مصاف، فـرحل نحو الطور سـابع عشر جمادى الآخرة، فنـزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخـذ منهم فرصة فأصبح الفـرنج راجعين، وعلى أعقابهم ناكصين، فرحل رحمه اللـه نحوهم وجرى من رمي النشـاب واستنهاضهم للمصاف أمـور عظيمة، فلم يخرجـوا ولم يزل السلطـان حولهم حتى نـزلوا الفولـة راجعين الى بلادهـم، وعـاد السلطان منصـورا وقد نال منهـم قتلا وأسرا، وخرب عفر بلا وبيسان وزرعين وقرى عـديدة فنزل الفوار وأعطى الناس دستورا، فسار مـن آثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميـس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظـر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغـزاة أخذ حلب، ولا الظفر بها بـل كان غرضـه رحمه الله عليه الاستعـانـة بالبـلاد على الجهاد، والله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا.

وقـال العماد: خرج السلطـان إلى الغزو، ورابـط العدو بعين الجالـوت، وعبر المخـاضة الحسينيـة تـاسع جمادى الآخـرة، فـوصـل إلى بيسان وقـد أخلاهـا أهلها، فـأطلق الناس فيهـا النيران ونهبوا مافيهـا، وكذلـك فعلوا

بأبراج وقلاع غيرها، وصادفت مقدمة العساكر خيلا ورجلا للفرنج عابرين من نابلس ومقدمه ابن هنفري فقتل منهم وأسر، وتوقل الباقون في الجبال، ووصل الخبر بأن الفرنج قد أقبلوا في ألف وخمسائة رمح، ومثله تركبلي وخمسة عشر ألف راجل، فأتاهم المسلمون وذلك على عين الجالوت، فأخذهم الرعب وخاموا عن الإقدام عليهم فخندقوا حولهم وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، وأقاموا كذلك خمسة أيام، فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم، فتنفس خناقهم، ونكصوا على أعقابهم إلى الناصرة، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى لم يخلص العدو منها شيئا وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة، وقد كانوا مدة مقامهم يتخطفهم المسلمون من كل جانب، ويرمونهم بالنبل، وينتظرون أن يحملوا أولا كما هو عادتهم فما فعلوا.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى بغداد :« لما كان بتاريخ الثامن من جمادى الأولى سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الاسلام إلى بلاد الكفر وقد تكاملت جنود الاسلام، وتعبت ميامنه ومياسره، وأخذت أهبه، وشحذت قضبه وباعوا الله ماشتراه، ومثل لأعينهم ثوابه فكأنها تراه، وساروا تحت ليل عجاج ستر السائر تحته سراه، وأصبح الخادم واياهم بعين الله في سبيله على ماء الأردن، وهو النهر الفاصل بين الإسلام والكفر، والمخاضة المضروب منها بسور على ذلك القطر، فخاض ذلك البحر، وذلك النهر، وأمدته نطف الحديد فإذا الماء يرمي بالشرر، ويقذف بالجمر، وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير، وهو تاسع الشهر، ولما جاز المخاضة أخذ البلاد ضرب المخاض، وزلزلت أرضها فهي بالقوم ترض وللغنيمة تراض، وأخذت رجال الاسلام تنقص الأرض من أطرافها، وتقلع قلاع الجبال وتطير رؤوسها من أكنافها، فإذا البلاد قد انهزم أهلها فألحقها المسلمون مساكنها في الهزيمة، وعولوا فيها على سيوف المعاول فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة، وهذه البلاد مدن ماكان عزم قبل منها مدنيا، وعمارات ماكان أمل اليها مفضيا، بل طال ماكان

عنها مغضبا مثل بيسان وعفر بلا وزرعين وجينين، فكلها بلاد مشاهير لها قرى مغلة، وبساتين مظلة، وأنهار مقله، وقلاع مطلة، وأسوار قد ضربت على جهاتها، وأحاطت بجنباتها، واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فغنم المسلمون مافيها من أقوات مختزنة، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كفرها بالنار، وعذبوها عذاب أهلها من الكفار، وقتلوها وكأن الضرام كان لها دما، وكتبوا عليها الخراب، وكأن السيف كان فيها قلما، فأجلوا عن حماها حمما، وتساقطت جدرها فكأنما أسارت فيها النوى لما، ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبر بأن عسكر الكافرين قد ركبَ من مكان مجتمعه، وزحف بلابسه ومدرعه، فركب الخادم وسوى المؤمنين في مواقف القتال، ومنازل النزال، فمن متسرع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف، ومن متثبت يمشي إلى الموت مشي العروس ساعة الزفاف، وهنالك منظر ود المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر كما هو به آمر، ولاغرو أن يصفه الخادم ليسر المخدوم، لاليوصف الخادم، ومن وصف ضربة السيف فإنما وصف الضارب، ولم يصف الصارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطا عن سرجه، ومنحازا عن فجه وسالكا نهجا غير نهجه، وأحدق به راجله وهوزهاء عشرين ألف راجل، وركز صليب صلبوته فاستوى في العجز المحمول والحامل، ونزل محصورا، وخندق فكأنما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبورا، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه، وتماشيه الروائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير ويتكرر إليه في اليوم الواحد النفير، ويبعث اليه السهم وهو في الحرب السفير، فيقبل تحية الضرب مترددة ولايردها، وتتبسم إليه صفحة النصل متوددة فلا يودها، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم، ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لبغيتها».

ومن كتاب آخر إلى وزير بغداد: « أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج وجعلت ليل من وراءهم من الاسلام سكنا، وصبروا وصابروا فكأنما

-٨٤١٧-

كان السيـف لهم أليفا، وكـان المعترك لهم وطنا، وأخـذت في البلاد النـار مأخـذها، ونفذت فيها الغير منـافذها، وثلـت عروشها، وتلت غـروسها، وجليت في مصبغات النيران عـروسها، وأصبحت تناجي العيـون ثواكلها، وتصف النـوازل منازلها دمنا على الأطلال مطلـولةوصرعى بسيـوف البلاء مقتولـة، وجاء العـدو فأحـدقت بـه الأبطال، واستمـدوا مغاني الشكـوى لتبـوح ألسنتهم إذا خلـوا إلى شيـاطينهـم، فأخلـدوا إلى الأرض نـازلين، وقعدوا عن الحملـة ناكلين، واتقى فارسهـم براجله، وراجهم بنـابله، ولاذ سيفهم بجفنـه، ولاخير في حاملـه، ولاذ جفنه بـأطرافه خوفـا من كحلـه بسهـم قاتلـه، وأقامـوا محصوريـن لايستطيعون وردا ولاصـدرا، ولايجدون متقدمـا ولامتأخـرا، فما كان للكفـر فئة ينصرونـه من دون اللـه، وماكـان منتصرا وعـرف النصـل في لحن السيـف، أن الشجاعـة والنكـول أمران يقذفهما الله في القلوب، فلايقل الناس كيف.

-٨٤١٨-

فصل

في ولاية الملك العادل حلب وولاية تقي الدين مصر وغير ذلك

قال العماد: وقد كان العادل نائبا بمصر، فلما فتح السلطان حلب كتب العادل اليه يطلبها منه مع أعمالها، ويدع الديار المصرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه الى الكرك، فإنه سائر إلى فتحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين فاستصحبه السلطان معه في رجب، إلى الكرك هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله اليها غنائم وخيم على الربة، ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحا ومساء، وتناوب عليه الأمراء، حتى خرج شهر رجب وماحصل منه الطلب، لكن عظمت النكاية في الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار، ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمعوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان أن أمر حصره يطول فعول على الرحيل إلى دمشق، ووصل العادل إلى السلطان وهو بعد على الكرك، فجهز تقي الدين إلى الديار المصرية والياً عليها، وقوى عضده بصحبة القاضي الفاضل له، وتولى العادل حلب وأعمالها، ومنبج وجميع قلاعها، فسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملك الظاهر ونواب السلطان.

قلت: وكتب العادل إلى الفاضل يستشيره في التعوض عن مصر بحلب، فكتب اليه الفاضل كتابا فيه:

إنما أنــــت كغيـــث مـــاطــــر
حيثما صرفـــــــه الله انصرف

والمولى أعلم، وبسياسة الدنيا أقـوم،وقد تكرر الكتاب الناصري إليه بما نص عليـه، وكشف لـه الغطاء وسنـى له العطـاء، وقالـت له المخطـوبة «هيت لك»، وأدى إليه مـالك الأمر ماقد ملك، فلا زالـت سعادته أنور مـن شمس، وأدور مـن فلك، ولا زال رابحـا على الـدهر إن امـرء خسر، وباقيا إن امرء هلك».

ومـن كتابآخر إليـه:« أدام اللـه دولة حـامـي الحمى، وثبـت الدولـة الناصريـة التي يقـوم بها ملكان همامان هما: صـلاح يمنع فسـادا، وهذا سيف يحقن دما».

قال ابن ابي طي: كان السلطان يعظـم الملك العادل، ويعمل برأيه في جميع أمـوره، ويتيمن بمشـورته، ولايعلـم بأنـه أشار على السلطـان بأمـر فخالفـه، حدثنـي قاضي اليمـن جمال الديـن قال: كـان السلطان يجمـع الأمـراء للمشورة فـإن كان العـادل حـاضرا سمع مـن رأيه وإن لم يكـن حاضرا لم يقطـع أمرا في المهمات حتـى يكاتبـه بجلية الأحـوال ثم يسمـع رأيـه فيها، وقـال: وحـدثني أبي قـال: حدثنـي جماعـة قـالوا : كـان السلطـان ليس لـه غناء عـن العـادل ولا عن رأيـه، فلما حصل العـادل بمصر وبعـد عـن السلطان هنـاك صـار السلطـان يتكلف في مكـاتبتـه بالأخبـار، ويؤخر الأمـور، إلى أن يرد عليه جـوابه فيفـوته بذلـك كثير من المنافـع الحاصلة للدولة وللجهـاد، فلما حصر الكرك في هذه السنة كـاتبه بالحضور إليه بعيـاله وأمواله وجميع أصحابـه، وولى مصر تقي الدين، ولما حصل العادل عند السلطان وقع في نفســه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في ولاية يوليه إياها.

قال: وحـدثني علم الديـن قيصر الصلاحي قال: إنما أقـدم السلطان

العادل من مصر لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، ولهذا خرج العادل بأمواله وعياله وأثقاله، قال: وحدثني غيره قال: لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلا وقال أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال السمع والطاعة، ثم قام وخرج من عنده وكتب اليه يقول أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك وأشتهي أن أحمل هذا المال الى خدمة السلطان ويكون عوضا عنه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلا لأوليك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ماعندي، فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتابا ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان وقال: انما تكون حلب إقطاعا، والمال علي له، فاعتذر العادل إلى السلطان، ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع أو ماعلمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم.أو ماعلمت أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء، ثم قرر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها إلى رعبان إلى الفرات إلى حماة، واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعود إلى حلب وتسليمها إلى عمه العادل، ففعل وعاد الى دمشق، وسار العادل إلى حلب فالتقيا بالرستن وباتافيه، فكانت ولاية الظاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده، والتقرب إليه إلا أن الانكسار لخروج حلب عنه ظاهر عليه، وهو مع ذلك لايظهر شيئا إلا الطاعة لوالده، والانقياد إلى مرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخشاب قال: حدثني الملك الظاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى علي ماقدم وماحدث وأصابني من الهم مالم أقدر على النهوض به، ووددت أني لم

أكن رأيتهـا، ولادخلت إليهـا لأن قلبي أحبها وقبلهـا وطاب لي هـواؤها، ولما فارقتها كنت أحن اليها واشتاقها.

قال: ودخـل العادل حلـب في رمضان وخلـع على المقدمين والأعيان، وكان قـد قدم بين يديـه كاتبه المعروف بـالصنيعة لتسلم حلـب وقلعتها، مـن الملك الظـاهـر، وولى القلعة صـارم الـدين بـزغـش، وولى الديـوان والاقطـاعات شجـاع الـدين بـن البيضـاوي صبـاغ ذقنه، وولى الانشـاء ومايتعلـق بأمور السر للصنيعة ابـن النحال، وكان نصرانيا ثـم أسلم على يد العـادل، فولى ابن النحـال الوظـائف لجماعة من النصـارى، وفي ذلك يقول الشاعر:

فـــاق ديـــن المسيـــح في دولـــة العـــا
دل حتـــى عـــلا على الأديـــان
ذا أمير وذا وزيـــــــــــــــر وذا وا
ل وذا مشرف على الـــــديـــــوان

قال: ولم يـزل الملك العادل يهذب أمور حلـب إلى سادس عشري ذي القعدة، ثم خـرج متوجها إلى دمشق بسبب أن السلطـان اجتمع عنده في ذي القعدة عـدة رسل، منهـم رسل الخليفـة، ورسل طغـرل بن البهلـوان ورسل قـزل أخي البهلـوان، ورسل شـاه أرمن صـاحب خـلاط، ورسل المواصلـة، ورسـل عماد الديـن صـاحـب سنجـار، ورسل قليـج ارسـلان صاحب الشمال، فأراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل، ولحضور الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصل العادل الى دمشق احضره السلطان لسماع الـرسائل وسمـع ماعنـده في الأجوبـة، ولما قضى أجـوبة الرسل ودع السلطان وعاد الى حلب.

قـال: ولما بلغ سيـف الاسلام أن السلطـان كتـب لتقي الـدين عهـدا بـولاية مصر عتـب لأجل ذلـك، فكتب السلطـان له عهـدا ببلاد اليمـن

جميعها ،قال :وأقطع السلطان تقي الدين الاسكندرية ودمياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش، ثم عوضه عن بوش سمنود وحوف دمسيس وذكر غير ذلك.

قال العماد: أنعم السلطان على تقي الدين بالأعمال الفيومية، وسائر نواحيها بجميع جهاتها وحواليها، وزاده القبيبات وبوش، وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها، ولما وصل تقي الدين إلى مصر اقتدى بالتدبير الفاضلي، وكان السلطان لايؤثر مفارقته فلما لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بداً، وكانت فيه حدة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه إلى ندبة الأجل الفاضل.

قال القاضي ابن شداد: وقتل على الكرك في هذه الكرة شرف الدين بزغش النوري شهيدا رحمه الله، ثم رحل السلطان عنها مستصحبا أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشق في رابع عشري شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان، فسار في ذلك اليوم نحوها فوصلها وصعد القلعة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان، وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكوج يدبر أمره، وابن العميد في البلد، وكان الظاهر أحب أولاده إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك عليه، وكان من أبر الناس بوالده وأطوعهم له، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها، فخرج من حلب لما دخلها عمه العادل ويازكوج سائرين إلى خدمة السلطان، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشري شوال، فأقام في خدمة والده لايظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لايخفى عن نظر والده.قال وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل،وكنا قد ترسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولا وشفيعا إلى السلطان، فسيره معنا من بغداد، وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر

البلاد، وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام قال: وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين، وكان بينهما صحبة من الصبا، وكنت مع القوم، وسرنا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ، ونحن في خدمته وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في تلك الدفعة، وخرجنا راجعين إلى الموصل، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصير، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل، فلم يتفق وكان الوقوف من جانب محيي الدين فإن السلطان اشترط أن يكون صاحب إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى صاحب الموصل، فقال محيي الدين: لابد من ذكرهما في النسخة، فوقف الحال، وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة.

قال: وفي تلك الدفعة عرض علي السلطان مواضع البهاء بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال توقف الحال علي ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له، وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب، فوصله رسول سنجرشاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه، وانتمى إليه، ورسل إربل وحلف لهم وساروا، ووصل اليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحجة فأقام عنده وعيد، وعاد إلى حلب.

قال العماد: وصلت رسل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، ورسل صاحب إربل زين الدين يوسف بن علي كوجك بن بكتكين، ورسل صاحب الحديثة وتكريت يشكون من صاحب الموصل، ويطلبون أن يكونوا من أولياء السلطان المنتمين إليه، ففعل السلطان ذلك، وكان أبو سنجرشاه سيف الدين غازي هو صاحب الموصل بعد والده مودود كما تقدم ذكره، فعهد إلى ابنه سنجر شاه بها فغلبه عليها عمه عز الدين مسعود بن مودود،

فبقيت الجزيرة بيد سنجر شاه وهو من تحت يد عمه، وفي قلبه منه مافيه، وكانت إربل وأعمالها ومايليها كلها، مضافة إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثم طلب هو الانحياز إلى خدمة السلطان فأجابه، وسمع بذلك صاحب الموصل،فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السلطان أن يجدد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جملة الأعوان، حربا لمن حاربه، سلما لمن سالمه، وجاء رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وترفع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال أنا أقضي حاجته عليَّ ماأورد ولكن قد سبق مني يمين لأولئك السلاطين فأنا استثنيهم وأردهم إلى اختيارهم لي أو له فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصداقة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم، فعظم ذلك على السلطان، وكان ذلك محركا له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرسل على ذلك غير ظافرين بطائل، وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الأمطار، وكثرت مكاتبات العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتا منها:

عذر الزمان بأي وجه يقبل
ومحبكم بالصد فيه يقتل
مالي سوى انسان عيني مسعدا
بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليل كله في ناظري
لاصبح إلا وجهك المتهلل
خيرتم بين المنية والمنى
لاتهجروا فالموت عندي أسهل
ياغائبين وهم بفكري حضر
ياراحلين وهم بقلبي نزل
ماللسلوّ إلى فؤادي منهج
ماللصبابة غير قلبي منهل
لاتعدلوا عني فمالي معدل
عنكم وليس سواكم لي موئل
كل الخطوب دفعتها بتجلدي
إلا التفرق فهو خطب معضل
ان لم يجدني طيفكم في زورة
فلأنني منه أدق وأنحل
لاصبر لي لاقلب لي لاغمض لي
لاعلم لي بالبين ماذا أفعل

قال ابن الأثير:وفي جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين قبض عز الدين أتابك على مجاهد الدين قايماز، وهو حينئذ نائبه في بلاده، واتبع في

ذلك هـوى من أراد المصلحـة لنفسه، ولم ينظـر في مضرة صاحبـه، وكان الذي أشار بـه عز الدين محمود زلفندار، وشرف الـدين أحمد بن أبي الخير الذي كـان أبوه صاحـب بلد الغراف وهما مـن أكابر الأمـراء، فلما قبضه كان بيده إربل، وشهـرزور ودقوقا، وجزيرة ابن عمر، وكـان بها معز الدين سنجرشـاه بن سيف الديـن صغيرا، والحكم فيها إلى مجاهد الـدين، ولهم أيضا قلعة العقـر، فحين قبض امتنع زين الديـن يوسف بن زيـن الدين علي بإربـل، وكان فيها لاحكـم له مع مجاهـد الديـن، وامتنع معز الـدين بالجزيرة، وأرسل الخليفـة الناصر لدين الله عسكراً حصر دقـوقا فملكها، ولم يحصل لعز الـدين إلا شهرزور، وصارت هـذه البلاد التي كانـت بيده أضر شيء على الموصل، وبقـي مقبوضـا، فأخرجـه وأعاده إلى ولايـة قلعة الموصل إلا أن الذي أخذ مـن البلاد لم يعد إلى طاعته، وقبض عـز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قـال ابن الأثير: وعلى الحقيقـة ليـس على الـدول شيء أضر من إزالـة مدبـر لها وإقامة غيره، فإن الأول يكـون كالطبيب الحاذق العـارف بمزاج الانسان ومـرضه وعلاجه ومـايوافقه ويؤذيـه، فإلى ان يعرف حالـه ينفسد أكثر مما ينصلح.

قال ابن القادسي: وفي هذه السنة في جمادى الآخـرة توفي الأبله الشاعر وهو مـن أسماء الأضداد، واسمه أبـو عبد الله محمـد بن بختيار بـن عبد الله، وكان فصيحا هجاء وله أشعار رقيقة منها:

زار مـن أحيـا بـزورتـه
والـدجـى في لـون طـرتـه
يـا لهـا مـن زورة قصـرت
فـأمـاتـت طـول جفـوتـه

- ٨٤٢٧ -

ثم دخلت

سنة ثمانين

قال العماد: وقد تقرص البرد، فلما طاب الزمان تجهز السلطان بالعساكر المنصورة إلى الكرك مرة أخرى وأرسل إلى تقي الدين فجاء بالعساكر المصرية، والأجل الفاضل، وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وآمد وصاحب دارا وأخو صاحب سنجار وعسكر ماردين، فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العود، وأمر العادل بالاقامة معه.

وقال القاضي ابن شداد: سير السلطان إلى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما، وأصعده القلعة وباسطه، ورحل معه طالبا دمشق، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله تعالى، ولما بلغه وصول ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه وكان رحمه الله يكارم الناس مكارمة عظيمة، فالتقاه على عين الجر بالبقاع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل، فتأهب للغزاة وخرج مبرزا إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق فأقاما بها أياما، ثم رحلوا يلتحقون بالسلطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالبا للكرك، فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقي الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه فسيرهم إليه، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك في رابع عشر جمادى الأولى، وركب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية، ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى

الذب عن الكرك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قصد مصر، بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة، فاهتم السلطان بأمره لتكون الطريق سابله، ويسر الله ذلك وله الحمد والمنة، ولكن كان فتحه بعد ذلك، ولما بلغ السلطان خبر خروج الفرنج تعبأ للقتال، وأمر العساكر ان تخرج إلى ظهر الكرك، وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة، ثم سار السلطان يقصد العدو، وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله، وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسبان قبالة الفرنج في طريقهم، ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين والفرنج مقيمون بالواله إلى السادس والعشرين من جمادى الآخرة، ثم رحلوا قاصدين الكرك، فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم إلى آخر النهار، ولما رأى رحمه الله تصميم الفرنج على الكرك أمر العسكر أن يدخل الساحل لخلوه عن العساكر، فهجموا على نابلس ونهبوها وغنموا مافيها، ولم يبق فيها إلا حصاها، وأخذوا جينين، والتحقوا بالسلطان برأس الماء.

قلت: وقد وصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال: « هو شجا في الحناجر وقذا في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بارصاد العزائم وطرقها، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج، وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين:

مــــامــــر يـــــوم إلا وعنــــــدهما

لحم رجـــــال أو يــــولغـــــان دمـــــا

وفي كتاب آخر: « وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجره، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجة، وكل جوانبها وعرة المرتقى، صعبة المختطاه،

والسلطان يستعـذب المشقات التـي تتفادى منهـا الهمم، ويبـاشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم».

ومـن كتـاب آخـر:« وقـد جمعـت الحجـارة في الإسقـاط بين رؤوس الأعـلاج، فـرمـت الشراريـف والواقفين عليهـا لحمايتهـا، وأرت الفـرنـج باهتدائهـا إلى أردائها غاية غـوايتهـا، فما أخرج أحد منهـم رأسا إلا دخل في عينه نصـل، وماهجـر قراب الاسـلام سيف إلا ولـه مع رقـاب الكفر غمد قطعها وصل، وماعلى الحجر في الاسراف والتبـذير حجر، ولكل ليلة من نقـع الحوافر ومن سنا الأسنـة فجر، ولقد أخـذنا من العدو بـالمخنق، وشرعنـا في طم الخنـدق، والحائط واقـع، والـواقعة بهم محيطـة، والـدروع بالسيوف مفصلة وبالجروح محيطة».

ومن كتـاب آخر.« عذاب اللـه بالحصن وأهله واقـع، ماله مـن دافع، وإن دليل النصر قد ظهر، ومادونه من مـانع، وأما المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك، فلـم تبق لها الحجارة الطائرة إليها حجارة قائمـة، وإن لها من إمطارها عليها ليلا ونهار ديمـة دائمة، وأطفنا عليها بالـزرجون حتى وقعت الأسـوار من سكرها، وضربنـا دونها الستائر حتى تـرنمت لصخـرها، وعـاطتها كفة المنجنيـق عقار عقـرها، فـالسوار المقـابـل للمنجنيقات قـد انهدمـت أبـراجـه وأبـدانه، وانهدت قـواعـده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو واد من الأودية واسع عميق لما تعذر إلى الزحف إليهم والهجم عليهم طريق».

ومن كتـاب آخر:« الحصن الذي نحـن حاضروه وحاصروه في حصـانة الحصـانـة،قد هـدت الحجـارة منـه مـاأحكمـوه بالحجـارة، وعـدا عليـه بالتخريـب ماأعدوه للعمارة، بقسي المنجنيقات تـرمى ولا تريم سهـامها، وتستـديم مـن أعـداء اللـه ومعقلهـم بـالقتـل والهدم انتقـامها،فما قـابـل المنجنيقـات مـن الأبـراج والأبـدان قـد أتى التخـريـب على مـافيـه مـن

العمران،فلم يبق إلا طم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، والقلوب واثقة بحصول الفتح، وقد علم كل واحد منا ان متجره قد فاز بالربح، فما يسمع منا بحمد الله من أحد ملل ولاضجر ولاتسفر هذه النوبة إن شاء الله تعالى إلا عن نصر وظفر».

وقال العماد: رحل السلطان من رأس الماء على طريق الظليل والزرقا وعمان والبلقا، ثم الرقيم وزيزا والنقوب واللجون، ثم أدر ثم الربة وذلك في بلد مآب؛ فلما تلاحقت العساكر نزل على وادي الكرك، ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب، فهدمت السور المقابل لها، ولم يبق مانع إلا الخندق الواسع العميق، وهو من الأودية الهائلة، والمهاوي الحائلة والمهالك الغائرة الغائلة، ولم يكن في الرأي إلا طمه، وملؤه بكل ممكن وردمه،،فعد ذلك من الأمور الصعاب وتعذر لحزونة الأرض وتحجرها حفر الأسراب، فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الاخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الربض إلى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرها وتأليفها، فتمت دروبا واسعة لايزحم فيها الجائي الذاهب، وتوافدت رجال العسكر واتباعه وغلمانه وأشياعه على نقل مايرمى في الخندق، وهان طم الخندق بالدبابات التي قدمت والأسراب التي بنيت وأحكمت، فوجد الناس إلى الخندق طريقا مهيعا فهم يزدحمون آمنين من الجراح عاملين بالشراح والناس تحت القلعة على شفير الخندق لايستشعرون حذرا ولايخشون سهما ولاحجرا، وقد امتلأ الخندق حتى أن أسيرا مقيدا رمى بنفسه إليه، ونجا بعدما توالى من رمي الفرنج رمي الحجارة عليه».

وفي بعض الكتب العمادية:« لولا الخندق المانع من الارادة، وانه ليس من الخنادق المعتادة، بل هو واد من الأودية، واسع الأفنية لسهل المشرع وهجم الموضع، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، فعملنا دبابات قدمناها، وبنينا إلى شفير الخندق

ثلاثةأسراب باللبن سقفناها وأحكمناها، فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنه، وشرع الناس في طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنة، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى، وقد تسنى طمه وتهيأ ردمه، وتسارع الناس إليه، وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولاكبير إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نجح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهارا كازدحامهم في المصلى يوم العيد، وليلا كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف السعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبالنصر موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع، والحصن ومن فيه صريع، قد خرقت الحجارة حجابه، وقطعت بهم اسبابه، وناولته من الأجل كتابه وحسرت لثام سوره وحلت نقابه، فآناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشرفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة ، وحروف العوامل مهموزة، وبطون السقوف مقبورة، وأعضاء الاساقف معقورة، ووجوه الجدر مسلوخة، وجلود البواشير مبشورة، والنصر أشهر من نار على علم، والحرب أقوم من ساق على قدم.

قال: وأشرف السلطان على أخذها ، فوصل الخبر أن الفرنج قد تجمعوا وجاؤوا منجدين لأهل الكرك ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عنان العزم إليهم، وكانوا في منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسلك، فانتظر السلطان أن يخرجوا إلى البلقاء، وتقدم عنهم بأميال فرجعوا وتفرقوا ولم يقدموا، وعلى قصد الكرك عزموا، ولما رأى السلطان أن الفرصة من الفئتين فاتت، مر على نابلس فأغار وغنم وفي طريق عوده نزل على سبسطية، وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الفرنج كنيسة، وأودعوها أمتعة نفيسة، وبها من الفرنج أسقف وقسس ورهبان ففدوها بأسارى مسلمين، ولاذوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جينين فأهبط اوجها، وهدم برجها، وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصفايا، واجتمع بأصحابه على الفوار، وتحدث بالايجاد لحوادث الغور في الغوار.

فصل

ثم رحل السلطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا ومات جماعة من أصحابهم، وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل يوم وليلة في الرباط بالمنيبع، واستأذنوا في العود قبل الشفاء فضاقت الصدور بصدر ذلك الصدر على تلك الحالة، وعجزت تلك العشرة كما شاء الله عن الإقالة، ثم استقل مودعا وداع الأبد، وكان حسام الدين طمان مقدم عسكر سنجار مع السلطان حاضرا في الجهاد، فأذن له في العود وأمره بمرافقة صدر الدين والرسل معه والرفق بهم في مسيرهم، فساروا على سمت الرحبة، فاغتنم الأمير طمان بركة تلك الصحبة، فأدركت المنية شهاب الدين بشير بالسخنة، ووصلوا بشيخ الشيوخ إلى الرحبة، وهناك لقي ربه.

قال: ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده، والوفاق لعقده، مشيم الكرم، كريم الشيم، صالح العمل، ناجح الأمل، مفارقا للدنيا في حياته، مقبلا على الآخرة قبل وفاته، فهو ممن رفعت سريره الملائك ووضعت له في عليين الأرائك، وكانت وفاته في شعبان بوأه الله الجنان.

قلت: كان صدر الدين هذا أحد السادة، وأبوه وجده من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزمان، وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، وقد ذكرت ترجمة والده في تاريخ دمشق وألحقتها من أخبار جده بما ذكره أبو سعد السمعاني في تاريخه.

وقال ابن القادسي: توفي صدر الدين في رجب برحبة مالك بن طوق، ودفن في قبة الى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة الرحبي، وكان

مـولده في ذي الحجـة سنـة ثمان وخمسمائة، وكـان شيخا طـائلافي العلـم والـدين والسـداد ثـابت الجنـان في الحوادث المزعجة، والـوقـائع الباغتـة الملجلجة، سديد البديهة صافي الفكـرة جمع بين نظم الشعر ونثر الترسل، وكان يـرسل إلى الأطـراف، ورتب في مشيخة الشيـوخ منذ تـوفي والده في جمادى الأولى سنـة إحـدى وأربعين وخمسمائة، ولم يـزل على ذلـك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرباط صفـي الدين اسماعيل، ومن شعره يعني صدر الدين:

ولم أخضـب مشيبـي وهـو زيـن
لايثـاري جهـالات التصـابي
ولكـن كـي يـراني مـن أعـادي
فـأرهبـه بـوثبـات الشبـاب

قلـت: ووقفـت على كتـاب فـاضلي إليـه جـوابـا عـن كتـاب عتـب فيه:«وقف على التحية الطيبة والكـرامة الصبية، والالفاظ العذاب إلا انها الغضـاب، والنعيـم إلا أنـه العـذاب، والمسـامحة إلا أنها الحسـاب، والمتشـابهات اللـواتي أولها أحسـن تـأويلهـا، والمحكمات الـلاتي هـن أم الكتـاب، ويكفي أنـه مـزج الصاب بعسلـه، وأرعـف قلمـه بما لايرعفـه الشجـاع من أنـوف أسلـه، وهذا بـاب قد آن سـده، وسبيـل قد وجـب صـده، وعين دهر أصـابت هـذه المودة، وقد آن لها أن تنطـرف وتنصرف، وبادرة هـم قد حان أن تنكشـف وتنكسف، فـلا نظر بعدهـا للعين التي أصابت ولاخطرت في أثـرها للخطرة التي آبت، ولا كان لـلايام في فضل سيدنا على عبده نصيب، ولاعد أبـدا على شباب الرضى عنه مشيب، ولا تمكـن مـن حبيـب وده إلى القلـب رقيب، ولاملـك رقـه غير تلـك اليـد الكريمة، ولاسمعت حديث الحوادث تلك المودة القديمة».

قال العماد: وخرجنـا من دمشق في شعبان، وخيمنـا على سعسع، ودعا تقي الديـن فأمره أن يرجـع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصـف الشهر،

ثم رجعنا من فرض الجهاد إلى فرض الصيام بدمشق، ورجع كل عسكر إلى مركزه، ومدح العماد تقي الدين في هذه الكرة بقصيدة ثائية نحو خمسة وثمانين بيتا أولها:

إذا شئتما عن غير قلبي تحدثا
فما حل فيه الهم إلا ليلبثا
خذا شاهدي صدقي على صحة الهوى
ضنا ساكتا مني ووجدا محدثا
مريضكما أشفى على الناس سقمه
فلا تعجلا في أمره وتريثا
رثى لي عدوي من جفاء أحبتي
نـاهيك من حال عدوي لها رثى
عهودكم بعد النوى ما تشعثت
وحاشى لذاك العهد أن يتشعثا

ومنها:

وأملك بالملك المظفر ظافرا
من الجد والجدوى قديما ومحدثا
مخوف السطا صعب الابا حسن الثنا
مرجى الندى سهل الرضى طيب النثا
صفا آخر العمرين من عمر الذي
به العمران اليوم بالعدل ثلثا
هم أحدثوا قمع الضلالة بالهدى
فمذ ملكوا لم تلق في الدين محدثا
غثائي وغثي أنت حامل نقصه
بفضلك إن البحر يحتمل الغثا

ومنها في وصف القصيدة:

وقد سهلت والثاء أوعر مرتقى
فلا فرق عندي بين تاء وبين ثا

- ٨٤٣٥ -

فصل

يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال زين الدين الواعظ

الذي كان صلاح الدين يكاتبه بوقائعه، وهو الذي نم على عمارة وأصحابه بما كانوا عزموا من قلب الدولة الناصرية مصرية كما سبق. وسبب ذكره هنا انه هو الذي شرع في تفضيل مصر بكتاب كتبه الى السلطان في هذا العام،و قد تقدم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر، وذم الشام في أوائل أخبار سنة أربع وسبعين، وله من كتاب آخر:«دعونا من بعلبك البلد الأعسر، ومن رأس عينها الضيقة المحجر، ومن ثلجها الذي تنفش الجبال بعهنه، ومن بردها الذي لايشفع الجمر عنده إلا باذنه، وعودوا الى ماترفتم فيه ومساكنكم فإنها قد علتها وحشة لقطينها، فسألت مطالع دسوتها عن أقمار سلاطينها واذكروا النيل الذي وفى لكم في هذه السنة بنقصه، وأبى أن يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذي أحصاه الله ولم نحصه، واذكروا فيضها وماء طوبتها فقد كان يقيم الحجة على ثلج الشام ووخمه، ويتغلغل برده فيسري الى قلب العليل، وكان جاريا على غير طريق فمه، واذكروا صحة هوائها وتعصبه لأيامكم حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة أجسامكم».

ومن كتاب آخر:« وأما أحوالي فإنني لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق لتغير مائها وهوائها وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدواتها، وقراها وقرنائها، ومن لي بمصر فإني أقنع بها تنبته أرضها من بقلها وقثائها واتيع بردى(٢٨) وماعساه بشربة من مائها، وامتطي متن السيف في هجر سوادها وسودائها، فالطلل هائل ولاطائل، وماكنا نسمع به من تلك

الفضائل متضائل، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا فهي بلاد تستجدي ولاتجدي، وفعل المال بها لازم التعدي».

وقال العماد: «هذا زين الدين علي بن نجا الواعظ، من أهل دمشق ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوعظ فصيحة، وبهجة للفضل صبيحة، وقبول من القلوب، وفصول في فصل الخطاب للخطوب، وقد تأثث وتأثل، وقبل وأقبل، وأحسن السلطان إليه بالأعطيات، والاقطاعات وأجمل وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل، وكان السلطان يستشيره، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته، ووصل في هذه السنة منه كتاب إلى السلطان يشوقه إلى مصر ونيلها ونعيمها، وسلسبيلها ودار ملكها ودارة فلكها، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها ومقسمها ومقياسها وإيناس ناسها، وقصور معزها، ومنازل عزها، وجيزتها وجزيرتها، وخيرتها وجيرتها، وبركتها وبركتها، وعدوتها وعدويتها وتعلق القلوب بقليوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومرتقى الهرمين، وروضة جنانها، وجنة رضوانها، ومساجدها وجوامعها ومشاهدها، ومرابعها ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها وساحات سواحلها، وآيات فضائلها، ورحاب شوارعها، وحلاب مشارعها، وشروق عربيتها، وغروب شرقيتها، وطيب طويتها، ومسار مسراها، ومجرى فلكها ومرساها وعجائب بناها، وغرائب مناها، وبيان عيانها بلسان بلسانها، وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلاقها، وشتاؤها في الفضل ربيع نضير، وغبارها عبير، وماؤها كوثري وترابها عنبري».

ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه مادل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والأخبار، والآداب والآثار، ولو ظفرت به لأوردته بلفظه وجلوته بوعظه، لكنني فقدته فعربت معانيه وأحكمت مبانيه.

قال: فكتبت الى زين الدين الواعظ في جوابه عن السلطان: «عرفنا

طيب الـديار المصريـة، ورقة هـوائها، ونحـن نسلم لـه المسألـة في طيبها وتـوفير نصيبهـا، ورقـة نسيمها، ورائق نسيبهـا، لكـن لاريـب أن الشـام أفضل وإن أجـر ساكنه أجـزل، وإن القلوب إلى قلبه أميـل، وإن الزلال البـارد به أعـل وأنهل، وإن الهواء في صيفه وشتـائه أعدل وإن الـزهر بـه أشب، والنبـت به أكهل، وإن الجمال فيه أكمـل، والكمال فيه أجمل، وأن القلـوب به أروح، والـروح بـه أقبل ودمشـق عقيلتـه الممشـوطة، وعقلتـه المنشوطـة، وحديقتـه الناضرة، وحـديقته النـاظرة، وهـي عين انسانـه، بل انسان عينـه، وصير في نقوده في عين نضـاره ولجينه، فمستـامها مستهـام، وماعلى محبها ملام، ومافي ربوتها ريبـة، وفي كل حبوة حبيبة، ولكل شائب من نورها شبيبة، وعلى كل ورقة ورقا، وعلى كـل معانقة من قدود البانات عنقا، وشـادياتها على الأعواد تطري وتطـرب، وساجعاتها بـالأوراد تعجم وتعرب، وجميـع مافي سورة الـرحمن، ونحن نتلـو عليه آلاءها إلى أن يـرجع إلينا فنتلو على منكرهـا(فبأي آلاء ربكما تكذبان)(٢٩) وقد تمسكنا بـالآية والسنة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الإختراع والإبتـداع، أما أقسم الله تعالى بـدمشق في قـوله:(والتين والـزيتون)(٣٠) والقسم مـن الله لها أدل دليـل على فضلهـا المصـون، أمـا قـال رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم:«الشام خيرة الله من أرضه يسوق إليها خيرته من عباده»(٣١) هذا أوضح برهان قـاطع على أنه خير بلاده، أما الصحابـة رضوان الله عليهم أجمعـوا على اختيـار السكنى بـالشام، أمـا فتـح دمشـق بكـر الاسـلام، ومـاننكر أن اللـه تعالى ذكـر مصر وسماهـا أرضا فما الـذكر والتسميـة في جنب فضيلـة القسم، ولا الإخبار عنهـا دليلا على الكـرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصـديق إليها عليه الصلاة والسلام، ثم المقام بالشام أقـرب للرباط وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكـر السائرة من سائر الجهـات للجهاد، وأين قطـوب المقطب من سنـاء سنير، وأين ذرى منـف المشرف مـن ذروة الشرف المنيـف المنير، وأيـن الهرم الهرم مـن الحرم المحترم، وبينهما فـرق مابين الفـرق والقـدم، وهل للنيـل مـع طول نيلـه،

وطـول ذيله، واستطـالـة سيله، بـرد بردى في نقـع الغليـل ونفع العليـل، ومالـذاك الكثير طلاوة هذا القليـل، وسيل هـذا السلسبيل، واذا فاخـرنا بالجامـع وقبة النسر ظهر عنـد ذلك قصر القصر، على أن باب الفـراديس في الحقيقة بـاب النصر، ومارأس الطابيـة كباب الجابيـة، ولو كان لنـاسها بانـاس لم يحتاجـوا إلى قياس المقيـاس، ونحن لانجفـو الوطـن كما جفاه، ولانأبى فضلـه كما أباه، وحب الوطـن من الإيمان، ومع هذا فـلا ننكر أن مصر إقليم عظيم الشان، وإن مغلها كثير، وماءهـا غزير، وأن عدها نمير، وإن ساكنهـا ملك أو أمير، ولكن نقـول كما قال المجلس السـامي الاجلي الفاضلي اسماه الله: إن دمشـق تصلح أن تكون بستانـا لمصر، ولاشك أن أحسن مافي البلاد البستان،، وزين الديـن وفقه الله قد تعرض للشام فلم يـرض أن يكون المسـاوي، حتى شرع في عـد المساوي، ولعلـه يرجـع إلى الحق ويعيد سعة اسعاده ووفاقه إلى الأوفق إن شاء الله».

قلت: وقد قيـل في وصف دمشق ومدحها شيء كثير، مـن النظم والنثر واشتمل ماجمعته في أول تاريخ دمشـق على قطعة كبيرة حسنة، من ذلك ماوصـف شيخنا أبو الحسن علي بـن محمد السخاوي رحمه الله في مقـامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كـلا من البلدين بما يليق به، وكـان أول ماقدم دمشـق يذمها في مكـاتباته إلى مصر نظما ونثـرا حبا للوطـن، ثم لما استقـر فيها قرت عينـه وفضلها في بعض مكـاتباتـه، وقد ذكرت كل ذلك في جـزء مستقل به، وأما القاضي الفاضـل رحمه الله فقد قال في بعض مكاتبـاته إلى مصر:« ومما أسر به قلبه الكريـم أنني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد بردهـا، وورد وردها، واخضر نبتها، وحسن نعتها، وصفـا ماؤهـا وصفا دواؤها، وتغنـت أطيارهـا، وتبسمت أزهـارها، وافتر زهر اقحـوانها، فحكى ثغور غـزلانها، ومالـت قضب بانها، فـانثنت تثني ولـدانها، فلما قربت مـن بساتينها ولاح لي فيـح ميادينها، وتـوسطت جنة واديها، ورأيـت ماأبـدعه الله فيهـا، سمعت عنـد ذلك حمامـا يغرد، وهزارا يشـدو ويردد، وقمريـا ينوح وبلبلا بـأشجانـه يبوح، فوقفـت أثني

على باريها، وأكاد بالدمع أباريها، أسفا على أيام خلت بعدما حلت منها وفيها، فعند ذلك عاينت روحي وزال أنيني ونوحي:

وكانت النفس قد ماتت بغصتها

فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت: ووصف أيضا دمشق من أهل مصر من يرجع إلى قوله ويرضى بحكمه، لفضله وفصله، وهو الوزير العادلي صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر في كتاب البصائر له فقال:« دمشق نزهة الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومغرس الأشجار، ومعرس السفار، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود، ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب وعيبها المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائلها المروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة لامقطوعة ولاممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها السلسبيل، وقد شرفها الله تعالى بالذكر في كتابه، وآوى إليها من اختار من أنبيائه وأحبائه، فقال تعالى في كتابه المبين:(وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين)[٣٢]ولم تزل مقر البركات ومعدن النبوات، ومنزل الرسالات، ومسكن أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بقعتها من الأخبار مالايشك في صحة اسناده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« الشام صفوة الله من بلاده، فيها خيرة الله من عباده»، ونبه في خبر آخر على عظم فضله، فقال:« ان الله تكفل لي بالشام وأهله»[٣٢] وبارك في سكناها ورغب في سكناها أهل الاسلام بقوله عليه السلام:« البركة في الشام» وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد إلى أنها(ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد)[٣٣].

قال العماد: ولما أنعم الله تعالى علي بإسكاني في فنائها، وتخيري لبنائها ونزهتي في أفنائها، وأنسي بانسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت

بادراك البصر منه ادراك المسامع فلما وصلت، وحللت الحبى لديه، رأيت مرأى صغر الرواية، ورونقا حصل من الحسن على النهاية، ونورا يجلو الأبصار، وجمعا يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة على الاستمرار، وقرآنا في آناء الليل وأطراف النهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكاف به نفائس الاعمار، والبركات تحف بجوانبه، والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى، والمصاحف بين أيدي التالين تنشر فلا تطوى، واعلام البر فيه ظاهرة فلا تخفى ولاتزوى، والخلق منقسمون إلى حلق، قد نبذ أهلها ماوراءهم من العلق، والاسلام فيه فاش، والجهل به متلاش، وهو مما بناه الاولون لعبادتهم، وجعلوه ذخرا لآخرتهم، ومابرح معبدا لكل ملة، اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسلام هيكلا وقبلة، وهو بيت المتقين، وسوق المتصدقين، ليله للمتهجدين، ونهاره للعلماء المجتهدين».

قال:« وعاشرت أهلها وباشرتهم، ثم كاثرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادة أدباء، وعلما نجباء، ورأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله، فلا يعدلون عن واضح جدده، ويفسرونه عن علم واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ماوردت به ثقاة الآثار، وعامتهم مشغولون بالمعاش، آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضل الرياش، لايخوضون في لغط ولا إكثار، ولايجتمعون على فساد نية في مقيم ولابعيد الدار».

قال:« فأقمت منها في أشرف البلدان، التي هي انموذج الجنان، وعنوان الدار التي خازنها رضوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والنفوس بالخير دون الشر آمرة».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كانت إربل ومايجري معها من البلاد والقلاع من ولايات الموصل غير معدودة في ولاية السلطان، فأرادصاحب إربل أن ينفرد عنه ويستبد بالبلاد فاعتزى الى السلطان وكاتبه وطلب منه منشورا ببلاده فكتبه له وفيه: « إن الله لما مكن لنا في الأرض، ووفقنا في اعزاز الحق، واظهاره لاداء الفرض، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله، ونقبل على إعلاء كلمة الدين ونصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام إلى غزو أعدائه، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استنزال نصر من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة، يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة، ومن أخلد إلى الارض واتبع هواه، وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه، فإن أناب قبلناه وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه» وتفصيل ماكتب في منشوره: إربل وقلعتها وأعمالها جميع ماقطعه الزابي الكبير: شهرزور وأعمالها معايش بيت قفجاق، معايش بيت القرابلي، الدشت والزرزارية.

قال: وفي هذه السنة مستهل جمادى الآخرة توفي صاحب ماردين، وهو قطب الدين ايلغازي بن البى بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق، والأمراء الأرتقية هم الذين رتقوا فتوق الاسلام أولا، وكانوا يتولون بيت المقدس وحموه من الافرنج قبل المصريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصريين، فبقي الساحل كله مع أهل الشرك فحمت الأرتقية ديار بكر وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابرا عن كابر إلى أن انتهى إلى هذا قطب الدين أعمال ميافارقين وماردين، فلما مات بقيت على ولده وله عشر سنين، وانتهى إلى ابن عمه

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سليمان بن أرتق حصن كيفا وخرتبرت، والبلاد التي تناسبها، وأضاف السلطان إليه آمد، وقد كان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة، ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته.

قلت: وفي هذه السنة أيضا توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي، وولي ابنه يعقوب.

قال القاضي ابن شداد: وبعد عود السلطان من حصار الكرك وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهما، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستورا فسار إلى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وانهم نهبوا وحرقوا، وانه نصر عليهم وكسرهم، فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد، وتقدم إلى العساكر فتبعته وسار على طريق المغار ويبوس البقاع إلى بعلبك، ومرض العماد فانقطع بها، وسار السلطان إلى حمص، ثم حماة فأقام بها إلى أن شفي العماد، ولحقه بها، وكان الأجل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن الياس إلى العماد ببعلبك لما سمع بمرضه، فسار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طب لمن حب، فبرىء بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه، رحل إلى السلطان فوافقه بحماة.

ودخلت

سنة احدى وثمانين

قال العماد: والسلطان مخيم بظاهر حماة ،فسار إلى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فسار وقطع الفرات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السلطان قد سير إلى معاقل الفرات وقلاعه، ونواحيه وضياعه، وأمر أهلها بعمارة كل سفينة في الفرات وزورق ومركب، وجمعها من كل مشرق ومغرب، ثم وصل إلى حران، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إربل، وقد كان أول من دخل في خدمة السلطان، أول ماقصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتهاء إلى السلطان، وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وآمد وحلب، وأظهر من المودة فوق ماكان في الحساب، وكان كثير الحث للسلطان على المسير إلى الموصل، هذه المرة برسوله وكتابه وقال رسوله للسلطان إن مظفر الدين إذا عبرتم الفرات يستدرك كل مافات، ويقوم بكل مايحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، وتقدم يوم الوصول إلى حران خمسين ألف دينار، وكتب خطه بذلك، فلما وصل السلطان إلى حران لم ير منه ما التزمه الرسول، فارتاب به وظن أنه مال مع المواصلة، ووشت الأعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغير وأن ماالتزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبين امره، وشاور فيه أصحابه فأشار بعضهم باتلافه، وبعضهم باستبقائه واستئلافه فعفا السلطان عنه على أن يسلم إليه قلعتي الرها وحران، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أعيدت إليه القلعتان في آخر السنة لما رأى السلطان من حركاته المستحسنة.

قال القاضي ابن شداد: وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة والتقاه مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرم، وكان قد وصل إليه عز الدين بن عبد السلام، يعني، الموصلي رسولا واسمه ابراهيم بن علي ابن عبد السلام، ويكنى بأبي الخليل، فلقيه بحماه يعتذر مما جرى، فأعطاه دستورا بعد أن أكرمه، وسار من غير غرض.

قلت: وصحب ابن عبد السلام في هذه السفرة من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة، فمدح السلطان بقصيدة أولها:

على الحي من وادي الغضا إذ تفرقوا
سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ مديحها إلى قوله:

وقالت لي الآمال إن كنت لاحقا
بأبناء أيوب فأنت الموفق

قال له السلطان: لقد وقفت وأجازه جائزة سنية.

ثم قال القاضي: وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، ووصل السلطان حران في الثاني والعشرين من صفر، وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشيء كان جرى منه، وحديث كان بلغه عنه رسوله، ولم يقف عليه وأنكره وأخذ منه حران والرها، ثم أقام في الاعتقال تأديبا له إلى مستهل ربيع الأول، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، وأعاده إلى قانونه في الاحترام والاكرام، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حران إلى رأس عين، ووصله في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان يخبره ان ملوك

الشرق بـأسرهم قـد اتفقت كلمتهـم على قصد السلطـان إن لم يعد عـن الموصـل، ومـاردين، وأنهم على عــزم ضرب المصـاف معـه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصلـه ثامن ربيع الأول عماد الدين ابن قرا أرسلان ومعـه عسكر نور الدين، فالتقاهـم السلطان واحترمهم ثم رحل مـن دنيسر نحو الموصل، حتى نـزل بموضع يعرف بـالاسماعيليات، فرتـب الموصل بحيـث يصل مـن العسكر كـل يوم نـوبة جـريدة تحاصر الموصل، فبلغ عماد الديـن بن قرا أرسلان موت أخيه نـور الدين، فطلب من السلطان دستورا طمعا في ملك أخيه، فأعطاه دستورا.

وقال العماد: خـرج السلطان مـن حران في ربيـع الأول فمر على رأس عين ودارا، فخرج اميرها بـأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الديـن أبو بكر ابن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمد نيابـه عن أخيه نور الدين فإنه كان مريضا، ثم رحـل إلى نصيبين، وتنكب طريق الدولعية فنـزل على بلد آخر ربيع الأول، ثـم توجـه إلى الموصل وخيـم على الاسماعيليات، وقـدم على السلطان زيـن الدين صـاحب إربل، وأول مـابدأ بـه السلطان يوم نـزوله على بلد قبل الاسماعيليـات ارسال ضياء الدين أبي الفضائل القـاسم بن يحيـي بـن عبـد اللـه الشهرزوري إلى الخليفـة بما عـزم عليـه مـن حصر الموصـل، فإن أهلهـا مواصلـون الأعاجـم، وخاطبـون لسلطانهم القـائم، وناقشوا اسمــه في الدنانير والدراهم، وانهم يتعززون بـالبهلوان، ويعجزون إلا عن الطاعـة والإذعان، وانهم يرسلون الى الفرنج ويقـوون نفوسهم على قصد الثغـور، وتفريـق الجمهور، وأنـه ماجـاء طمعا في استضـافة ملـك، ولااستزادة سلك، ولاقلع بيت قديم، ولاقطع اصل كريم، وإنما مقصوده الاصلي ومطلوبـه الكلي ردهم إلى طاعـة الإمام، ونصرة الاسـلام، وكشف ماااعتادو ه واعتـودوه من الظلم والظلام، وكظمهـم عن استحلال الحرام، وقطعهـم عن مـواصلـة الاعجام، وإلـزامهـم بما يجب عليهـم من حفـظ الجار، وصلـة الأرحام ،فهـذا صاحـب الجزيرة، وهـو ابن أخـي صاحـب الموصل ولي عهد أبيـه، لم يرع فيه ذمة أخيه، وأبعـده عما استحقه بالارث

والتوليـة، وحرمـه مايستـوجبه من التربيـة والتلبية، وأخـاف حرمـه وقطع رحمه، ولو تمكن منه لأطـاح دمه، ولولا خوفه من جانبه وتـوقيه من ذبيب عقاربه لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختـار الأجانب على الأقارب، وهذا صاحب إربل جـار الموصل أبوه زين الدين علي هـو الذي حفظ بيتهم، وخلـف في إحيائهـم ميتهم، وهـذا ولده في جـوارهم مسكـوه بجورهـم، وحـديث صـاحب الحديثـة في حادثـه لاتخفـى، وعين من بتكـريت مـن مخافتهم وآفتهم لاتكرى.

قلت: وفي بعـض الكتب الفاضلية عـن السلطان إلى الديـوان:« وكان قد تحيز إلى الخادم في وقت حركته صاحب تكريت والحديثة وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليـد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستـأذن في ذلك استئذانا مخصصا إلا لمحلهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته الى مـايجري في خاص الديوان العزيـز مع غيرهما مما يجري مجراهما في القـرب من الجوار، والـدخول في زمـام شرف تلك الـدار، فإن أذن لـه استثناهما في صلح إن تم معهم أوحماهما مع مباينيه إن اختار المشار اليهم البقـاء عليها، وهـذا بـرد شرف قد أعـوزه علمـه، وتاج إذا أسلمـه الحظ الشريف نظم الفخار ومنتظمه».

وفي كتاب آخـر:« وماكنا بشهـادة الله في قتـال المذكورين إلا كقـاطع كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه».

وأصحب العماد الـرسول قصيـدة مدح بها الصـاحب مجد الـدين أبـا الفضل أولها:

قضـى الـوجـد لي أن لا أفيـق مـن الـوجـد
فيـا ضلـة الـلاحـي إذا ظـن أن يهدي

محبكم جلد على كل حادث
ولكن على هجرانكم ليس بنا جلد
ببغداد حطوا رحلكم ليخصكم
أبو الفضل مجد الدين بالفضل والمجد
رآه الإمام الناصر الدين ناصرا
فحاول تعويلا على نجده المجدى

ومنها:
إليك صلاح الدين ألجأ أمره
فحط ركنه والعقد بالشد والشد
مليك على حرب العدو مصمم
ومازال فيه غالب الجد والجند
تساور أفواه الجراح رماحه
مساورة الأميال للأعين الرمد
يحل المنايا الحمر بالكفر مجريا
دم الأصفر الرومي بالأبيض الهندي
ومن لأمير المؤمنين كيوسف
فتى في مراضيه بمهجته يفدي

قال: وشرع السلطان في إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد، وسير الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري، ومعه الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر وأعمالها لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها، ونصب الجسر، وملك الأمر وعبره مظفر الدين صاحب حران وغيره من الأمراء، وخيموا بالجانب الغربي وكان الحر إذ ذاك شديدا، فأمر السلطان بالصبر عن القتال إلى أن يطيب الزمان، وأهل الموصل في الحصار، وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكره خبير بها زعيم أنه يمكن سد دجلة وسكرها وبثق فرضة اخرى وكسرها،

ونقلها وتحويلها إلى دجلـة نينوي، وتعطش الموصل إذا الماء عنهـا انزوى، وعرض ذلـك على رأي الفقيه العالم فخـر الديـن أبي شجاع ابن الـدهان البغدادي، وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفضل وعين انسانه، وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين علي، ولما سمـع بكرم السلطـان تفيأ بظلـه، وتعـرف إلى فضله، فصـدق المشير بذلـك وقال: هذا ممكـن ولايتعذر، ويتيسر ولايتعسر، ومـن كتاب عمادي إلى بغداد:« وذكر المهنـدسون أهل الخبرة انه يسهل تحويـل دجلة الموصل عنها بحيـث يبعد مستقـى الماء منها، وحينئـذ يضطر أهلهـا إلى تسليمها بغير قتال، ولاحصول ضرر في تضييق ولانزال».

فصل

فيما فعل السلطان في أمر خلاط وميافارقين وغيرهما من البلاد

قال العماد: ثـم وصل خبر وفـاة شاه أرمـن صاحـب خلاط، فتحـول اليها العزم، وترجح بها الحزم، وكان ورود خبر مـوته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موتـه في التاسع منه، ولم يخلف ولدا ولا ذا قـرابة يكون خلفا لـه فيها، ووردت كتـب الأوليـاء من أهـل بـدليس وغيرها إلى السلطـان يخطبونـه لها، وهـم خائفـون من العجم أن يتولـوها، فاختلـف الناس على السلطان فمن مشير بالإقامة إلى انفصال أمر الموصل، ومن مشير بالمسير إلى بـلاد الأرمن فـإن الموصل غير فـائتة، مـن قائل بـانقسام العسكـر في الجهتين فترجح رأي السلطان على المسير إليها، فكتـب إلى الخليفة يطلب منـه كتاب تقليـد ببـلاد الأرمـن وديار بكـر والموصـل، فجـاءه بعد فتـح ميافارقين مثال شريـف بتقليده النظر في أمر ديار بكر والنظـر في مصالح أيتام ملوكها، ثـم رحل السلطان عن الموصل في أواخر شهـر ربيع الآخر، وقدم في مقدمتـه ناصر الدين محمد بـن شيركوه ابن عمه، ومظفـر الدين صاحب حـران وأمرهما أن يسيرا إلى خلاط من أقـرب الطرق، فلما وصلا وجـدا سيف الـدين بكتمـر أحد ممـاليك شـاه أرمن قـد دخلها وحماهـا، وتغلـب عليها، وجـاء بهلوان في عسـاكر الشرق وهـو شمس الـدين أبـو جعفر محمد بن ايلـدكز متولي تلك البلاد، فنزل مـن الجانب الآخر، وكان وزيـر خـلاط مجد الـديـن بن الموفـق بـن رشيـق يظهـر للسلطـان المودة والمناصحة، وهـو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الـدين أن يقيم على القرب، فهو اشد للارهاب والرعب، ففعل ولو خلاه لسبق إليها، وقيل إن هـذا الـوزير ايضـا أنفـذ الى بهلـوان، وأمـره بـالاتيان، وأظهـر لـه المودة والاحسان، ولما تمادى الـزمان، وقـرب منها البهلـوان راسله بكتمـر وحمل

إليـه مع ابنتـه زوجـة شـاه أرمن الأمـوال التـي أودعـت المخزن، ونـدب السلطان إليها الفقية ضياء الدين عيسى، فدخلها وتخللها وتأملها وتكلم مع الوزيـر وشاوره فأحال الحال على البهلوان، وأنه جـاء ليتملك المكان، ولـو استعجلتـم لسهـل مـاصعب الآن وهـان، ثـم جـرت مـراسلـة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ماكان.

وقال القاضي ابـن شداد: وفي ربيع الآخر توفي صـاحب خلاط، وولي بعـده غـلام يدعـى بكتمر، وهـو الـذي كـان وصل رسـولا إلى خـدمـة السلطـان بسنجـار، فعدل وأحسـن إلى أهـل خـلاط، وكان متصـونـا في طـريقته، فـأطاعـه الناس ومـالوا إليـه، ولما ملك خـلاط امتدت نحـوه الأطماع، فسار نحـوه البهلوان بن ايلدكـز، فلما بلغه ذلك سير إلى خـدمة السلطان مـن يقرر معـه تسليم خـلاط إليه، وانـدراجه في جملتـه، فطمع السلطان بخـلاط، وارتحل عن الموصـل متوجها نحـوها وسير إليـه الفقيه عيسى وغـرس الدين قليـج لتقرير القـاعدة وتحريرهـا، فوصلت الـرسل، وبهلوان قد قارب البلاد جدا، فخـوف بهلوان من السلطان وأشعره أنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان، فطلب بهلـوان اصلاحه وزوجه ببنت لهم وولاه، وأعاد البلاد إليـه واعتذر إلى رسل السلطان وعـادوا من غير زبدة، وكان السلطـان قد نـزل على ميافـارقين فحاصرهـا، وقاتلهـا قتالا عظيما، ونصب عليها مجانيق وملكها في آخر جمادى الأولى.

قال العماد: واستشعـر ملوك ديار بكـر من حـركة السلطان، وكـان قد مات صـاحب ماردين كما تقدم، وبقيت الـولاية لولـده الكبير وله عشر سنين، وكان القـائم بتدبير ملكـه نظام الـدين بـن البقش، ومـات أيضا صاحب آمد نـور الدين محمد بن قر ا أرسـلان رابع عشر ربيع الأول من هـذه السنة، وتـولى ابنـه قطب الـديـن سكمان، فـاحترزوا من السلطـان، وخافوا أن يسترد بـلاد آمد منهم، فنفذ السلطـان إليهم شمس الديـن بن الفـراش ليختبر حـالهم في المحاربـة والمسـالمة، فـوجـدهم على الطـاعـة

مقيمين، وإليه راغبين، ومنه راهبين، ووصل السلطان في جمادى الأولى إلى ميافارقين، وكان دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرنقش، واستعصى فيها على السلطان، فحاصره وقاتله، ثم رأى أن القتال يطول، فراسل أميرها الأسد، ورغبه في الموادعة، ونهاه عن المقاطعة، وكان في المدينة خاتون ابنة قرا أرسلان، وهي زوجة قطب الدين صاحب ماردين الذي توفي، فأحال الأسد الأمر على الخاتون، فراسلها السلطان، ورغبها وضمن لها كل ماتطلبه منه، ووعدها أن يصاهر إليها، فما زال بهاوبا لأسدحتى لانا، فقرر السلطان لها كل ماكان باسمها واسم خدامها، وطلبت حصن الهتاخ ليكون لها عشا للافراخ، وزوج السلطان ابنه معز الدين اسحاق بإحدى كرائمها، وأبرم العهد، وأحكم العقد، وسارع السلطان إلى نداء كل ما اقترحوه وفتحت ميافارقين، وأقبل صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين على صغر سنه إلى خدمة السلطان فأكرمه وأعاده إلى منصبه وكان معه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سماقة، وقتل غيلة في رمضان من هذه السنة كما سيأتي، ثم سار السلطان لقصد الموصل، وولى تلك الديار مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي، فنزل السلطان على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل في شعبان، وعزم على أنه يشتى في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء باكيات متعرضات للشفاعة فأكرمهن السلطان، ووعدهن بالاحسان، وقال: قد قبلت شفاعتكن، لكن لابد من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم، واستقر الأمر على ان يكون عماد الدين زنكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا في اصلاح ذات البين، وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين، فإنه كانت شفاعته سابقة ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين، وتعطف وتلطف أجلهن واجلالهن، وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهن، وكن ظنن أنه لايقيم لحرمة قصدهن، ولايصدق ظنونهن، وأنه لايعرف حقوقهن، ويقضي بمكارمه ديونهن، ولايشتغل بأمر لايؤذن بمرادهن، فدخلن البلد متلومات متذممات، وبلطف الله لائذات معتصمات.

فصل

في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرضة المشهورة بحران

قال العماد: وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن، وحفظه واشتغل بالصيام، والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه، وتغير مزاجه وتعذر علاجه، وطال مرضه، وندم على رد السفراء، وسير إلى عماد الدين صاحب سنجار في انفاذ رسله ليوعز بكل مايعود بسؤله، فوصل رسوله شمس الدين بن الكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ماوراء الزابين من البوازيج والرستاق وبلد القرابلية وبني قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي وشمس الدين قاضي العسكر من جانبنا إلى الموصل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهومن بحر بحرانه في عوم، وخيمنا على نصيبين في شوال، ولم نترقب عود الرسول بنجاز الأشغال بل كان الارتحال على الارتحال، ثم استمر الصلح وصلح الأمر، وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقية، وفي ديار بكر أيضا والولايات الأرتقية، وضرب باسمه الدينار والدرهم، وانحل الاشكال وكشف المبهم.

وكتب العماد عن السلطان كتابا الى أخيه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه:« ونزل صاحب الموصل عن جميع ماوراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها، وولاية بني قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا، وان يطلق المظالم، ولايرتكب المآثم، وقد حصل لنا من صاحب

الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وعمت الهيبة والرهبة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع».

قال: ونفذ السلطان إلى شهرزور مملوكه مجاهد الدين أياز سربك فتملأ بها وتملك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركمان الايوانية مستولية بها فشتت شملها وندب للنظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفراش، وأقطع البوازيج لبعض خواصه المماليك وسير إلى البلاد نوابه، ورتب فيها لإقامة سنن العدل والاحسان أصحابه، ووقف ضيعة في البوازيج تعرف بنا فيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد.

وقال القاضي ابن شداد: لما أيس السلطان من أمر خلاط عاد إلى الموصل، فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار، وكان الحر شديدا فأقام مدة، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة واجتمع به وأعاده إلى بلده، ومرض السلطان بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مريض، وكان يتجلد ولم يركب في محفه، ووصل حران شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضعف وأيس منه، وأرجف بموته، ووصل اليه أخوه العادل من حلب، ومعه الأطباء.

قال: وكان سبب صلحه مع المواصلة أن عز الدين صاحب الموصل سيرني إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زبدة، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبده، فلما وصلت من بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من نجده، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لذلك الأمر وبهاء الدين الربيب وفوض الي أمر النسخة، وقالوا: أمض مايصل جهدكم وطاقتكم إليه، فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم أيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة، فاحترمنا احتراما عظيما، وجلس لنا، وكان

أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين أخذها من سنجرشاه وأعطاها المواصلة، وحلفته يمينا تامة، وحلفت أخاه العادل، ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه، وسرنا عنه، وهو بحران وقد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عرفة، ونحن في العسكر، وجلس العادل في العزاء، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان والأكراد، وقتل بينهم خلق عظيم، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكز وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة.

قال العماد: وأقام السلطان على نصيبين أياما قلائل، ثم رحل إلى حران فألقينا بها عصا النوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى، متواصلة الجوى، والفضل خائف من كساده، آسف على عتاده، مشفق من انخفاض قدره، وانقراض عصره، والسماح يقول هذا أوان كسوف سمائي، ونضوب مائي، والدين يندب، والملك يصخب، والايدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنيات بالاخلاص مشفوعة، والكفر في أراجيف، والقدر في تصاريف والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلما بان ضعفه، قوي على الله توكله، وأنا ملازمه ليلا ونهارا سرا وجهارا، وهو يملي علي في كل وقت وصاياه، ويفرق بقلمي على عفاته عطاياه، ومن جملة ذلك أنه اشتدت به الحال ليلة أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعدم الرجاء، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه والقاصدون المرتجون جني جنابه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهماء، ولانت لسماعها الصخرة الصماء، فسأل عن ذلك، فقيل هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك، متأسفين على مانابك، فدعاني وأمرني بكتب أسمائهم، وتفريق ما اجتمع في خزانته من المال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكنا نظن أن مابه من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السماحة راحة، واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه، وكان خلقه أحسن ماكان في حال الصحة، يخاطبنا بسجاياه

السهلة السمحة، ولايخلو مجلسه من ذوي فضل، وأولي نباهة ونبل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية ومسائل فقيهة، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد وشيم الأمجاد، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب والاستعداد، وينذر أنه إن خلصه الله من نبوة هذه النبوة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصافية الحلوة، اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لايترك شيمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعفود، والمحافظة على العهود، وانجاز الموعود، قال: وربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لاشارة الأطباء لأجل التفريج والامتاع، ولقد كان ذلك المرض محيصا من الله للذنوب وتنزيها، وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيها.

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السلطان،ووصوله إلى حران، بادر بالوصول، وصادف وقت القبول، وقام بضبط الأمور وسياسة الجمهور، والجلوس في كل يوم في النوبتية السلطانية لتولي مصالح الرعية، وإقامة وظيفة السماط، والعمل في كل يوم بالاحتياط، والتصدي لكشف المظالم، وبث المكارم، وتنفيذ مايخرج من المراسم، ورقع كل خرق، ورتق كل فتق، وحفظ المهابة، والقيام عن السلطان في كل مهم يحسن النيابة، ولقد نفعنا حضوره ورفعنا تدبيره فقد كنا على خوف من إرجاف يقوى، وانتشار خبر سوء لايطوى، لاسيما إذا خرج الاطباء وقالوا: مافيه أمل، ولكل عمر أجل، فهناك ترى الناس يستشعرون، وبإبعاد ما يعز عليهم من أعلاقهم ودوابهم يستظهرون، فزال بحضور العادل كل مخافة، وسلم الله برأفته من كل آفة، وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتديا بمعاليه، مقتفيا لمراضيه، وكان من جملة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجي شفائه، إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعليا،

وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليا، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشام ومصر المعول، وأقام العادل إلى أن وضح المزاج، وصح المنهاج، وطابت القلوب، وغابت الكروب، ثم وصل مع أخيه الى حلب وتم معه الى حمص ودمشق، وهب له نسيم مصر فاستجد إلى نشره النشق، وسيأتي ذكر مضيه الى مصر مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصل الملك الأفضل من مصر بعده الملك المظفر تقي الدين.

قال العماد: وكانت صدقاته الراتبه دارة، وبالأبرار بارة، على أن جوده مستوعب للموجود، ولايترك فضلا للوفود ، ولما مرض وعرض له من الالم ماعرض قال لي: أكتب إلى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية ان يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل بما نص على قدره في التعيين، فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصالحات من الله لدعائه مجيب، فدفع بالصدقة البلاء، ورفع بأصدق الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سنا منته السنيات، ومن جملة تلك الصدقات أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت ماعنده غير دنانير مصرية، فقال يتصدق بها مصرية، خمسة آلاف لنفوز من الثواب بأضعاف.

قال: ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام، فبنيت في أربعة أو خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وأمهما، فأسكنهم فيها مدة مقامه، وسماها دار العافية للبرء فيها من سقامه، ثم أخلاها لمن ينزل بها ضيفا، وجعلها للآوين إليها وقفا، وبعدها اتصلت المواصلة بين السلطان والمواصلة، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة لصاحب الموصل ولوالدته ولصاحبته ولابنه نور الدين رحمه الله، وقوم ماسيره إليهم مايربي على عشرة آلاف دينار

سوى الخيل والطيب والشيء البديع والغريب، وجرى أمر المواصلة على السداد وتجهزوا في النصرة الناصرية على ماسيأتي شرحه إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وانجدت الملائكة والروح وامتحت باليسر العسرة، وصحت بحطين الكسرة ، وخص الله السلطان، بفضيلة فتح القدس، وقضى حاجاته التي كانت في النفس، وسيأتي إن شاء الله شرح كل فتح في موضعه وكيف أشرق سناء النصر من مطلعه.

وكتب الفاضل من دمشق إلى تقي الدين بمصر:« ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها، وفاضت أنوارها وآثارها، وولت العلة والحمد لله واطفئت نارها، وانجلى غبارها، وخمد شرارها، وماكانت إلا فلتة وقى الله شرها، وعظيمة كفى الاسلام أمرها، ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ماعندها صبرها، وماكان الله ليضيع الدعاء، وقد أخلصته القلوب، ولاليوقف الإجابة وإن سدت طريقها الذنوب، ولاليخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب.

نعمي زادفيه الدهر ميها
فأصبح بعد بؤساه نعيما
وماصدق النذير به لأني
رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة، والعزمة ماضية حديدة،والنشاط إلى الجهاد والجنة مبسوط البساط، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج في سم الخياط».

ومن كتاب آخر:« الأحوال بالحضرة مستقيمة، والنعمة بالعافية عظيمة، والبقية الموهوبة من العمر الناصري كريمة القيمة، عرف وعرف

الناس شكرها، ولزم ولـزمـوا قدرهـا، فسيـوف الجهاد قـد كادت تهتـز في أغمادهـا، وخيـل الله قـد كـادت تنـادي أهلهـا اركبـي لميعاد طـرادهـا، والمسجد الاقصـى مبشر تأنيسه بما استوحـش منه من القـرآن وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصلبان».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة ومن توفي بها من الأعيان

قال العماد: في هذه السنة توفيت الخاتون العصمية بدمشق في ذي القعدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، فلما توفي وخلفه السلطان بالشام في حفظ البلاد، ونصرة الاسلام، تزوج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهي من أعف النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة، وأحرمهن، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، ولها أمر نافذ، ومعروف وصدقات، ورواتب للفقراء وادرارات، بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا.

قلت: وكلاهما ينسب إليها، فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذهب قرب الحمام السركسي، والرباط خارج باب النصر راكب على نهر بانياس في أول الشرف القبلي، وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغرب، فهو منسوب إلى خاتون أخرى قديمة تقدم ذكرها، وهي زمرد بنت جاولي أخت الملك دقاق لأمه، وزوج زنكي والد نور الدين رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها، وكان السلطان حينئذ بحران في بحر المرض وبحرانه، وعنف الألم وعنفوانه، فما أخبرناه بوفاتها خوفا على تزايد علته، وتوقد غلته، وهو يستدعي في كل يوم درجا ويكتب إليها كتابا طويلا، ويلقى على ضعفه من تعب الكتابة والفكرحملا ثقيلا، حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه فنعيت اليه الخاتون، وقد تعدت عنه اليهما المنون، وكانت وفاة ناصر الدين بحمص في تاسع ذي الحجة فجأة من غير مرض، وأجرى

السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ماكان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده.

قلت: وقبر الخاتون المذكور في التربة المنسوبة إليها بسفح جبل قاسيون قبلي المقبرة السركسية، وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمه ست الشام بنت أيوب فدفنته في مقبرتها بمدرستها بالعوينة، فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيها رحمهم الله، وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصدقات.

وكتب الفاضل إلى تقي الدين:« ورد الخبر عشية يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة، انتقل الى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله، بمرض حاد أعجل من لمح البصر، ومرد النظر، فإنا لله وإنا اليه راجعون، وشاهد المملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياه الله إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول فيه: وكتبته وقد صار في حفرته، واستقر في قبره، فنسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المطلع، والمعونة على ساعة هذا المصرع، ونشكر الله ثم نشكره ونذكره بأحسن مايذكره به من يذكره، إذ وقى النفس الكريمة العالية الشريفة الناصرية، وقدم قبلها من لايسره التقدم بين يديه، وجعل الله انفسنا فداها فإن تلك نعمة علينا، كما هي نعمة عليه، ولافرق الله لهذا البيت شملا، ولاقضب له حبلا، وأعظم الله أجر الملك المظفر في ابن عمه، وامتعه ببقاء عمه، وأعانه من مقابلة مقدور الله بهمه ودهمه، فليس إلا التسليم لما لايستطيع الخلق له دفعا، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإنا لانملك لها ضرا ولانفعا، ولخوف المملوك ان يلتبس الخبر في مطالعه، ويحرف الكلم عن مواضعه عجل بالإنهاء والإشعار، وسبق بما لايسره السبق به من هذه الأخبار».

قال العماد: وفيها في جمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكور سعد الدين مسعود بن أنر، ونحن قد فتحنا ميافارقين بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر ومن ذوي المآثر والمفاخر، ومارأيت أحسن منه خلقا، وأزكى عرقا، ولم يزل في الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما، ولسفور فضائله ووفور فواضله، وجد شهامته، وحد صرامته، رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج اخته فزوجه بالتي تزوجها مظفر الدين كوكبري بعده.

قلت: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها، وهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا، وكان يحترمها الملوك من أولاد أخوتها وأولادهم ويزورونها، في دارها.

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاولي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الهيجاء يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه، ولما عدنا بعد فتح ميافارقين إلى الموصل طرقه البلاء في طريقه، ققفز بحصانه على بعض السواقي فعثر به وانكسرت رجله، ثم عملت عليه قدمه، واشتد ألمه، وطال به سقمه، وانتقل إلى دمشق وتوفي بها في آخر هذه السنة، أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فجع الاسلام منه بذمر مشيح لذمار الكفر متيح.

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير ابن قرا أرسلان، وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة، قتلته مماليك مخدومه غيلة، وتمحلوا له في مباغتته بالقتل حيلة، وذلك أنه كان جالسا في ديوانه وايوانه متصدرا بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأماثل، فدخل عليه واحد منهم، وقال له: الملك يدعوك وحدك فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذي يصل منه إلى الأمير، وأغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه

ثم أخرجوا الصلاح من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القاتلين، وكانوا به واثقين.

قال: وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي، وكان المدرس بها، وكان علامة زمانه في علمه، ونسيج وحده في نظمه، وقد أوردت من شعره في صدر الكتاب مايستدل به على فضله، وإنه ممن عقم الدهر بمثله، واشتريت كتبه بأغلى الأثمان، ولكم أخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان.

قال:وفي هذه السنة رد السلطان قلعتي: الرها وحران إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لتوفره في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ماحقق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمرار، ورغب في مصاهرة السلطان، وقلده طوق الامتنان.

قال: وكان السلطان قد سكنت نفسه للمقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز، والملك الظاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين وخلا شبله أسد الدين بعده في العرين، وخيف على بلاده لصغر أولاده، واحتيج أيضا إلى الاحتياط على مافي خزائنه واستخراج دفائنه، وكذلك الخاتون خلفت أملاكا وتراثا، وأوقافا وأمتعة وأثاثا، لم يكن من الحركة بد، وقدم الكتب إلى البلاد بما صمم عليه عزمه، وأجرى به حكمه، وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والأنحاء وكتب إلى ولد ناصر الدين:« قد عرفنا المصاب بوالده رحمه الله وعظم أجرنا وأجره فيه، وإن مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياه الله نعم الخلف الصالح، وإن انتقل والده إلى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء، والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه، مسلمة إليه، مقررة في يديه، ومامضى من والده رحمه الله إلا عينه وولدنا قرة العيون، وبه

استقرار السكون، والحمد لله الذي جبر به كسر المصاب وألبسنا وإياه أثواب الثواب، فليشرح ولدنا صدره، ولايشغل سره، ويعرف خواصة وأصحابه، وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرهما أنهم باقون على عادتهم»، وكان المندوب اليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، ولم يفارق الخدمة السلطانية في هذه السنة.قال: وفي هذه السنة لما كنا على ميافارقين، وقد فتحناها ورد للسلطان مثال شريف إمامي ناصري بتفويض ولاية ماردين والحصن، وهو حصن كيفا والعلامة الشريفة الناصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف« الناصر لدين الله».

قلت: وفيها في جمادى الأولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر ابن أحمد المديني الأصبهاني محدث مشهور له تصانيف كثيرة، وفي هذه السنة توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد، محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي، المعروف بابن الصابوني، ودفن بسارية من القرافة ومولده ببغداد سنة خمسمائة، وجد أبيه لأمه شيخ الاسلام أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، فبه عرف بابن الصابوني، وكان جده صحب السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه، ونسبته بالمحمودي اليه، ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، واجتمع به ونزل الى زيارته وسأله الاقامة بدمشق، فذكر له ان قصده زيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه بمصر، فجهزه وسيره صحبة الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سار إلى ولده بمصر، وصار بينه وبينه صحبة أكيدة، ومحبة عظيمة، بحيث أنه ماكان يصبر عنه ساعة واحدة، وأقبل عليه، ولما ملك ولده الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكنه من العود إلى الشام، ووقف عليه وقفا بالديار المصرية، وعلى عقبه وهو باق بأيديهم إلى الآن.

وقرأت بخط صلاح الدين رحمه الله ماكتبه في حقه إلى الملك العادل لما كان نائبه بمصر:« الأخ الأجل الملك العادل أدام الله دولته، غير خاف

عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصابوني، وأنه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين — يعني الخبوشاني —

ماجرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى موضع غيره، لتنقطع الفتنة والخصومة بينهم بأمرنا إليه مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء، والأخ الأجل الملك العادل يتقدم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات، وحسم مادة الشكوى منه ممن يتعدى عليه إن شاء الله تعالى».

وقرأت بخط الشيخ عمر الملاءالموصلي رحمه الله كتابا كتبه إلى ابن الصابوني هذا بشيراز يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله أوله أخوه عمر بن محمد الملاءيقول فيه:« وبعد فالذي يتطلع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمور في هواطل الآلاء غير أن أيدي البلوى بالنقم ترفعني تارة إلى مقام الصديقين، وتضعني تارة أخرى إلى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب النجاة لايفتر، والحركة في طلب الفوز لاتسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمنى، وما أشبه حالي بحال القائل:

آمل في يومي إدراك المنى
حتى إذا ولى تمنيت غدا
لا وطرا أقضي من الدنيا ولا
أفعل للأخرى فعال السعدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا
ضلالة خالصة ولا هدى

-٨٤٦٥-

يا أخي ما أخبرتك بأحوالي هذه إلاّ رجاء أن تتحرك همتك لي بالشفقة والرأفـة، فتدعو اللـه لي بقلب حاضر منور بنـور الشفقة والرحمة، ويـؤمن على دعـائك مــن خضر مـن السـادة الأخــوان، وتقـول اللهــم عبـدك الضعيف عمر بن محمد الملا، يدعوك ويقول:

لاتـهـنـــي بعـــد إكـــرامـــك لي
فشـــديـــد عـــادة منقطعـــة

وقد توسـل بنا إليك نسألـك أن تبلغه آماله، وإن تميتـه موت الشهدا، وتحشره في زمـرة السعــدا، وأن تجعـل خير عمـره آخـره ، وخير أعمالــه خواتمها، وخير أيامه يوما يلقاك فيه».

-٨٤٦٦-

ثم دخلت

سنة اثنتين وثمانين

قال العماد: فرحل السلطان إلى الشام، وودع مظفر الدين صاحب حران من الفرات، ورحل صوب حلب والعادل صاحبها على المقدمة، وقد هيأ أسباب التكرمة، فوصل حلب في العشر الأوسط من المحرم، ثم رتب العادل في حلب نوابه، وصحب السلطان فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، وهو صاحب بوقبيس، وقد جمع النهضة والأمانة، وصل السلطان إلى حمص وقرر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جده ولقبه بلقبه، وكتب له منشورا بما قرر عليه من البلاد، وذلك بحمص وسلمية وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزلبيا، وكتب منشورا آخر بإسقاط المكوس بالرحبة وفيه:« وهذا دأب السلطان في جميع البلاد اقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع، وهي الخراج والأجور والزرع» واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين ابراهيم بن شروة الهكاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب واليا بها ست سنين ورتبه العزيز في آخر عهد السلطان بقوص.

قال: ورتب السلطان مع أسد الدين بحمص أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فقدم على أصحابه بتولي مصالح بابه، حتى تفرد الأسد بالأمر لسداده، وبلغ مدى رشاده، ونعت بالملك المجاهد، ونهض بمحامل المجاهد.

قال: وأقمنا بحمص أياما حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين ، وقسمنا ميراثه، وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين وهي

مستحقة للثمن، والباقي بين البنت والابن، وخلف عينا وورقا مجتمعا ومفترقا، وبلغ التراث في الملك والعين والأثاث ماعظم عن أن يقدر بمقدار، وأناف عن ألف ألف دينار، فما اعاره السلطان طرفه، بل تركه على أهل التركة.

قال: ولما شاع بدمشق خبر دنونا احتفل أهلها، واجتمع بالمسار شملها، وطلعت أعيانها، ونبعت عيونها، ووافت أبكارها وعونها، وظهر مكنونها ومخزونها، وترامت إلينا بثمراتها ومكرماتها سهولها وحزونها، ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجة، وسكينة النعمى فارجه، ودمشق كالهدي مزفوفة، وبالهدى محفوفة، وبالحسن موصوفة، وكان الناس قد ساءهم خبر المرض، فسرهم عيان السلامة، وأسهرهم الهم للاشفاق فراجعوا للشفاء كرى الكرامة، وماألذ الرجاء بعد الابلاس، والثرى غب الافلاس، والأمل عقيب الياس، وإنهم ظفروا في حالة الايحاش بالايناس، وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادس الوسواس، واجتمع السلطان في القلعة بأهله، وأقلع المرجف عن جهله، وحسنت الأحوال، وأمنت الأهوال، وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وعدنا إلى عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبثه أسراره، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنته وجنى ثماره، وزاره مرة واستنزاره، وراجعه في مصالح دولته واستشاره، وجلس السلطان في دار العدل لكشف المظالم، وبث المكارم،وإحياء المعالم، وإقامة مواسم المراسم.

وقال القاضي ابن شداد: ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم، وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشرة نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة، وقرب

زائدة، ومن عليه بحمص، وأقام أيـاما يعتبر تركـة أبيه، ثم سـار يطلب جهة دمشق، وكان دخـوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يـوما لم ير مثله فرحا وسرورا.

المحتوى